

مُعوّقاتها ومُقوّماتُها

تقديم

سماحة الشيخ

عبد العزيز بن عبد الله بن باز

مُفتي عامّ المملكة العربيّة السّعوديّة

تأليف

محمد بن إبراهيم الحمد

دار القاسم



بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء
مكتب المفتي العام

الحمدلله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده أما بعد :

فقد اطلعت على كتاب (الهمة العالية معوقاتها ومقوماتها) لمؤلفه صاحب الفضيلة الشيخ محمد بن إبراهيم الحمد فوجدته كتاباً نافعاً ومفيداً ومشجعاً على أفعال الخير والكف عن أعمال الشرو مرغباً في التعاون على البر والتقوى والتواصي بالحق والصبر عليه فجزاه الله خيراً وضاعف مثوبته ونفع المسلمين بكتابه هذا إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه .

مفتي عام المملكة العربية السعودية

ورئيس هيئة كبار العلماء وادارة البحوث العلمية والإفتاء



عبدالعزيز بن عبدالله بن باز

الرقم : ٢٩١ / ١٧ / خ التاريخ : ١٤١٧/٨/٢٨هـ المشفوعات :

مقدمة الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن الهمَّة العالية خصلة شريفة، وخلَّة حميدة، وخلق رفيع، وأدب سامٍ، تتعشقها قلوب الكرام، وتهفو إلى اكتسابها نفوس الأبطال.

والناس إنما تعلو أقدارهم، وترتفع منازلهم بحسب أنصبتهم من علو الهمة، وشرف المقصد.

فمن علت همته اتصف بكل جميل، ومن دنت همته اتصف بكل خلق رذيل.

فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها، والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات وتقع عليها.

والهمة العالية لاتزال بصاحبها، تضربه بسياط اللوم والتأنيب، وتزجره عن مواقف الذل واكتساب الرذائل، وحرمان الفضائل- حتى ترفعه من أدنى دركات الحضيض إلى أعلى مقامات المجد والسؤدد.

والهمة العالية ـ أيضاً ـ ترفع القوم من سقوط، فتبدلهم بالخمول نباهة، وبالحطة رفعة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية؛ ذلك أن علو الهمة يستلزم الجد والإباء، ونشدان المعالي، وتطلاب الكمال، والترفع عن الدنايا، والصغائر، ومحقرات الأمور.

وإن مما يلاحظ على أمة الإسلام في عصورها المتأخرة دنوَّ الهمم، والرضا بالدون، والقعودَ عن معالي الأمور، والاشتغال بالسفاسف والمحقرات، وذلك على مستوى الأفراد والجماعات، إلا من رحم ربك وقليل ما هم.

ولهذا أصبحت غرضاً لأعدائها، الذين تسلطوا عليها، وجاسوا خلال ديارها، فساموها سوء العذاب، وكانت عزيزةً مهيبةَ الجناب، فهوت من عليائها، ونزلت من شامخ عزها، ولقيت صغاراً بعد شمم، وذلاً بعد عزة، وجهلاً بعد علم، وبطالة بعد نشاط، وتقاطعاً بعد ائتلاف، وكادت أن تشرف على حضيض التلاشي والفناء.

فما أحوجنا ـ نحن المسلمين ـ أفراداً وجماعات ـ أن نرجع إلى ديننا، وأن نعلي هممنا؛ حتى يعود لنا مجدُنا السليب، وعزتنا القعساء.

وإن مما يعين على ذلك أن تُذكى معاني الهمة، وأن تحرك في النفوس، وأن ينبري أهل العلم لاستنهاض الهمم، وبعث العزائم.

وبما أن الطرق لهذا الباب قليل، والحاجة إليه ماسة ـ تطفَّلت بكتابة هذه الصفحات مع علمي أنني لن أعطي هذا الموضوع حقه، ولن أحيط به من جميع جوانبه؛ فأنَّى لقلم بليد، وهمة قاعدة، وفكر قاصر ـ كحالي ـ أن يقوم بذلك؟؟.

وإنما هي محاولة عسى الله أن يبارك فيها، وينفع بها.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الهمة العالية كغيرها من الأخلاق الفاضلة؛ فمنها ما هو غريزي جبلي فطري، ومنها ما هو اكتسابي يأتي بالدربة، والممارسة، والمران كما سيأتي بيانه في تضاعيف هذا البحث ـ إن شاءالله تعالى ـ.

ثم إن للهمة العالية معوقاتٍ ومقوماتٍ، معوقات تعوق عن إدراكها،

ومقومات تنهض بالفرد والجماعة لاكتسابها والتحلي بها.

ولهذا جاء عنوان الكتاب حاملاً المسمى الآتي:

الهمة العالية

معوقاتها ومقوماتها

أما خطة البحث فقد جاءت بعد هذه المقدمة مشتملة على تمهيد، وبابين، وخاتمة، وذلك كما يلي:

التمهيد وتحته:

- تعريف الهمة العالية وما يلحق بها.
- أصناف الناس في شأن الهمة.
- اختلاف الهمم والشهوات والأماني.

الباب الأول:

معوقات الهمة العالية:

وتحته ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: دنوالهمة وذمه.
- الفصل الثاني: مظاهر دنو الهمة.
- الفصل الثالث: أسباب دنو الهمة.

الباب الثاني:

مقومات الهمة العالية:

وتحته ثلاثة فصول:

- الفصل الأول: علو الهمة وتحته أربعة مباحث:
  - المبحث الأول: فضل علو الهمة، والثناء عليه، والحث على اكتسابه.
  - المبحث الثاني: الهمة العالية، وشرف المقصد.
  - المبحث الثالث: موقف الإسلام من علو الهمة.

ـ المبحث الرابع: أقوال مضيئة في الهمة.

ـ الفصل الثاني: أسباب اكتساب الهمة العالية.

ـ الفصل الثالث: نماذج رائعة للهمة العالية.

الخاتمة: وقد اشتملت على ملخص لأهم ما ورد في البحث.

هذا ما تيسر جمعه وتقييده في هذا الشأن، فلعل فيه بعثاً للهمم، وإيقاظاً للعزائم، والله المستعان، وعليه التكلان.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

محمد بن إبراهيم الحمد
٢٨/١٢/١٤١٥هـ
الزلفي ١١٩٣٢
ص ب: ٤٦٠

مقدمة الطبعة الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب الهمة العالية، وهذه الطبعة تحتوي على زيادات، وإضافات، وتنقيحات.

كما تحلت بمقدمة سماحة الإمام الوالد الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز الذي تكرم واقتطع جزءاً من وقته النفيس، فقرأ هذا الكتاب، وقرظه، وشجع على نشره.

وإن الإنسان لا يكاد يعدو الحقيقة إذا قال: إن هذا الإمامَ الفَذَّ رمزٌ للهمة العالية في عصرنا الحاضر؛ فقلَّ أن يوجد له نظير، وقلَّ أن تجد خصلة من خصال الخير والألمعية إلا وهي متوافرة في سماحته؛ فلقد جمع الله له من كريم الخلال، وحميد الخصال، ومن مقومات الهمة العالية ـ ما لم يُجمع لغيره إلا في القليل النادر على مر الأزمان.

ومع أنه قد جاوز السابعة والثمانين، وأهدف على التسعين من عمره ـ إلا أن همته تتجدد، ونفسه تكبر وتتسامى؛ فيزداد تحملاً للتبعات، وتضلعاً بالمسئوليات، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وليـــس لله بمستنكـــر أن يجمع العالم في واحد

ولولا خشية رفض الشيخ، وكراهيته لما يكتب عن شخصه خصوصاً في كتاب تفضل في قراءته وتقديمه ـ لأبَـنْتُ عن شيء من همته العالية، وسيرته العطرة، التي لم تعد خافية على القاصي والداني، فلعل الله ييسر فرصة قريبة للكتابة في هذا الشأن.

فأسأل الله أن يحفظ شيخنا، وأن ينسأ له في أثره، ويبارك في عمره، وأن يمتعه المتاع الحسن، ويبقيه ذخراً للإسلام والمسلمين.

كما أسأله ـ عز وجل ـ أن يجزي كلَّ من أعان على نشر هذا الكتاب خير الجزاء؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الزلفي

٢٢/٧/١٤١٧هـ

التمهيد

وتحته:

- تعريف الهمة العالية وما يلحق بها.
- أصناف الناس في شأن الهمة.
- اختلاف الهمم والشهوات والأماني.

تعريف الهمة العالية وما يلحق بها

أولاً: تعريف الهمة:

الهمة مأخوذة من الهمِّ، والهمُّ أصل صحيح.

قال ابن منظور: «والهمة واحدة الهمم، والمهماتُ من الأمور: الشدائد المحرقة»[١].

قال: «وهمَّ بالشيء يهم همَّاً: نواه، وأراده، وعزم عليه»[٢].

وقال ابن فارس: «والهم ما هممت به، وكذلك الهمة»[٣].

والهمة تُنطق بكسر الهاء وفتحها.

قال ابن منظور: «الهَمَّةُ، والهِمَّة: ما هَمَّ به من أمر ليفعله، وتقول: إنه لعظيم الهمة، وإنه لصغير الهمة، وإنه لبعيد الهِمَّة والهَمَّة بالفتح»[٤].

وقال ابن القيم في تعريف الهمة: «والهِمَّة فِعْلَةٌ من الهم، وهو مبدأ الإرادة، ولكن خصوها بنهاية الإرادة، فالهم مبدؤها، والهمة نهايتها»[٥].

وقال الفيروزأبادي: «الهمة ما هُمَّ به من أمر ليفعل»[٦].

قال ابن فارس: «والهمام الملك العظيم الهمة»[٧].

---

(١) لسان العرب لابن منظور ١٢/ ٦٢٠.
(٢) لسان العرب ١٢/ ٦٢٠.
(٣) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٦/ ١٣.
(٤) لسان العرب ١٢/ ٦٢١.
(٥) مدارج السالكين لابن القيم ٣/ ٥.
(٦) القاموس المحيط للفيروزأبادي ١٥١٢.
(٧) معجم مقاييس اللغة ٦/ ١٣، وانظر اللسان ١٢/ ٦٢١.

«وقيل: الهمام السيد السخيُّ الشجاع»[1].

ثانياً: تعريف العالية:

العالية اسم فاعل من الفعل علا.

«وعُلو كل شيء، وعِلوه، وعَلْوه، وعُلاوته، وعاليه، وعاليته ـ أرفعه»[2].

«وعلا الشيء عُلوّاً فهو عليٌّ، وعَلِي، وتَعَلَّى»[3].

وعالية كل شيء أرفعه وأشرفه.

قال الأزهري: «وعالية الحجاز أعلاها، وأشرفها موضعاً»[4].

ثالثاً: تعريف الهمة العالية:

من خلال ما مضى يمكن تعريف الهمة العالية فيقال:

هي النية الصادقة، والعزمة الجازمة، والإرادة القوية الرفيعة، والرغبة الأكيدة في التحلي بالفضائل والتخلي من الرذائل.

والهمة توصف بالعلو، وتوصف بالدنو، فيقال: همة عالية، ويقال: همة دانية.

فالهمة العالية هي ما مضى تعريفها، والهمة الدانية بعكس ذلك.

ويقال ـ أيضاً ـ علو الهمة، ودنو الهمة.

رابعاً: تعريف علو الهمة:

«هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور، وطلب المراتب السامية، واستحقار ما يجود به الإنسان عند العطية، والاستخفاف

---

(١) لسان العرب ١٢/ ٦٢١.
(٢) لسان العرب ١٥/ ٨٣.
(٣) لسان العرب ١٥/ ٨٧.
(٤) لسان العرب ١٥/ ٨٧.

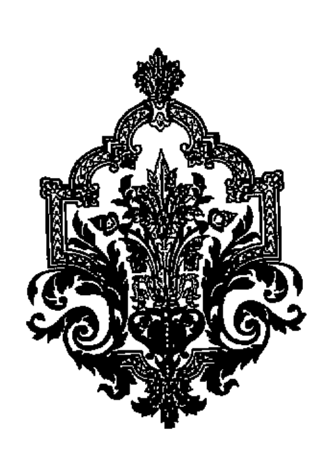
بأوساط الأمور، وطلبُ الغايات، والتهاون بما يملكه، وبذل ما يمكنه لمن يسأله من غير امتنان ولا اعتداد به»[١].

خامساً: تعريف دنو الهمة:

«هو ضعف النفس عن طلب المراتب العالية، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات، واستكثار اليسير من الفضائل، واستعظام القليل من العطايا والاعتداد به، والرضى بأوساط الأمور وصغائرها»[٢].

ويمكن أن يعرف دنو الهمة فيقال:

هو إيثار الدعة، والرضا بالدون، والقعود عن معالي الأمور.



(١) تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٢٨.

(٢) تهذيب الأخلاق ص ٣٤.

أصناف الناس في شأن الهمة[1]

الناس في شأن الهمة على أربعة أصناف:

أحدهم: رجل يشعر بأن فيه الكفايةَ لعظائم الأمور، ويجعل هذه العظائمَ هِمَّتَه.

وهذا مَنْ يسمى «عظيم الهمة»، أو «عظيم النفس»، أو «كبير الهمة»، أو «كبير النفس».

ثانيهم: رجل فيه الكفاية لعظائم الأمور، ولكنه يبخس نفسه، فيضع همه في سفساف الأمور، وصغائرها.

وهذا من يسمى «صغير الهمة»، أو «صغير النفس».

ثالثهم: رجل لا يكفي لعظائم الأمور، ويحس بأنه لا يستطيعها، وأنه لم يخلق لأمثالها، فيجعل همته وسعيه على قدر استعداده.

وهذا الرجل بصير بنفسه، متواضع في سيرته.

رابعهم: لا يكفي للعظائم، ولكنه يتظاهر بأنه قوي عليها، مخلوق لأن يحمل أثقالها.

وهذا من يسمونه «فخوراً»، وإن شئت فَسَمِّهِ «مُتَعَظِّماً».



---

(١) انظر رسائل الإصلاح للعلامة محمد الخضر حسين ٢/ ٨٧.

اختلاف الهمم والشهوات والأماني

يختلف الناس في هممهم، وأمانيهم، وشهواتهم؛ فمنهم من تسمو همته، ومنهم من تدنو، ومنهم من هو بين بين.

وفيما يلي أمثلة لذلك[١]:

١ ـ اجتمع عبدالله بن عمر، وعروة بن الزبير، ومصعب بن الزبير، وعبدالملك بن مروان بفناء الكعبة؛ فقال لهم مصعب: تمنوا، فقالوا: ابدأ أنت، فقال: ولاية العراق، وتَزَوُّجَ سكينةَ ابنة الحسين، وعائشة بنت طلحة بن عبيدالله، فنال ذلك، وصدَّق كلَّ واحدةٍ خمسمائة ألف درهم، وجهزها بمثلها.

وتمنى عروة بن الزبير الفقه، وأن يحمل عنه الحديث، فنال ذلك.

وتمنى عبدالملك الخلافة فنالها.

وتمنى عبدالله بن عمر الجنة!.

٢ ـ **قال قتيبة بن مسلم لحصين بن المنذر**: ما السرور؟ قال: امرأة حسناء، ودار قوراء[٢]، وفرس مرتبط بالفناء.

٣ ـ **قيل لضرار بن الحسين**: ما السرور؟ قال: لواء منشور، وجلوس على السرير، والسلام عليك أيها الأمير.

٤ ـ **وقيل لعبدالملك بن الأهتم**: ما السرور؟ فقال: رفع الأولياء،

---

(١) انظر وفيات الأعيان وأنباء وأبناء الزمان لابن خلكان ٣/٢٩ ـ ٣٠، وانظر عيون الأخبار لابن قتيبة ١/٢٥٨ ـ ٢٥٩، وبهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبدالبر ١/١١٧ ـ ١٢٧، وانظر المحاسن والمساوىء لإبراهيم البيهقي ص ٣٠٦ ـ ٣٠٩، وكتاب الفاضل في صفة الأدب الكامل لأبي الطيب محمد الوشاء ص ١٩٢ ـ ١٩٥، تحقيق د. يحيى الجبوري.

(٢) دار قوراء: واسعة الجوف.

وحطُّ الأعداء، وطول البقاء مع القدرة والنماء.

٥ ـ **وقال آخر:**

أطيبُ الطيباتِ قتلُ الأعادي   واختيالٌ على متون الجياد
وأيادٍ حبوتهن كريماً   إن عند الكريم تزكو الأيادي

٦ ـ **قيل لبعض الحكماء:** تمنَّ، قال: محادثةَ الإخوانِ، وكفافاً من عيش يسد خلتي، ويستر عورتي، والانتقال من ظل إلى ظل.

٧ ـ **وقيل لآخر:** ما بقي من ملاذِّك؟ قال: مناقلةُ الإخوانِ الحديثَ على التلاع العُفْر في الليالي القُمْرِ.

٨ ـ **قيل لامرىء القيس:** ما أطيب العيش؟ قال: بيضاء رعبوبة[1]، بالطيب مشبوبة[2]، بالشحم مكروبة[3].

٩ ـ **وقيل لطرفة مثل ذلك فقال:** مطعم شهيٌّ، وملبس دفيٌّ، ومركب وطيٌّ.

١٠ ـ **وقيل للأعشى مثل ذلك فقال:** صهباءُ صافيةٌ، تمزجها ساقية، من صوب غادية.

١١ ـ **وقيل لمَلِكٍ:** ما السرور؟ فقال: حِمىً ترعاه، وعدوٌّ تنعاه.

١٢ ـ **وقيل لراهب:** ما السرور؟ قال: الأمان من الوجل إذا انقضت مدة الأجل.

١٣ ـ **وقيل لمظلوم:** ما السرور؟ قال: كفايةٌ ووطنٌ، وسلامةٌ وسكن.

١٤ ـ **وقيل لمغنٍّ:** ما السرور؟ قال: مجلسٌ يَقِلُّ هذره، وعودٌ

---

(١) الرعبوبة: البيضاء الحسنة الرطبة.
(٢) مشبوبة: قد ظهر حسنها وأشرق لونها.
(٣) المكروبة: المفتولة المشبوبة.

يصفو وتره، وعقول تفهم ما أقول.

١٥ ـ **وقيل لورّاق**: ما السرور؟ قال: جلودٌ وأوراق، وحبر برّاق، وقلم مشّاق.

١٦ ـ **وقيل لبعضهم**: ما السرور؟ قال: بنون أغيظ بهم عداتي، ولا تُقرع معهم صَفاتي[1].

١٧ ـ **وقيل لفتاة**: ما السرور؟ قالت: زوجٌ يملأ قلبي جَلالاً، وعيني جَمالاً، وفنائي جِمالاً.

١٨ ـ **وقيل لطفيلي**: ما السرور؟ فقال: نَدامى تسكن صدورهم، وتغلي قدورهم، ولا تغلق دورهم.

١٩ ـ **وقيل لقانص**: ما السرور؟ فقال: قوس مأطورة[2]، وشُرعة مشزورة[3]، ونبال مطرورة[4].

٢٠ ـ **وقيل لمحبوس**: ما السرور؟ فقال: فكاك يَفْجَأ، وإطلاق لا يرزأ.

٢١ ـ **قال محمد الخضر حسين**:

ولولا ارتياحي للنضال عن الهدى ... لفتَّشتُ عن وادٍ أعيش به وحدي[5]

٢٢ ـ **وقال**:

أنا لولا همةٌ تحدو إلى ... خدمة الإسلام آثرتُ الحماما[6]

وهكذا تتفاوت الهمم، وتختلف الشهوات والأماني؛ فكلٌّ يعمل على شاكلته، ولكل وجهة هو موليها.

---

(١) الصفاة: الصخرة الملساء، يعني لا يمسني أحد بسوء.

(٢) مأطورة: من أطرت القوس إذا حنيتها فهي محنية.

(٣) شرعة مشزورة: الوتر مشدود على القوس.

(٤) نبال مطرورة: ذات طُرَّة وهيئة حسنة.

(٥) خواطر الحياة لمحمد الخضر حسين ص ٩١.

(٦) خواطر الحياة ص ٢٣٣.

«فَكِبَرُ الهمة وضعفها يمثلان لك الإنسانيةَ بالسلك الذي ينظم خرزاً كثيراً تباينت معادنها شرفاً وحِطَّةً، واختلفت مناظرها سماجةً وجمالاً»[١]. .

---

(١) حياة الأمة لمحمد الخضر حسين ص ٣٢.

الباب الأول

معوقات الهمة العالية

وتحته ثلاثة فصول:

ـ الفصل الأول: ذم دنو الهمة.

ـ الفصل الثاني: مظاهر دنو الهمة.

ـ الفصل الثالث: أسباب دنو الهمة.

الفصل الأول
ذم دنو الهمة

دنو الهمة مسلك دنيء، ومركب وطيء، وخلق ساقط، وعمل مرذول، لا يليق بأهل الفضل، ولا ينبغي من أهل النبل والعقل.

والناس إنما تتفاوت أقدارهم بتفاوت هممهم.

ولذلك فداني الهمة لا قيمة له ولا قدر؛ لأنه مَيَّال للدعة، مؤثر للراحة، مخلد للأرض، قاعد عن المكارم، كَلِفٌ بالصغائر، مولع بمحقرات الأمور، هَمُّهُ خاصةُ نَفْسِه، فِكْرُه محصورٌ في مطعمه وملبسه، وقوت يومه وليلته.

أما تطلاب المعالي، ونشدان الكمالات ـ فلا يخطر له ببال، ولا يحوم له حول ما يشبهه خيال.

هذه بعض ملامح دنو الهمة، وتلك بعض صفات داني الهمة، تلك الصفات التي تجعل من صاحبها غرضاً للذم، وعُرْضَةً لِلَّوم.

ولهذا عِيب على امرىء القيس قوله:

لنا غنمٌ نُسَوِّقُها غزار ... كأن قرون جِلَّتها العِصِيُّ
وتملأ بيتنا إقطاً وسمناً ... وحسبك من غنىً شبعٌ وريُّ[1]

وعيب على طرفة بن العبد قوله[2]:

---

(١) ديوان امرىء القيس ص ١٧١.
(٢) ديوان طرفة بن العبد ٣٢ ـ ٣٣.

ولولا ثلاثٌ هنَّ من عيشة الفتى وجدِّك[١] لم أحفلْ[٢] متى قام عُوَّدي[٣]
فمنهنَّ سبقي العاذلاتِ بشربة كُمَيْتٍ[٤] متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبِدِ
وكرِّي إذا نادى المضاف[٥] مُحَنَّباً[٦] كَسِيْد[٧] الغضا نَبَّهْتَهُ المتورِّدِ[٨]
وتقصيرُ يوم الدَّجنِ[٩] والدجنُ معجبٌ بِبَهْكَنَة[١٠] تحت الخِباء[١١] المُعَمَّدِ

يقول: لولا حبي ثلاث حصال هن من اللذات ـ لم أبالِ متى قام عودي من عندي؛ آيسين من حياتي.

وهذه الثلاث هي: شرب الخمر، وإغاثة المذعور، وتقطيع اليوم الذي تلبدت سماؤه بالغيوم ـ بالتمتع بامرأة حسناء تحت الخباء المعمد.

هذا هو غاية همته، ومنتهى طموحه، ولولا ذلك ـ كما يقول ـ لم يبالِ بالمنية متى نزلت به[١٢]!

وقريب من ذلك قول أبي نواس:

إنما العيش سماع ومدام وندام

---

(١) جدِّك: قسم، والجد هو الحظ والبخت.
(٢) لم أحفل: لم أبال.
(٣) عُوَّدي: جمع عائد من العيادة للمريض.
(٤) كميت: وصف للخمرة، وهي التي لونها بين السواد والحمرة.
(٥) المضاف: المذعور الذي ضافته الهموم.
(٦) محنباً: المحنب هو الفرس الذي في يديه الحناء.
(٧) سيد الغضا: نوع من الذئاب، وهو أخبثها، ويسمى ذئب الغضا.
(٨) المتورد: الذي ورد الماء.
(٩) الدجن: الغيم في السماء، وتقصير يوم الدجن: تقطيعه بالعبث، وجعله قصيراً باللعب.
(١٠) البهكنة: المرأة الجميلة الحسنة الخلق.
(١١) الخباء المعمد: الخيمة.
(١٢) انظر شرح المعلقات العشر للزوزني ص ١١٢ ـ ١١٣.

فـــإذا فـــاتـــك هـــذا فعلـى الـدنيـا السـلام[١]

فتراه يقصر العيش اللذيذ على السماع، والمدام، والندام، وما عدا هذه الثلاثة ـ عنده ـ لا قيمة له تذكر!.

فأي معنى لحياة هؤلاء وأمثالهم؟ وأي عظمة يبتغونها؟ وأي فضيلة يسابقون إليها؟.

فتلك الهمم والأماني وما شاكلها وجرى مجراها لا تعد من معالي الأمور، التي تتسابق فيه الهمم، بل إنها من سفولِ الهمة، ومما يأنفه الكرام، ويأباه ذوو المروءة والطبع السليم، ويجزع من أن يوصف به أهل الفضل والمكانة.

ولذلك جزع الزبرقان بن بدر أيَّما جزع، وذلك عندما هجاه الحطيئة بقوله:

دع المكـارمَ لا تـرحـل لبغيتهـا واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكاسي[٢]

وبلغ من جـزعه أن استـعدى على الحطـيئة أمـير المؤمنين عـمر ابن الخطاب ـ رضـي الله عنه ـ فجـعل عمـر يهون البـيت على الزبرقـان، ويحمله على أنه معاتبة لا هجاء؛ كراهة أن يتعرض لشأن الحطيئة.

ولكن الزبرقان صَعُب، وعزَّ، وأنكر ألا تبلغ به مروءته وهمته إلا أن يأكل ويلبس[٣].

ولذلك ـ أيضاً ـ فلا غرو أن يتردد على الألسنة ذمُّ الهمم الدانية وأصحابها.

قال حاتم الطائي:

لحـى الله صعلـوكـاً منـاه وهمُّـه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما

يرى الخِمْص تعذيباً وإن يلقَ شبعةً يَبِـتْ قَلْبُـهُ مـن قِلَّـة الهـمِّ مبهمـا[٤]

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٢٥٩.

(٢) ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكيت ص ٥٠، وانظر: عيون الأخبار ١/ ٢٣٦.

(٣) انظر العفو والاعتذار للرَّقَّام البصري ١/ ٧٢ ـ ٧٣، وتاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري لطه أحمد إبراهيم ص ٣٦.

(٤) ديوان حاتم ص ٤٥، وانظر عيون الأخبار ١/ ٢٣٣.

وقال الآخر:

إذا ما الفتى لم يبغِ إلا لباسَهُ ... ومطعمَه فالخيرُ منه بعيدُ[(١)]

وقال المعري:

وإن كان في لبس الفتى شرف له ... فما السيف إلا غمده والحمائل[(٢)]

قال علي بن المقرب العيوني:

عَدِمْتُ فؤاداً لا يبيت وهَمُّهُ ... كرامُ المساعي وارتقاءٌ إلى المجد

لعمري ما دَعْدٌ بِهَمِّي وإن دنت ... ولاليَ من هند غرام ولا وجد

ولكن وجدي بالعلا وصبابتي ... لعارفةٍ أُسْدي ومكرمة أُجْدي[(٣)]

وقال:

وذو الدناءة لو مَزَّقْت جِلْدَته ... بشفرة الضَّيْمِ لم يَحْسِسْ لها ألما[(٤)]

وقال البارودي:

وما أنا ممن تأسِرُ الخمرُ لُبَّه ... ويملك سمعيه اليراعُ المثقَّبُ[(٥)]

وقال الرافعي- رحمه الله-: «وأما ضعف الهمة فمنزلة الحيوان الذي لا هم له إلا أن يوجدَ كيفما وجد، وحيثما جاء موضعه من الوجود؛ إذ هو يولد ويكدح ويكد؛ ليكون لحماً، وعظماً، وصوفاً، ووبراً، وشعراً أثاثاً، ومتاعاً، وكأنه ضربٌ من النبات إلا أنه نوعٌ آخر من المنفعة»[(٦)].

هذا وسيمر بنا ـ إن شاءالله ـ مزيد بيان لهذا الأمر عند الحديث عن مظاهر دنو الهمة.

---

(١) عيون الأخبار ١/٢٣٨.

(٢) شرح ديوان سقط الزند للمعري ص ٥٧.

(٣) علي بن المقرب العيوني حياته- شعره، تأليف د. علي الخضيري ص ٢٣٨.

(٤) علي بن المقرب ص ٢٥٨.

(٥) ديوان البارودي شرح علي عبدالمقصود عبدالرحيم ص ٤٢.

(٦) وحي القلم لمصطفى صادق الرافعي ٣/٣٧٩.

الفصل الثاني
مظاهر دنو الهمة

دنو الهمة يأخذ مظاهر عديدة، وصوراً شتى، فمن ذلك ما يلي:

١ـ دنو الهمة في طلب العلم:

فهناك من لا يطلب العلم أصلاً، ولا يسعى إلى نيل الضروري منه، مما لا يسعه الجهل به، مع قدرته على اكتسابه وتحصيله.

وهناك من يطلب العلم ويَجِدُّ في تحصيله، لا لإدراك فضيلته، ولا لأن يرفع به الجهل عن نفسه، ويزكيها به، ولا لينشره ويبثه بين الناس.

وإنما همه الأكبر، وقِبْلَةُ قلبه تلك الشهادة التي سوف ينالها، وتلك الوظيفة التي سيحصل عليها بعد ذلك، والتي يظن أنه بمجرد حصوله عليها سينال العز، ويضمن المستقبل، ويعيش عيشة السعادة والرغد!.

وهناك من يطلبه؛ ليبز به الأقران، ويماري السفهاء، ويباهي العلماء، ويصرف وجوه الناس إليه.

قال العلامة محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ: «لم يقض حق العلم، بل لم يدر ما شرف العلم ذلك الذي يطلبه؛ لينال به رزقاً، أو ينافس فيه قريناً، حتى إذا أدرك وظيفة، أو أنس من نفسه الفوز على القرين أمسك عنانه ثانيه، وتنحى عن الطلب جانباً.

وإنما ترفع الأوطان رأسها، وتبرز في مظاهر عزتها بهمم أولئك الذين

يقبلون على العلم بجد وثبات، ولا ينقطعون عنه إلا أن ينقطعوا عن الحياة»[١].

ومن مظاهر دنو الهمة في هذا الشأن ما تجده عند بعض المنتسبين للعلم؛ فما أن يشدو في العلم، ويكتسب قليلاً منه ـ إلا ويتطاول على مقام الراسخين في العلم، ويفَوِّق سهامه نحو من سبقوه في الفضل والنبل، فما مكانه بين أولئك إلا كما قيل:

إذا تـلاقـى الفيـولُ وازدحمـت فكيف حالُ البعوضِ في الوسط

أما كبير الهمة فيريد أن يكون النفع بعلمه أشمل، ومما يدرك به هذا الغرضَ احترامُه لآراء أهل العلم.

ولا يعني احترامها أخذها بالقبول والتسليم على أي حال، وإنما يعني النظر إليها بتثبت، وعرضها على الميزان العلمي الصحيح، ثم الفصل فيها من غير تطاول عليها، ولا انحراف عن سبيل الأدب في تفنيدها.

ولهذا فالفطر السليمة، والنفوس الزاكية لا تجد من الإقبال على حديثِ مَنْ يستخـفُّه الغرور بما عنده مثل ما تجد من الإقبال على حديثِ مَنْ أحسن الدرس أدبه، وهذب الأدب منطقه[٢].

ومن مظاهر دنو الهمة في طلب العلم ما يقع بين بعض طلابه من تحاسد وتغاير، وتنافس غير شريف.

كل ذلك يذهب ببهجة العلم وبهائه، ويُكْسِفُ نوره وضياءه.

٢ ـ الكسل في الدعوة إلى الله:

وهذا من أعظم مظاهر دنو الهمة، فكم من المسلمين من يتوانى في الدعوة إلى الله مع أنه على درجة من العلم والبيان، تؤهله لنفع الناس، والتأثير فيهم، وإيصال الخير لهم.

---

(١) رسائل الإصلاح ١/ ٨٤.

(٢) انظر رسائل الإصلاح ١/ ٨٩.

وكم ممن يدعو إلى الله من تضعف نفسه، وتدنو همته، وينكص على عقبيه عند أدنى عقبة تعترضه، إما من كلام الناس ولومهم، وإما من إعراضهم وقلة استجابتهم، أو غير ذلك مما لابد لمن يدعو إلى الله من مواجهته.

أين هؤلاء من سير الأنبياء والمرسلين، ومن سير العلماء العاملين، والدعاة المخلصين؟

بل أين هم من أهل الباطل، ودعاة الضلالة الذين يجهدون ويألمون في نصر باطلهم، وهم لا غاية شريفة لهم يطلبونها؟

بل أين هم من عشاق المناصب، ومن ضحايا الغرام والغزل، ممن يضحي واحدهم بكل ما يملك في سبيل مطلوبه، غير مبال بلوم اللائمين، وعذل العاذلين؟ فهذا أحدهم يقول:

عَذْلُ العواذلِ حول قلبي التائه ... وهوى الأحبة فيه من سودائه[(١)]

إلى أن يقول:

أأحبه وأحب فيه ملامة ... إن الملامة فيه من أعدائه[(٢)]

وكما قال الآخر:

أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً ... حُبّاً لذكرك فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ[(٣)]

إن هذا ـ والله ـ لهو المصاب الجلل، والخطب الفادح أن تجد أنصار الحقيقة، ودعاة الحق متخاذلين متضعضعين، يفتقدون روح الصبر والمصابرة، وخلق الجد والمثابرة!

ويحهم أنسوا أن حب السلامة يزري بالكرام؟ أم غاب عنهم أنه لا يسلم أحد من أذى الناس وحسدهم؟

---

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبري ١/١.
(٢) ديوان المتنبي بشرح العكبري ١/٤.
(٣) البيت لأبي الشيص، انظر الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني ١/٦٠، تحقيق د. إبراهيم السامرائي.

ليس يخلو المرء من ضدٍّ وإن حاول العزلة في رأس جبل[١]

أم تراهم زهدوا بما عند الله من عظيم الثواب، وأمنوا مما لديه من أليم العقاب؟

أم تناسوا وعد الله الصادق بأن العاقبة للتقوى وللمتقين؟ وبأن الله ـ عز وجل ـ يتولى من تولاه، وينصر من نصره، ويمده بألطاف من عنده، ويكون معه المعيَّةَ الخاصة المقتضية للنصرة والتأييد، والرعاية والتسديد؟.

قال – تعالى –: ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [طه: ١٣٢].

وقال: ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ [محمد: ٧].

وقال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [النحل: ١٢٨].

٣ ـ التهرب من المسؤولية:

فكثير من الناس يتهرب من المسؤولية، ويلقي باللائمة والتبعة على غيره.

وهذا دليل على دنو الهمة، والرغبة في إيثار السلامة، والزهد بما عند الله من الأجر والمثوبة.

ومن مظاهر التهرب من المسؤولية ما يلي:

أ ـ التخاذل: وذلك بكثرة الاعتذارات، أو بالتماس المسوغات، أو بالاحتجاج بكثرة المشاغل، أو أنه لم يقتنع من جدوى ذلك العمل، وهكذا دواليك...

ب ـ التخذيل: وهو أشد مما قبله، فتجد من الناس من لا يقدم شيئاً يذكر، وليته يكتفي بذلك، إنما تجده مخذلاً لمن أراد العمل والبذل، وذلك بالإرجاف، والتخويف، والتحذير، فهذا وأمثاله لهم نصيب من قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ﴾. [النساء: ٣٧].

جـ ـ التهوين: وذلك بتهوين الأمور أكثر من اللازم، فمن الناس من إذا

---

(١) لامية ابن الوردي ص ١٣.

طُلب منه مشاركة في أي باب من أبواب الخير، كأن يعرض عليه قضية تستدعي الوقوف معها أو ضدها، أو أن يطلب منه ملاحظة أولاده، أو غير ذلك- تجده يهون الأمر، ويقول: بأن هذا الأمر مبالغ فيه، وأنه لا يحتاج إلى كبير جهد، فلا داعي إذاً لعمل شيء تجاهه.

د ـ **التهويل**: وذلك بتعسير الأمور وتهويلها، وبادعاء أن التوصل لحل تلك المشكلة أمر كبير، وأنه لا يمكننا التوصل إلى ذلك إلا بجهود جبارة ليست بإمكاننا ولا في وسعنا.

والحقيقة ـ كما قيل ـ تضيع بين التهوين والتهويل.

هـ ـ **التواضع الكاذب**: فتجد من الناس من أعطاه الله علماً لا يحرص على نشره، أو من رزقه الله مالاً لا ينفقه في وجوه الخير، أو تجده قادراً على تغيير منكر ما لا يسعى في تغييره.

وليست المشكلة في تهربه وتنصله فحسب، وإنما تجد الواحد من هؤلاء يتذرع بالتواضع الكاذب، ويقول: الله المستعان، أنا لست أهلاً لذلك، وربما قال:

وقـد قيـل البـلادُ إذا اقْشَعَـرَّتْ وصـوَّحَ نَبْتُهـا رُعِـيَ الهشيـمُ[1]

وربما قال:

متـى تصـل العطـاشُ إلـى ارتـواءٍ إذا استقـتِ البحـارُ مـن الركـايا

ولاشك أن التواضع خلق جميل رائع، وذلك إذا كان في موضعه، وعمل الإنسان ما في وسعه.

ولكن المصيبة العظمى والطعنة النجلاء ألا يقدم المرء شيئاً يذكر؛ بحجة التواضع، ومع ذلك فهو يحتقر كل من يعمل، ويرى أنهم ليسوا أهلاً لشيء من المكرمات، ولسان حاله وربما مقاله يقول: إن هذه

---

(١) خاص الخاص للثعالبي، تحقيق مأمون الجنّان ص٣٨.

الأعمال لا يصلح لها غيري، ومع ذلك فلن أقوم بها!.

٤ ـ البخـل:

فالبخل يقوم على مبالغة الرجل في الخوف من الفقر، وينشأ عن هذه الطبيعة طبيعة الحرص على جمع المال؛ وقد يشتد به الخوف، حتى يمسك عن الإنفاق في وجوه الخير.

وقد يمسك الرجل يده عن الإنفاق في وجوه الخير، ويطلقها في اتباع الشهوات، فيجمع بين رذيلتي البخل والإسراف[١].

فالبخل دليل على سقوط الهمة، وهو مخل بالدين والمروءة، وهو مما يجلب لصاحبه الشقاء في العاجلة والآجلة.

والبخيل بعيد من الله، بعيد من خلق الله، بعيد من الجنة، قريب من النار.

والبخيل ضيق الصدر، ممنوع من الانشراح، ضَيّق العطن، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم، لا يكاد تقضى له حاجة، ولا يعان على مطلوب[٢].

فتجد من الناس من يبخل بفضل ماله مع أن له من المال ما يكفيه وذريته آلاف السنين لو عاشوها!.

ومن صور البخل ـ أيضاً ـ البخل في الجاه، والبخل في العلم، والبخل في بذل النصح.

٥ ـ المنة وتعداد الأيادي:

فمن الناس من إذا أعطى عطيةً، أو بذل نصيحةً، أو قدم معروفاً ـ أتبعه بالمن والأذى، والإدلال على من أُحسن إليه، وتذكيره بتعداد الأيادي عليه.

---

(١) انظر الهداية الإسلامية لمحمد الخضر حسين ص ٨٤.
(٢) انظر الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص ٥١.

والمنة خلق ساقط، وعمل مرذول، قد نهى الله ـ تبارك وتعالى ـ عنه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ . [البقرة: ٢٦٤].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**»، قال: فقرأها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثلاث مرات، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: «**المسبل، والمنان، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب**»[(١)].

قال رجل لبنيه: «إذا اتخذتم عند رجل يداً فانسوها»[(٢)].

وقالوا: «المنة تهدم الصنيعة»[(٣)].

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «لا يتم المعروف إلا بثلاث: بتعجيله، وتصغيره، وستره؛ فإذا عجله هَنَّأه، وإذا صغره عظمه، وإذا ستره تَمَّمَه»[(٤)].

وقال الشاعر:

أفسدت بالمن ما أسديت من حسن ... ليس الكريم إذا أسدى بمنان[(٥)]

وقال الشافعي:

منـــن الـــرجـــال علـــى القلـــو ... ب أشـــدُّ مـــن وقـــع الأسنـــة[(٦)]

وقال البارودي:

---

(١) رواه مسلم (١٠٦).
(٢) عيون الأخبار ٤/ ١٧٧.
(٣) عيون الأخبار ٤/ ١٧٧.
(٤) عيون الأخبار ٤/ ١٧٧.
(٥) عيون الأخبار ٤/ ١٧٧.
(٦) ديوان الشافعي تحقيق خفاجي ص ١٣٥..

تحمَّلْـتُ خـوفَ المـنِّ كـلَّ رَزِيئـةٍ وحملُ رزايا الدهرِ أحلى من المن[١]

ومع أن تعداد الأيادي ليس من صفات الكرام إلا أنه يحسن ويسوغ في حال المعاتبة والاعتذار.

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «حالان يحسن فيهما ما يقبح في غيرهما، وهما المعاتبة، والاعتذار؛ فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادي، وذكر الإحسان، وذلك غاية القبح في ما عدا هاتين الحالتين»[٢].

٦ ـ التكاسل في أداء العبادات:

وهذا مظهر من مظاهر دنو الهمة، فتجد من الناس من يؤدي الصلاة بتثاقل، وتباطؤ، وقلة رغبة.

وهذا وصف المنافقين الذين لا يقومون إلى الصلاة إلا وهم كسالى، بخلاف المؤمنين الصادقين، فإنهم يقومون إلى الصلاة بهمة ونشاط ورغبة؛ ولذلك وصفهم الله ـ عز وجل ـ بأنهم يقومون إلى التهجد في الليل، أو إلى صلاة الفجر تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

وهذا آية على مصارعة همتهم لحاجة أجسادهم إلى الراحة والنوم[٣].

ويدخل في هذا المظهرِ التكاسلُ عن قيام الليل، وصلاة الوتر، وأداء السنن، والرواتب، وبخاصة إذا فاتت؛ فَقَلَّ مَنْ يقضيها.

ومن ذلك الغفلة عن قراءة القرآن، وعن ذكر الله ـ عز وجل ـ وعن التوبة والاستغفار، والإنابة إلى الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ومن ذلك الغفلة عن أعمال القلوب من حب، وإخبات، وتوكل، ونحو ذلك...

ومن ذلك ـ أيضاً ـ التواني عن الإنفاق في سبيل الله، فمن الناس من

---

(١) ديوان البارودي ص ٥٤٩.

(٢) الأخلاق والسير لابن حزم ص ٧٨.

(٣) الأخلاق الإسلامية عبدالرحمن حبنكة الميداني ٢/ ٤٧٨.

يدفع في سبيل الفساد والإفساد ولا يبالي، وإذا طلب منه الإنفاق في سبيل الله قدم رجلاً وأخر رجلاً، وأخذ يضرب أخماساً لأسداس، وبدأ يقدم الأعذار تلو الأعذار.

٧ ـ التكلف والتصنع:

فمن الناس من لا يثبت على حال، ولا يهدأ له بال؛ بسبب تكلفه وتصنعه، وتشبعه بما ليس فيه، وادعائه ما ليس عنده.

فتارة يجتذبه سمت الصالحين فيتزيَّا بزيهم، ويظهر بمظهرهم. وتارة يستهويه تيار الترف، فيلبس الثياب الفاخرة، ويَكْلَفُ بالعناية بمظهره وهندامه.

وتارة يعجبه عالم من العلماء فيتقمص شخصيته، وتارة يعجبه مطرب أو لاعب فيميل إليه، ويحاكيه في تصرفاته، وتارة يعجبه الأدب والصمت فيكون كذلك، وتارة تروقه الشِّرَّةُ والعدوانية فيلبس لبوسها وهكذا، فما أسرع تغيره، وما أكثر تصنعه.

وهذا العمل منافٍ للحزم وعلو الهمة؛ فالعاقل لا يتصنع ولا يتكلف، ولا يتشبع بما ليس فيه.

والمسلم لا ينبغي أن يكون كريشة في فلاة يقلبها المجتمع ظهراً لبطن، إذا استحسن أمراً استحسنه معه، وإذا استقبح أمراً استقبحه معه.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾. [ص: ٨٦].

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: «نهينا عن التكلف»[١].

وليس معنى ذلك ألا يسعى المرء إلى تكميل نفسه، والارتقاء بهمته، والاقتداء بمن هو أعلى منه، وإنما المقصود أن يثبت الإنسان على مبدئه الحقِّ، وألا يكثر التنقل والتقلب.

---

(١) رواه البخاري (٧٢٩٣).

٨ ـ الإغراق في المظهرية الجوفاء:

ومن مظاهر ذلك الإغراق ما يلي:

أ ـ المظهرية في الأفراح: وذلك من خلال الإسراف في الولائم، ومن خلال إفراط النساء في التجمل، والتأنق، ولبس الشهرة، وتقليد الكافرات.

ومن خلال رقصهن ـ أيضاً ـ فتقوم الواحدة متكسرة تهز عطفيها أمام الحضور، فإن كان رقصها رائقاً أصابها عين في أغلب الحالات.

وإن كان شائناً سلقها الحضور بألسنة حداد داخل الحفل وخارجه.

ب ـ المظهرية في المراكب: فتجد من الناس من يتظاهر بالتجارة، فيشتري أفخر المراكب؛ حتى يشار إليه بالبنان، ويعدَّ من جملة التجار مع أنه قد استدان قيمة تلك المركبة، وربما لا تجد في جيبه قيمة وقودها!

جـ ـ المظهرية في المدارس: وذلك من خلال العناية الزائدة الخارجة عن طورها بالأمور المظهرية، فتجد في بعض المدارس أن الاهتمام كله أو جله منصب على الأمور الشكلية، من ملصقات، ودفتر تحضير، وعناية بنسبة النجاح وغير ذلك.

وهذا لا يعني عدم أهمية هذه الأمور، وإنما ينبغي أن توضع في إطارها الصحيح، وأن يكون الاهتمام منصبّاً على تربية الطلاب عِلميّاً، وخلقيّاً، وسلوكيّاً؛ إذ هم محور العملية التعليمية(١).

٩ ـ الاشتغال بما لا يعني، والانصراف عما يعني:

فمن مظاهر دنو الهمة أن يشتغل الإنسان بما لا يعنيه، وأن يترك ما يعنيه.

وهذا العمل فضول يضيع به الإنسان وقته، الذي هو حياته ورأس ماله.

وهذا مما يدل على دنو الهمة، ونقص العقل، وغلبة الهوى.

---

(١) انظر تفصيل الحديث عن المظهرية في كتاب المظهرية الجوفاء وأثرها في دمار الأمة، للشيخ حسين العوايشة.

وحينما يعجز الإنسان عن ملء وقت فراغه بما يعنيه، ويفيده في دنياه وأخراه ـ فإنه سيملأه بما لا يعنيه، ولا يفيده في دنياه ولا في أخراه.

واشتغال الإنسان بما لا يعنيه لهو أو شبهه، بل إنه لا يقف عند كونه مضيعةً للوقت بما لا ينفع فحسب، بل ربما زاد على ذلك فكان ضرراً على صاحبه في جسمه، أو عقله، أو دينه، أو عرضه، أو نفسه.

ومن مظاهر اشتغال الإنسان بما لا يعنيه أن يغتاب أخاه المؤمن؛ بغية تهديم مكانته بين الناس، ومن ذلك السعي بين الناس بالنميمة والإفساد.

ومن ذلك أن يشغل نفسه بالقيل والقال، وكثرة السؤال، والإغراق بالمراء والجدال(١).

١٠ ـ الانهماك في الترف:

وهذا الأمر يشغل الإنسان عن طاعة ربه، ويقوده إلى إيثار العاجلة على الآجلة، ويورثه ضعف الهمة، وتَدْسِيَةَ النفسِ، ويَنْجَرُّ به إلى الاسترسال في الدعة، واطِّراح الجد.

فمن هجرَ اللذاتِ نال المنى ومن ... أكبَّ على اللذات عضَّ على اليد(٢)

هذا على مستوى الأفراد، أما على مستوى الأمة فإن الترف نذير شؤم لها، فهو يفقدها تميزها، ويوقعها في التخلف في شتى الميادين، ويجعلها صيداً سهلاً لأعدائها.

ومن صور الانهماك في الترف ما يلي:

أ ـ التوسع في المآكل والمشارب: فلا يخفى على عاقل ما لهذا الأمر من عواقب وخيمة على دين المرء ودنياه؛ فهو مما يورث البلادة، ويعوق عن

(١) انظر الأخلاق الإسلامية ٢/٥٥٦، وانظر أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة للكاتب.

(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح ٣/٥٨٨.

التفكير الصحيح، وهو مدعاة للكسل، وموجب لقسوة القلب، والتثاقل عن أداء العبادة، وهو سبب لمرض البدن، وتحريك نوازع الشر في الإنسان؛ فمن أكل كثيراً شرب كثيراً، فنام كثيراً، فخسر كثيراً.

قال لقمان ـ عليه السلام ـ لابنه: «يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة»(١).

وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: «من كثر أكله لم يجد لذكر الله لذة»(٢).

وقال علي ـ رضي الله عنه ـ: «إن كنت بَطِناً فَعُدَّ نفسك زَمِناً»(٣).

وقال بعض الحكماء: «أقلل طعاماً تَحمَدْ مناماً»(٤).

وقال بعض الشعراء:

وكم من لقمةٍ منعت أخاها ... بلذةِ ساعةٍ أكلاتِ دَهْرِ
وكم من طالبٍ يسعى لأمر ... وفيه هلاكُه لو كان يدري(٥)

وقال الآخر:

كم دخلت أكلةٌ حشا شَرِهٍ ... فأخرجت روحَه من الجسد
لا بارك الله في الطعام إذا ... كان هلاكُ النفوس في المَعِدِ(٦)

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر؛ فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شرّاً.

فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام، وكم من طاعة حال

---

(١) انظر الأدب النبوي للخولي ص ٢١٢.
(٢) الحلم لابن أبي الدنيا ص ٧٨.
(٣) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٣٤٩.
(٤) أدب الدنيا والدين ص ٣٤٩.
(٥) أدب الدنيا والدين ص ٣٤٩.
(٦) أدب الدنيا والدين ص ٣٤٩.

دونها؛ فمن وُقي شر بطنه فقد وقي شرّاً عظيماً.

والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام»[١].

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: «ولو لم يكن من الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله ـ عز وجل ـ.

وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان، ووعده، ومنَّاه، وشهَّاه، وهام به في كل واد؛ فإن النفس إذا شبعت تحركت، وجالت، وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت»[٢].

بل إن الذين يتوسعون في المآكل لا يجدون لها لذة كما يجدها المقتصدون.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فالذين يقتصدون في المآكل نعيمهم بها أكثر من المسرفين فيها؛ فإن أولئك إذا أدمنوها وألفوها لا يبقى لها عندهم كبيرُ لذةٍ، مع أنهم قد لا يصبرون عنها، وتكثر أمراضهم بسببها»[٣].

وفي هذه الأزمنة المتأخرة كثر الشَّرَه، وتوسع الناس في المطاعم، حتى انتشر بسبب ذلك أمراض التخمة العديدة المتنوعة.

ولقد أحس كثير من الناس بخطر ذلك الأمر، فطفقوا يبحثون عن علاج له، فمنهم من يعاهد نفسه كل ليلة ألا يكثر من الطعام، ومنهم من يعلن الحرب ضد الوجبة الفلانية، ومنهم من يتابع المجلات الطبية، التي تنشر أحدث ما توصلت إليه مراكز التغذية العالمية ـ من طرق لتخفيف الوزن، أو ما يسمى بـ «الريجيم».

---

(١) بدائع الفوائد لابن القيم ٢/ ٢٧٣.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٢٧٣.

(٣) جامع الرسائل لابن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم ٢/ ٣٤٠.

ومنهم من يتبع حِمْيةً معينة ثم يتركها إلى غيرها، وهلم جرًّا..

ولو أن نفوسنا سمت، وهممنا ارتفعت لما احتجنا إلى كبير عناء في هذا الأمر؛ إن آية واحدة من كتاب الله تغنينا عن كل ما مضى، ألا وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾. [الأعراف: ٣١].

«قال بعض العلماء: جمع الله بهذه الكلمات الطبَّ كلَّه»(١).

ومثل ذلك جاء في قول المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطنٍ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(٢).

فما أحرى العاقل أن يتدبر هذا الأمر، وأن يوطن نفسه على الاعتدال في مأكله ومشربه؛ فالنفس طُلَعة لا ترضى بالقليل من اللذات، فإذا ما جاهدها المرء وراغمها انقدعت عن شهواتها، وكفَّت عن الاسترسال مع لذاتها ورغباتها.

والنفس راغبة إذا رغَّبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع(٣)

أما إذا استرسل معها وأعطاها كل ما تريد ـ فإنها ستقوده إلى الغواية، وستجره إلى شرٍّ غاية.

والنفس إن أعطيتها مناها ... فاغرة نحو هواها فاها

وكما قيل:

إذا المرء أعطى نَفْسَهُ كلَّ ما اشتهت ... ولم يَنْهَها تاقت إلى كل مطلَبِ

ب ـ كثرة النوم: وهو مظهر من مظاهر الترف، والانهماك في اللذات.

(١) تذكرة السامع والمتكلم لابن جماعة ص ١٢١.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٣٢، والترمذي ٣/ ٣٧٨، والحاكم ٤/ ١٢١، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٦٥) وصحيح الجامع (٥٦٧٤).

(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، قال عنه الأصمعي: أبرع بيت قالته العرب. انظر عيون الأخبار ٣/ ١٨٥.

فتجد من الناس من ينام الساعات الطوال سواء في الليل أو في النهار.

ولا يخفى على عاقل ما لكثرة النوم من ضرر؛ فهو مضيعة للوقت الذي هو رأس مال الإنسان، فمن أطال النوم قتل الوقت، وحُرِم كثيراً من المصالح الدينية والدنيوية.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «من كثر نومه لم يجد في عمره بركة»[1].

ثم إن كثرة النوم تورث البلادة، وتجر إلى الكسل، وإيثار الراحة والدعة.

ثم إن النوم يعطل قوة العقل، ويلحق الإنسان بالخُشب المسندة، وبما أن أمره غالب ما له من مرد ـ فإن أولي الحكمة لا يخضعون لسلطانه إلا حيث يَغْلِب على أمرهم، ولا يعطونه من الوقت إلا أقل ما تفرضه عليهم الطبيعة البشرية، ويبتغون بذلك أن تبقى عقولهم في حركات تثمر علماً نافعاً، أو عملاً صالحاً[2].

جـ ـ المبالغة في التجمل: فالتجمل والعناية بالمظهر ـ في حد ذاته ـ أمر حسن؛ فالله جميل يحب الجمال، ويحب أن يرى أثر نعمته على عبده، قال ـ عز وجل ـ: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾. [الأعراف: ٣١].

فالإسلام ـ وإن عني بتزكية الأرواح وترقيتها في مراقي الفلاح ـ لم يبخس الحواس حقها، بل قضى للأجسام لبانتها من الزينة والتجمل بالقسطاس المستقيم[3].

وإنما المحذور هو المبالغة في التجمل، وصرف الهمة للتأنق، واشتداد الكلف بحسن البزة والمظهر.

---

(١) الأدب النبوي ص ٢١٢.

(٢) انظر الحرية في الإسلام لمحمد الخضر حسين ص ٤١.

(٣) انظر رسائل الإصلاح ٢/٢٣.

فهذا الصنيع يقطع عن الاهتمام بإصلاح النفس، والسير بها قدماً إلى مراتب الكمال.

فالعاقل من يسلك سبيل الاعتدال في شأنه كله، خصوصاً في شأن الملبس والمظهر؛ ذلك أنه «عنوان على انتماء الشخص، بل تحديد له، وهل اللباس إلا وسيلة من وسائل التعبير عن الذات؛ فكن حذراً في لباسك؛ لأنه يعبر لغيرك عن تقويمك في الانتماء والتكوين والذوق.

ولهذا قيل: الحلية في الظاهر تدل على ميل الباطن.

والناس يُصَنِّفُونك من لباسك، بل إن كيفية اللبس تعطي للناظر تصنيف اللابس من الرصانة والتعقل، أو التمشيخ والرهبنة، أو التصابي وحب الظهور.

فخذ من اللباس ما يزينك ولا يشينك، ولا يجعل فيك مقالاً لقائل، ولا لمزاً للامز»[١].

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «إياكم لبستين: لبسةً مشهورةً، ولبسةً محقورة»[٢].

وقال بعض الحكماء: «البس من الثياب ما لا يزدريك فيه العظماء، ولا يعيبك الحكماء»[٣].

وقيل:

أمـا الطعـام فكـل لنفسـك مـا تشـا ... واجعل لباسك ما اشتهاه الناس[٤]

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «كل ما شئت، والبس ما شئت ما أخطأتك شيئان: سرف ومخيلة»[٥].

---

(١) حلية طالب العلم للعلامة د. بكر أبو زيد ص ١٤، ١٥.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) عيون الأخبار ١/٢٩٦.

وقال الماوردي: «واعلم أن المروءة أن يكون الإنسان معتدل الحال في مراعاة لباسه من غير إكثار أو اطراح؛ فإن اطراح مراعاتها، وترك تفقدها مهانة وذلة، وكثرة مراعاتها وصرف الهمة إلى العناية لها دناءة ونقص.

وربما توهم بعض من خلا من فضل وعري من تمييز أن ذلك هو المروءة الكاملة، والسيرة الفاضلة؛ لما يرى من تَميُّزه عن الأكثرين، وخروجه عن جملة العوام المسترذلين، وخفي عليه أنه إذا تعدى طوره، وتجاوز قدره كان أقبح لذكره، وأبعث على ذمه، كما قال المتنبي:

لا يُعجِبَـنَّ مضيمـاً حسـنُ بـزَّتـهِ   وهل يروق دفيناً جودةُ الكفن»[1]

ومن المبالغة في التجمل المبالغة في استعمال الطيب، وتصفيف الشعر، والمبالغة في لبس النعال الغالية الثمن، حتى إن بعضهم ليلبس نعلاً تزيد قيمتها على المئين من الريالات، بل ربما وصلت إلى الآلاف!

وإذا كان الموسر الذي يسرف في الزينة والملاذّ موضع الملامة ـ فأولى باللوم والموعظة ذلك الذي يتكلف للملابس النفيسة والمطاعم الفاخرة، ويأتيها من طريق الاقتراض؛ فإن الهم والذل الذين يجرهما الدَّينُ يقلبان كلَّ صفو إلى كدر، وكل لذة إلى مرارة.

وإنما رجل الدنيا وواحدها من تكون همته وإرادته فوق عواطفه وشهواته؛ فإذا نزعت نفسه إلى زينة أو لذة لا ينالها إلا أن يبذل شيئاً من كرامته ـ راضها بالحكمة، وقدعها بالقناعة، وأراها أن مثقال ذرَّةٍ من الكرامة يرجح بالقناطير المقنطرة من زينة هذه الحياة وملاذها.

والخلاصة أن الإسلام جرى بالنفوس في الاستمتاع بالزينة والملاذ في طريق وسط، فدل على أنه الدين الذي يهدي إلى السعادة الأخرى، ويرضى لأوليائه أن يعيشوا عيشاً طيباً في الحياة الدنيا[2].

---

(١) أدب الدنيا والدين ص٣٥٤.

(٢) انظر محاضرات إسلامية لمحمد الخضر حسين ص ١٠٤ ـ ١٠٥ و ١١٠.

١١ـ الاشتغال بسفساف الأمور ومحقرات الأعمال:

كصنيع بعض الشباب الذي يعيش بلا هدف ولا غاية، فلا هم لديه، ولا شغل عنده، اللهم إلا العناية بتصفيف طُرَّته، والتأنق في ملبسه، وتلميع سيارته، ومتابعة أخبار الفن والرياضة، أو الجلوس في الطرقات وعلى الأرصفة، أو إيذاء عباد الله في التفحيط، أو عبر جهاز الهاتف ونحو ذلك.

قال الشوكاني ـ رحمه الله ـ:

قبـــح الله همـــة تتســـامـــى عــن كبـار الأقـدار دون الصغـار
هـي أهـل لمـا عـراهـا مـن الـذلْ لِ ومـا مسهـا مـن الإحتقـار[١]

١٢ـ العشــق:

قال ابن عقيل الحنبلي ـ رحمه الله ـ: «وما كان العشق إلا لأرعنَ بطالٍ، وقلَّ أن يكون في مشغول ولو بصناعة، أو تجارة، فكيف بعلوم شرعية أو حكمية؟!»[٢].

فهذا أحد الذين ابتلوا بالعشق ممن قَصَرَ همته على ملاحقة النساء، لما استنفر للجهاد أجاب بقوله:

يقولون جاهدْ يا جميلُ بغزوةٍ وأي جهـــادٍ غيـــرَهـــن أريـــدُ
لكــلِّ حــديــثٍ بينهــن بشــاشــةٌ وكــل قتيـل عنـدهـن شهيـدُ[٣]

فالعشق من مظاهر دنو الهمة، وهو شغل الفارغ، فهو يمثل صورة المعشوق للعاشق في خلوته، فيكون تمثيله لها إلقاءً في باطنه، فإذا تشاغل بما يوجب اشتغال القلب بغير المحبوب درس الحب، ودثر العشق وحصل التناسي[٤].

---

(١) ديوان الشوكاني أسلاك الجوهر تحقيق حسين العمري ص ١٩٥.
(٢) الآداب الشرعية والمنح المرعية ٣/ ١٢٦.
(٣) ديوان جميل بثينة ص ٢١.
(٤) انظر ذم الهوى لابن الجوزي ص ٤٧٣، وصيد الخاطر لابن الجوزي ١/ ١٥٤- ١٥٧.

«فمن لم تكن له همة أبية لم يكد يتخلص من هذه البلية؛ فإن ذا الهمة يأنف أن يملك رقة شيء، ومازال الهوى يذل أهل العز»[١].

فأين هذا الذي يطلق العنان لرغباته، ويرسف في أغلال شهواته من الإمام الشافعي الذي يقول: «لو علمت أن الماء البارد يثلم مروءتي لما شربته»[٢].

قال الأعشى:

أرى سفهاً للمرء تعليقَ قلبه ... بغانيةٍ خودٍ متى تَدنُ تَبعُدِ[٣]

وقال ابن المعتز:

وإني وإن حنَّت إليك ضمائري ... فما قدرُ حبِّي أن يذل له قدري[٤]

وقال أبو فراس الحمداني مفتخراً بعلو همته، عائباً على من سفلت همته، واسترقه هواه:

لقد ضلَّ من تحوي هواه خَرِيدَةٌ ... وقد ذلَّ من تقضي عليه كعابُ

ولكنني والحمد لله حازمٌ ... أعزُّ إذا ذلت لهن رقابُ

ولا تملك الحسناءُ قلبي كلَّه ... ولو شَمَّلَتْها رِقَّةٌ وشبابُ

وأجري ولا أعطي الهوى فضل مقوَدي ... وأهفو ولا يخفى عليَّ صواب[٥]

وقال عبدالواحد بن نصر:

وقد رام هذا الحبُّ أن يَسْتَرِقَّني ... فأنجدني صبرٌ عليَّ جميل[٦]

وقال أبو علي الشبل:

---

(١) ذم الهوى ص ٤٧٧.
(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ص ٤٦٨.
(٣) ديوان الأعشى ص ٤٧.
(٤) ذم الهوى ص ٤٧٩.
(٥) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٣.
(٦) ذم الهوى ص ٤٨٠.

وآنف أن تعتاق قلبي خريدةٌ بلحظ وأن يروي صداي رضابُ
وللقلب مني زاجرٌ من مروءةٍ يجنِّبُهُ طُرْقَ الهوى فيجاب[١]

وقال منصور الهروي:

خلقت أبيَّ النفس لا أتبع الهوى ولا أستقي إلا من المشرب الأصفى
ولا أحمل الأثقالَ في طلب العلا ولا أبتغي معروفَ من سامني خسفا
ولا أتحرَّى العزَّ فيما يُذِلُّني ولا أخطِب الأعمال كي لا أرى صرفا
ولست على طبع الذباب متى يُذَدْ عن الشيء يسقط فيه وهو يرى الحتفا[٢]

وقال ابن المقفع: «اعلم أن من أوقع الأمور في الدين، وأنهكها للجسد، وأتلفها للمال، وأقتلها للعقل، وأزراها للمروءة، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار ـ الغرامَ بالنساء.

ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجم[٣] ما عنده وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن، وإنما النساء أشباه.

وما يتزين في العيون والقلوب من فضل مجهولات على معروفات باطلٌ وخدعة، بل كثير مما يَرْغَبُ عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه منهن.

وإنما المرتغب[٤] عما في رحله منهن إلى ما في رحال الناس كالمرتغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس.

بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام، وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء»[٥].

---

(١) ذم الهوى ص ٤٨٠.
(٢) ذم الهوى ص ٤٨٠.
(٣) يأجم: يكره ويمل.
(٤) المرتغب: الراغب إلى غير ما عنده.
(٥) الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ص ١٤٩- ١٥٠.

وقال: «ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس بلبّه ورأيه يرى المرأة من بعيد مُتَلَفِّفَةً في ثيابها، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال، حتى تعلق بها نفسه من غير رؤية ولا خبر مخبر.

ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح، وأدمِّ الدمامة، فلا يعظه ذلك، ولا يقطعه عن أمثالها، ولا يزال مشغوفاً بما لم يذُق، حتى ولو لم يبق في الأرض غيرُ امرأة واحدة لَظَنَّ أن لها شأناً غير شأن ما ذاق، وهذا هو الحمق، والشقاء، والسفه»[1].

١٣ـ التحسر على ما مضى وترك العمل:

فمن الناس من يتحسر على ما مضى من تقصيره، ويسرف في ذلك إسرافاً يخرجه عن طوره.

وهذا العمل يُضِيع على الإنسان حاضره، ويقطع عليه مستقبله، فيأتي عليه زمان يتحسر فيه على الزمن الذي ضيعه في الحزن والتحسر.

وهكذا يتلاعب به الشيطان، وتأتيه المنية وقد ضاع عمره فيما لا فائدة تحته، ولا طائل وراءه.

إن تحقيق الأماني لا يكون بالندم على ما فات، ولا باجترار الأحزان على الماضي، وإنما يكون بالجد والعمل، واغتنام كل فرصة يتقدم بها نحو الأمام خطوة، فهذا دليل الكيس وآية علو الهمة.

أما إضاعة الحاضر حزناً على الماضي فنزولٌ في الهمة، واستسلام للأوهام، وانسياق وراء وساوس الشيطان[2].

قال نابغة بني جعدة:

ألــم تــريــا أن المــلامــة نفعُهــا   قليــل إذا مــا الأمــر ولــى وأدبــرا

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٥٠.

(٢) انظر صيد الخاطر ١/٤٩-٥٠، والأخلاق الإسلامية ٢/٤٨٨.

تهيج البكاء والندامة ثم لا ... تغيِّر شيئاً غير ما كان قُدِّرا[(١)]

وقال البارودي:

فَلَسْتُ لأمر لم يكن متوقعاً ... ولستُ على شيء مضى أتعتَّبُ[(٢)]

١٤ـ كثرة التلاوم وقلة العمل:

وهذا دأب كثير من الناس في اجتماعاتهم ومنتدياتهم، فتراهم يقضون الساعات الطوال في التلاوم، وذم الأوضاع، وانتقاد الآخرين، والتشدق بمعالي الأمور دون سعي لها.

قال العلامة محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ: «فإذا رأيت قوماً يذكرون في صبحهم ومسائهم شيئاً من معالي الأمور، ولم ترهم يسعون له سعيه، ولا يتقدمون إليه بخطوة ـ فاعلم أن العزم لم يأخذ من قلوبهم مأخذه؛ فهم إما أن يكونوا عن حقيقته وشرف غايته غائبين، وإما أنهم ضلوا طريقه وما كانوا مهتدين»[(٣)].

قال إبراهيم طوقان:

أفنيتَ يا مسكينُ عمـ ... رك بالتأوه والحزنْ

وقعدت مكتوفَ اليديـ ... ن تقول: حاربني الزَّمن

ما لم تقم بالعبء أنـ ... ت فمن يقومُ به إذن

كم قلت أمراض البلا ... د وأنت من أمراضها

والشؤم علتها فهل ... فتشت عن أعراضها[(٤)]

١٥ـ كثرة الشكوى إلى الناس:

فما أكثر ما يُرى في الناس مَنْ دَأْبُه وديدنه وهِجِّيراه الشكوى إلى

---

(١) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص ٣٥٧.

(٢) ديوان البارودي ص ٤٣.

(٣) رسائل الإصلاح ١/٦٨.

(٤) إبراهيم طوقان بقلم عبداللطيف شرارة ص ٦٦ ـ ٦٧.

الناس، والتسخط من الأقدار، فلا يرضيه شيء، ولا يروقه أو يعجبه أحد.

فتجده يشكو فقره، وأولاده، وزوجته، ودابته، ومزرعته، وعمله، ومديره، وصحته، وأصدقاءه، ويشكو الحر والقر، والربيع والخريف!.

فهذا العمل دليل على سقوط الهمة، وضعة النفس، وقلة التحمل، وهو مدعاة لكراهية الناس لذلك الشخص، وتكذيبهم لحديثه، وربما أظهروا الشماتة به، والفرح بمصابه.

ثم إن هذا العمل يسوِّغ للمرء إخفاقه وعجزه وكسله؛ فلا يسعى لتكميل نفسه، وإصلاح عيوبه.

فاللائق بالمسلم العاقل أن يتحلى بالصبر الجميل، الذي لا جزع فيه ولا شكوى، وألا يشكو حاله إلا لربه، ولا ينزل حاجاته إلا ببابه - عز وجل - لأن الناس لا يملكون له ضرًّا ولا نفعاً.

ولهذا «رأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال: يا هذا، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك»[1].

وإذا عَـرَتْـكَ بليـةٌ فـاصبـر لهـا صبـرَ الكـريـم فـإنـه بـك أعلـم
وإذا شكـوت إلـى ابـن آدم إنمـا تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم[2]

وإن كان هناك من حاجة لبث الشكوى لأحد المخلصين أو لمن يهمهم الأمر؛ طلباً للنصيحة، أو نحو ذلك - فلا بأس، وإلا فلماذا نثير انتباه الذين لا يعنيهم أمرنا، ولا ننتظر منهم أي فائدة لنا، فنفضح أنفسنا، ونهتك أستارنا، ونُبِيْنُ عن ضعفنا وخورنا في سبيل الحصول على شفقة، أو عطف ليس له من نتيجة سوى ازدياد الحسرة، وتفاقم المصيبة.

فلو أخذ المرء بالوسائل المعينة له على الخروج من مأزقه لكان خيراً له

(١) الفوائد لابن القيم ص ١٣١.
(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٦٠.

من الشكوى التي تزري به، ولا تنفعه[١].

١٦ـ الاسترسال مع الأماني الكاذبة:

فمن الناس من يهوى المعالي، ويتعشق المكارم، ولكنه لا يسعى إليها، ولا يجدُّ في تطلابها، بل يكتفي من ذلك كله بالمنى الكاذبة، والأحلام المعسولة، كما قال أحدهم:

إذا تمنيتُ بتُّ الليل مغتبطاً   إن المنى رأس أموال المفاليس[٢]

فهو يود النجاح ولا يريد أن يدفع ثمنه، إنه ينتظر أن تمطر السماء ذهباً، أو تنشق الأرض عن كنز.

فمثل هذا لا يدرك المعالي، ولا يترقى في درج المكارم، قال أبو تمام:

من كان مرعى عزمه وهمومه   روضَ الأماني لم يزل مهزولا[٣]

وإنما يأتي ذلك بالجد والاجتهاد، والصبر والمصابرة.

قال ـ تعالى ـ للذين آمنوا: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾﴾. [النساء: ١٢٣].

أي ليس دخول الجنة والظفر بمراتبها العلية، ولا النجاة من النار ومن دركاتها الدنية بالأماني، ولكن بالعمل الصالح، والإيمان الصادق، وهذا إنما يكون ببذل الطاقة ترقياً في مراتب الكمال، وترفعاً عن دركات النقصان، وبالطاعة حسب القدرة والاستطاعة[٤].

١٧ـ التسويف والتأجيل:

فهذه الآفة لا يكاد يسلم منها إلا من سلمه الله من أصحاب الهمم العلية، والنفوس الأبية، والإرادات القوية.

---

(١) انظر طريق النجاح د. بول جاغو تلخيص بهيج شعبان ص ٨٧.
(٢) عيون الأخبار ٢/ ٢٦٠.
(٣) ديوان أبي تمام بشرح التبريزي ٣/ ٦٧.
(٤) انظر الأخلاق الإسلامية ٢/ ٤٨٦.

فكم من الناس من يبقى على معصيته مُسَوِّفاً بالتوبة، وكم من الناس من يؤجل أعماله اليومية إلى غد بغير مسوغ ولا مقتضي، وكم من الناس من تتصرم أيام عمره وهو يسوف ويؤجل في اغتنامها بما ينفع.

قال بعض الحكماء: «التسويفُ لمن يعلم أن المنية تأتيه بغتة ـ غرور»[١].

فالتسويف والتأجيل داء عضال، وهو ناتج عن ضعف الإرادة، ودنو الهمة، والتراخي مع النفس، وصحبة الكسالى والمسوفين، والأمن من مكر الله، وطول الأمل.

ولهذا الأمر آثارٌ وخيمةٌ في الدنيا وفي الآخرة؛ فهو سبب للحسرة والندامة، والحرمان من الأجر والثواب، وهو سبب لتراكم الذنوب، وصعوبة التوبة، وتراكم الأعمال، وصعوبة الأداء[٢].

فانهض إذا ما لمحت الخير في عملٍ وخلِّ (سوف) لعزمٍ خاملٍ واهي[٣]

١٨ ـ الافتخار بالآباء العظام والعيش على أمجادهم:

فهناك من له سلف كرام، معرِّقون في العلم والفضيلة والمعالي، وبدلاً من أن يسلك سبيلهم، ويسير على نولهم تجده عظاميًّا يفتخر بعظام آبائه الكرام وهو لم يبلغ شأوهم.

إذا ما الحيُّ عاش بعظم ميتٍ فذاك المَيْتُ حيٌّ وهو ميت[٤]

ويقال لمن كان هذا شأنه:

إذا افتخرت بآباء لهم شرف نعم الرجال ولكن بئس ما ولدوا

---

(١) عين الأدب والسياسة، وزين الحسب والرياسة لأبي الحسين علي بن عبدالرحمن ابن هذيل ص ٢٤٣.

(٢) انظر آفات على الطريق د. السيد محمد نوح ٣/١٣١ ـ ١٥٣.

(٣) خواطر الحياة ص ٢٦١.

(٤) عيون الأخبار ١/٢٣٥.

وما أجمل قول من قال:

إن لـم تكـن بفعـال نفسـك سـامياً ... لم يُغْنِ عنك سموٌّ من تسمو به
ليس القديم على الجديد براجع ... إن لـم تجـده آخـذاً بنصيبـه[(١)]

ومن قال:

ليس الكريم بمن يُدِنِّسُ عِرْضَه ... ويـرى مـروءَتَـه تكـون بمـن مضـى
حتـى يشيـدَ بنـاءه ببنـائـه ... ويزين صالح ما أتوه بما أتى[(٢)]

١٩ ـ كثرة المزاح، والإسفاف فيه:

وهذا الأمر يكثر وقوعه بين الناس، فترى من يغلب عليه كثرة المزاح، والإسفاف والتمادي فيه.

وهذا الأمر مظهر من مظاهر دنو الهمة؛ فالمزاح يسقط الهيبة، ويخل بالمروءة، ويجرىء السفهاء والأنذال.

قيل في بعض منثور الحكم: «المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب»[(٣)].

وقال بعض الحكماء: «من كثر مزاحه زالت هيبته»[(٤)].

قال ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ: «وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح؛ لما فيه من ذميم العاقبة، ومن التوصل إلى الأعراض، واستجلاب الضغائن، وإفساد الإخاء»[(٥)].

«وكان يقال: لكل شيء بدء، وبدء العداوة المزاح، وكان يقال: لو

---

(١) روضة العقلاء ص ٢٣٠.
(٢) روضة العقلاء ص ٢٣٠ وانظر تفصيل الحديث عن هذا في الأخلاق والسير ص ٧٠-٧٢.
(٣) أدب الدنيا والدين ص ٣١٠.
(٤) أدب الدنيا والدين ص ٣١٠..
(٥) بهجة المجالس ٢/٥٦٩.

كان المزاح فحلاً ما ألقح إلا الشر»[١].

وقال سعيد بن العاص: «لا تمازح الشريف فيحقد، ولا الدنيء فيجترىء عليك»[٢].

وقال ميمون بن مهران: «إذا كان المزاح أمام الكلام، فآخره الشتم واللطام»[٣].

وقال أبو هفان:

مـازحْ صـديقـك مـا أحـبَّ مـزاحـا ... وتـوقَّ منـه فـي المـزاح جمـاحـا
فلـربمـا مـزح الصـديـق بمـزحـةٍ ... كـانـت لبـاب عـداوة مفتـاحـا[٤]

وقال آخر:

لا تَمْزَحَنْ فإذا مزحت فلا يكن ... مزحاً تضاف به إلى سوء الأدب
واحــذر ممــازحــةً تعــودُ عــداوةً ... إن المزاحَ على مقدِّمةِ الغضب[٥]

وقال آخر:

فــإيــاك إيــاك المــزاحَ؛ فــإنــه ... يجرِّي عليك الطفل والدنس النذلا
ويـذهـب مـاء الـوجـه بعـد بهـائـه ... ويــورثــه مــن بعــد عــزَّتــه ذُلاً[٦]

والمقصود أن المزاح لا ينبغي الإكثار منه، ولا الإسفاف فيه.

أما ما عدا ذلك فيحسن؛ لما فيه من إيناس الجليس، وإزالة الوحشة، ونفي الملل والسآمة.

---

(١) بهجة المجالس ٢/ ٥٦٩.
(٢) بهجة المجالس ٢/ ٥٦٩.
(٣) بهجة المجالس ٢/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠.
(٤) بهجة المجالس ٢/ ٥٧٠.
(٥) بهجة المجالس ٢/ ٥٧٠.
(٦) بهجة المجالس ٢/ ٥٧١ ـ ٥٧٢.

وإنما المزاح في الكلام كالملح في الطعام؛ إن عدم أو زاد على الحد فهو مذموم[١].

أفِدْ طبعَك المكدودَ بالجد راحةً ... يَجِـمَّ وعَلِّلْـهُ بشـيء مـن المـزح
ولكن إذا أعطيته المزح فليكن ... بمقدار ما تعطي الطعام من الملح[٢]

٣٠ ـ اليأس من الإصلاح:

وهذا ما يقع فيه كثير من الناس، فإذا ما عاين الشرور المتراكمة، والأمواج المتلاطمة من المصائب والمحن، والأهوال والفتن، ومن الفرقة والتناحر والاختلاف الذي يسري في صفوف المسلمين ـ يأس من إصلاح الأحوال، وَتَبَدُّل الأمور، فلا يصمد أمام هذا الخضم الموار، ولا يعمل ما بوسعه، بل يتقاعس ويتكاسل، ويَقْصُر نظرَه على الأسباب الظاهرة، والأمور المادية فحسب.

وقل مثل ذلك في شأن كثير من الناس ممن يسرف على نفسه بالمعاصي، ويتيه في أودية الرذيلة، فتجده ييأس من إصلاح حاله، والرقي بها إلى الأمثل والأفضل، بل ربما ظن أن التغيير مستحيل، وأن ما به من عيب ونقص إنما هو ضربة لازب لا يستطيع الفكاك عنها.

وهذا كله مظهر من مظاهر دنو الهمة، وصغر النفس، والعجز عن مواجهة المتاعب والمصاعب.

وهذا لا يليق بالمسلم الحق؛ لأنه لا ييأس من روح الله، ولا يقنط من رحمته، ولا يكون نظره مقصوراً على الأمور المادية والأسباب الظاهرة، بل يكون متلفتاً في قلبه في كل وقت إلى مسبب الأسباب، إلى الكريم الوهاب، متحرياً للفرج، واثقاً بأن الله سيجعل بعد عسر يسراً.

---

(١) انظر بهجة قلوب الأبرار في شرح جوامع الأخبار لابن سعدي ص ٧٠.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٣١١.

ومن هنا ينبعث للقيام بما يقدر عليه من النصح والإرشاد، والدعوة، ويقنع باليسير إذا لم يمكن الكثير، وبزوال بعض الشر وتخفيفه إذا تعذر غير ذلك[١].

ثم إنه لا ينبغي للمسلم أن يرضى لنفسه بالدون، وأن يترك رياضة نفسه زعماً منه أنَّ تبدل الحال من المحال، وأنْ ليس في الإمكان أبدع مما كان.

بل ينبغي له أن يأخذ بالأسباب، وأن يسعى لتكميل نفسه، وتلافي عيوبه؛ فكم من الناس من تبدلت حاله، وسمت نفسه، وعلت همته، وقلَّت عيوبه بسبب دربته، وممارسته، وسعيه، ومجاهدته لنفسه.

فهذا الإمام أبو محمد ابن حزم يحدث عن تجربته مع نفسه فيقول: «كانت فيَّ عيوب، فلم أزل بالرياضة، واطلاعي على ما قالت الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وآداب النفس أعاني مداواتها، حتى أعان الله ـ عز وجل ـ على أكثر ذلك بتوفيقه ومنه.

وتمام العدل، ورياضة النفس، والتصرف بأزمة الأمور ـ هو الإقرار بها؛ ليتعظ بذلك متعظ يوماً إن شاءالله.

فمنها[٢] كلف في الرضاء، وإفراط في الغضب، فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة بالكلام والفعل والتخبط، وامتنعت مما لا يحل من الانتصار، وتحملت من ذلك ثقلاً شديداً، وصبرت على مضض مؤلم كان ربما أمرضني.

---

(١) انظر بهجة قلوب الأبرار ص ٣٢٠.
(٢) يعني عيوبه.

وأعجزني ذلك في الرضا، وكأني سامحت نفسي في ذلك؛ لأنها تمثَّلت أن ترك ذلك لؤم.

ومنها دُعابة غالبة، فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يُغضب الممازح، وسامحت نفسي فيها؛ إذ رأيت تركها من الانغلاق ومضاهياً للكبر.

ومنها عجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها حتى ذهب ذلك كله، ولم يبق له ـ والحمد لله ـ أثر.

بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة، واستعمال التواضع.

ومنها حركات كانت تولدها غرارة الصبا، وضعف الإغضاء، فَقَصَرْتُ نفسي على تركها فذهبت.

ومنها محبة في بعد الصيت والغلبة، فالذي وقفت عليه في معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقي»[1].

وقال ـ أيضاً ـ عن معاناته في إصلاح عيوبه: «ومنها إفراط في الأنفة بغَّضت إلى نكاحَ الحُرَم جملة بكل وجه، وصعَّبت ذلك في طبيعتي، وكأني توقفت عن مغالبة هذا الإفراط الذي أعرف قبحه لعوارض اعترضت علي والله المستعان.

ومنها عيبان قد سترهما الله ـ تعالى ـ وأعان على مقاومتهما، وأعان بلطفه عليهما، فذهب أحدهما البتة ولله الحمد، وكأن السعادة كانت موكلة بي، فإذا لاح منه طالع قصدت طمسه، وطاولني الثاني منهما، فكان إذا ثارت منه مدوده[2] نبضت عروقه، فيكاد يظهر، ثم يسر الله قدعه بضروب من لطفه حتى أخلد.

---

(١) الأخلاق والسير ص ٣٣ ـ ٣٤.

(٢) مدوده: جمع مدٌّ وهو كثرة الماء.

ومنها حقد مفرط قدرت بعون الله ـ تعالى ـ على طيِّه وستره، وغلبته على إظهار جميع نتائجه.

وأما قطعه البتة فلم أقدر عليه، وأعجزني معه أن أصادق من عاداني عداوة صحيحة أبداً»[١].

٢١ ـ استجداء الناس ومسألتهم:

فمن مظاهر دنو الهمة قعود الإنسان عن العمل، وتركه السعي في الأرض، والمشي في مناكبها؛ كي يتعفف عن مسألة الناس، وإراقة ماء وجهه أمامهم.

فسؤال الناس واستجداؤهم دليل على القحة، وسقوط الهمة، وقلة المروءة، خصوصاً إذا كان السائل قادراً على العمل والكسب، أو كان يسأل الناس تكثراً، أو من غير ضرورة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فالعبد لا بد له من رزق، وهو محتاج إليه، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله، فقيراً إليه، وإذا طلبه من مخلوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه.

ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أبيحت للضرورة، وفي النهي عنها أحاديث كثيرة في الصحاح، والسنن، والمسانيد»[٢].

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله ـ تعالى ـ وليس في وجهه مُزعة لحم**»[٣].

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذه المسألة عند الحديث عن موقف الإسلام من علو الهمة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

---

(١) الأخلاق والسير ص ٣٤.

(٢) العبودية ص ٩٠.

(٣) رواه البخاري (١٤٧٤) ومسلم (١٠٤٠).

٢٢ ـ الكبر والتعالي:

وهذه الخصلة مذمومة في الشرع، والعقل، والفطرة.

والمتكبر ممقوت عند الله وعند خلقه.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة: قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»[(١)].

هذه هي حقيقة الكبر بطر الحق: يعني دفعه ورده، وغمط الناس: يعني احتقارهم.

فمن مظاهر الكبر الإعجاب بالنفس، وعدم قبول النقد البناء والنصيحة الهادفة، ومنها أن يرى الإنسان لنفسه حقّاً على الله، وفضلاً على الناس[(٢)].

٢٣ ـ الكــذب:

فالكذب عمل مرذول، وصفة ذميمة، وهو خصلة من خصال النفاق، وشعبة من شعب الكفر، وهو سبب لنزع الثقة من الكاذب، والنظر إليه بعين الخيانة.

وهو دليل على ضعة النفس، وحقارة الشأن، وسقوط الهمة.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً**»[(٣)].

---

(١) رواه مسلم (٩١).

(٢) انظر غذاء الألباب شرح منظومة الآداب للسفاريني ٢/٢١٨-٢٣٠ ففيه كلام جميل عن الكبر، وانظر التواضع ومنزلته في الدين للشيخ حسين العوايشة ص ٢٣ ـ ٢٩.

(٣) رواه البخاري ١/٤٢٢، ومسلم (٢٦٠٧).

وقيـل فـي ذم الكـذاب: «ليـس لكـذوب مـروءة، ولا لفجـور رياسة»[١].

وقال بعض الشعراء في ذم الكذب:

ومـا شـيءٌ إذا فكـرت فيـه بـأذهـبَ للمـروة والجمـال
مـن الكـذب الـذي لا خيـر فيـه وأبعـد بـالبهـاء مـن الـرجـال[٢]

ومما يؤسف عليه في هذه الأزمان المتأخرة كثرة الكذب، وقلة الصدق، فما أقل من يصدق في حديثه ومعاملاته، وما أكثر من يكذب في ذلك.

فَمِنْ كاذب على الله ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن كاذب في بيعه وشرائه، ومن كاذب لإفساد ذات البين، ومن كاذب لإضحاك السامعين، إلى كاذب على مخالفيه تشفياً منهم، وتشويهاً لسمعتهم إلى غير ذلك.

ومن الناس من يكذب في المطالبات والخصومات، ومنهم من يكذب للتخلص من المواقف الحرجة، ومنهم من يحذف بعض الحقيقة في نقله، ومنهم من ينقل الأخبار الكاذبة، ومنهم من يكذب للتملق واستدرار العطف، ومنهم من يتوسع في باب المصلحة، ويبالغ في المعاريض فيقع في الكذب المذموم وهكذا[٣].

٢٤ ـ قلة الحياء:

فالحياء خلق عظيم، يبعث على فعل الجميل وترك القبيح، فإذا ما عري الإنسان منه، وعطل من التحلي به دنت همته، وسفلت مرتبته، ولم يعد يبالي بما يَصْنَعُ.

---

(١) المحاسن والمساوئ ص ٤٤٣.
(٢) أدب الدنياوالدين ص ٢٦١.
(٣) انظر الكذب مظاهره- علاجه للكاتب ص ٨-٢٣.

هذا ولقلة الحياء مظاهر كثيرة منها المجاهرة بالمعاصي من تدخين في الأماكن العامة، ورفع للأصوات بالغناء، ومن تبرج، وتبذل، وتكشف، وتعري.

ومنها كثرة اللجاج والسباب والشتام، ومنها عقوق الوالدين، والمماطلة بالدَّين، وقلة الأدب مع المعلمين والمربين.

٢٥ ـ الحقـد:

فتجد من الناس من يحمل نفساً مظلمة، وقلباً أسودَ، لا يعرف للعفو طريقاً، ولا للصفح سبيلاً، فبمجرد أدنى إساءة تقع في حقه من أحد إخوانه تجده يحقد عليه، ولا يكاد ينسى إساءته مهما تقادم العهد عليها، فتجده يتربص بصاحبه الدوائر، وينتظر منه غرة؛ لينفذ إليه منها، ويصيبه من خلالها، فيشفي غيظه، ويروي غليله.

وهذا العمل مظهر من مظاهر دنو الهمة، فهو لا يصدر من النبلاء، ولا يليق بالعقلاء.

والحقود لا يرتفع له قدر، ولا تعلو به رتبة.

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

٢٦ ـ مجاراة السفهاء:

فمن الناس من إذا ابتلي بسفيه ساقط لا خلاق له ـ أخذ يجاريه في قيله وقاله، مما يجعله عرضة لسماع ما لا يرضيه من قبيح القول ورديئه، فيصبح بذلك مساوياً للسفيه في سفهه؛ إذ نزل إليه وانحط في مرتبته.

إذا جاريت في خلقٍ دنيئاً فأنت ومن تجاريه سواء[1]

قال الأحنف بن قيس: «من لم يصبِرْ على كلمة سمع كلمات،

---

(١) ديوان أبي تمام ٤/٢٩٦، وانظر أقوال مأثورة د. محمد بن لطفي الصباغ ص ١٥.

ورب غيظ تجرَّعْتُه؛ مخافةَ ما هو أشد منه»[١].

فليس من الحكمة ولا المروءة أن يتعرض المرء لهؤلاء، وإنما تمام ذلك أن يُعْرِضَ عنهم، ويَدَعَ مجاراتهم والحديث معهم إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة؛ من سلام أو ردِّه، أو جواب لسؤال، أو نحو ذلك.

لا ترجعن إلى السفيه خطابه ... إلا جــواب تحيَّــةٍ حيَّــاكهــا
فمتــى تُحَــرِّكْــه تحــركْ جيفــةً ... تزداد نَتْناً إن أردت حِراكها[٢]

٢٧ ـ تتبع العثرات والفرح بالزلات:

فكم من الناس من هذا دأبه وديدنه، يتتبع العثرات، ويفرح بالزلات، فإذا سمع قبيحاً فرح به ونشره، وإذا سمع حسناً ساءه ذلك فطواه وستره.

إن يسمعـوا سيئـاً طـاروا بـه فـرحـاً ... مني وما سمعوا من صالحٍ دفنوا[٣]

وقال الآخر:

يمشون في الناس يبغون العيوب لمن ... لا عيب فيـه لكـي يُسْتشـرفَ العطبُ
إن يعلمـوا الخيـر يخفـوه وإن علمـوا ... شرّاً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا[٤]

فهـذا العمـل مـن أحقـر الأعمـال، وأحـط الخصـال، وصـاحبـه مـن أضعف الناس نفساً، وأسفلهم همة.

شرُّ الورى بعيوبِ الناس مشتغلٌ ... مثل الذباب يراعي موطن العلل

قال ابن حبان ـ رحمه الله ـ: «فمن اشتغل بعيوب الناس عن عيوب نفسه عمي قلبه، وتعب بدنه، وتعذر عليه ترك عيوب نفسه؛ فإنَّ أعجز

(١) عيون الأخبار ٣/ ٢٨٤.
(٢) الحلم لابن أبي الدنيا ص ٣٢.
(٣) عيون الأخبار ٣/ ٨٤.
(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لابن حبان البستي ص ١٧٨.

الناس من عاب الناس بما فيهم، وأعجز منه من عابهم بما فيه»[1].

فاللائق بالعاقل أن يشتغل بعيوبه، وأن يسعى في إصلاح نفسه، وإذا ما رأى من إخوانه خللاً أو نقصاً فليجتهد في النصح والتصحيح بعيداً عن الثلب والتجريح.

ويقال لمن فرح بأخطاء إخوانه: لا تفرح؛ فلابد أن تقع في الخطأ يوماً ما، فيُفرحُ عليك، وحينئذ:

فلا تجْزَعَنْ من سيرة أنت سرتها فـأول راضٍ سيـرة مـن يسيـرهـا

وأشد ما في هذا الباب تتبع عثرات أهل العلم، وتصيد زلاتهم وهفواتهم، لا بقصد تصحيحها، والتنبيه عليها.

وإنما لِتُتَّخَذَ ذريعةً للنيل منهم، والطعن فيهم، وتزهيد الناس بهم؛ فهذا الصنيع ليس من الهمة في شيء.

قال العلامة محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ: «كبير الهمة يستبين خطأً في رأي عالم أو عبارة كاتب، فيكتفي بعرض ما استبان من خطأ على طلاب العلم؛ ليفقهوه.

ويأبى له أدبه أن ينزل إلى سقط الكلام، أو يخفَّ إلى التبجح بما عنده.

وقد حدثنا التاريخ عن رجال كانوا أذكياء، ولكنهم ابتلوا بشيء من هذا الخلق المكروه، فكان عوجاً في سيرهم، ولطخاً في صحفهم.

ولو تحاموه لكان ذكرهم أعلى، ومقامهم في النفوس أسمى، ومنزلتهم عند الله أرقى»[2].

هذه بعض مظاهر دنو الهمة، وعندالحديث عن أسباب دنو الهمة سيتضح شيء من ذلك زيادة على ما مضى.

---

(١) روضة العقلاء ص ١٢٥.

(٢) رسائل الإصلاح ١/ ٨٩.

الفصل الثالث
أسباب دنو الهمة

أسباب دنو الهمة

لدنو الهمة أسباب عديدة، تحول بين الفرد أو الجماعة وبين الترقي في مراتب الكمال، ومدارج الفضيلة.

والحقيقة أن هناك تداخلاً بين أسباب دنو الهمة ومظاهره؛ ذلك أن أكثر المظاهر تعد أسباباً، وأكثر الأسباب تعد مظاهر في الوقت نفسه؛ ولهذا فلن يذكر في هذا الموطن ما قد سبق ذكره عند الحديث عن المظاهر إلا ما لا بد منه، وذلك إيثاراً للاختصار، واكتفاءً بما قد سبقت الإشارة إليه؛ فمن أسباب دنو الهمة ما يلي:

١ـ طبيعة الإنسان:

فهناك من الناس من جُبل على دنو الهمة، والإخلاد إلى الأرض، والميل إلى الراحة والدعة، والكلف بالصغائر ومحقرات الأمور.

فلا يسعى في تطلاب الكمال، ولا يأخذ بالأسباب التي تعلي من همته، وترفع من قدره، فيعيش العمر كله وهو قابع في مكانه، لا يتقدم للأمام خطوة، ولا يرقى في سلم المجد درجة، بل ربما نزل للحضيض دركة بعد دركة.

٢ـ التربية المنزلية:

فالتربية المنزلية لها دور عظيم في توجيه الأولاد سلباً أو إيجاباً؛ فالبيت هو المدرسة الأولى للأولاد، والولد قبل أن تربيه المدرسة والمجتمع يربيه البيت والأسرة، وهو مدين لوالديه في سلوكه المستقيم، كما أن والديه مسؤولان إلى حد كبير عن انحرافه وفساده(١).

---

(١) انظر أخلاقنا الاجتماعية د. مصطفى السباعي ص ١٥٥، ونظرات في الأسرة المسلمة د. محمد الصباغ ص ١٥٤.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وكم ممن أشقى ولده، وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله، وترك تأديبه، وإعانته على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه.

ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة.

وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت أن عامته من قبل الآباء»[١].

فكم من الناس من يربي أولاده على الجبن، والخوف، والهلع، والفزع، فَيُخَوِّفهم بالغول، وبالعفريت؛ ليكفوا عن عبثهم.

وأسوأ ما في ذلك أن يخوفهم بالطبيب أو المعلم.

ومن هنا ينشأ الولد جباناً رعديداً يَفْرَقُ من ظله، ويخاف مما لا يُخاف منه.

وكم من الناس من يربي أولاده على الميوعة والترف، والبذخ، والطيش؛ فينشأ الولد مترفاً منعماً، همه خاصة نفسه فحسب، فلا يهتم بالآخرين، ولا يسأل عن إخوانه المسلمين، فلا يشاركهم أفراحهم، ولا يشاطرهم أتراحهم.

فهذه التربية مما يفسد المروءة، ويقتل الاستقامة، ويقضي على الشهامة والشجاعة.

وكم من الناس من لا يربي أولاده على معالي الأمور، وإنما يربيهم كما تربَّى الخراف سواء بسواء؛ فلا هم له من أولاده إلا مطعمهم وملبسهم، وتلبية كافة رغباتهم، أما ما عدا ذلك فلا يخطر له ببال.

ومن هنا ينشأ الولد بليداً، ساقط الهمة، قليل المروءة.

ومن الناس من هو بعكس ما مضى؛ حيث تجده يشتد على أولاده، ويقسو عليهم أكثر من اللازم، فيضربهم ضرباً مبرحاً عند أدنى خطأ، ويبالغ في تعنيفهم عند كل صغيرة وكبيرة.

---

(١) تحفة المودود في أحكام المولود لابن القيم ص ١٤٦ ـ ١٤٧.

ومنهم من يهزأ بأولاده، ولا يرى أنهم أهل لشيء من المكرمات.

ومنهم من لا يأبه بمحادثة أولاده، ولا يلقي بالاً لتعليمهم آداب الحديث وطرائقه؛ فلا يصغي إليهم إذا تحدثوا، ولا يجيب عن أسئلتهم إذا سألوا، بل ربما كذَّبهم إذا أخبروا، ونهرهم وأسكتهم إذا تكلموا.

ومنهم من يشتد بالتقتير عليهم، وربما قصَّر عليهم في حاجاتهم الضرورية مع قدرته على توفيرها لهم، مما يشعرهم بالنقص والحاجة، وربما قادهم ذلك إلى البحث عن المال بأية طريقة، إما من السرقة، أو من مسألة الناس، أو بالارتماء في أحضان رفقة السوء.

ومنهم من يحرم أولاده من العطف والشفقة والحنان، مما قد يقودهم إلى البحث عن ذلك خارج المنزل.

إن هذه الأنماط من التربية مما يحول بين الأولاد وبين عزة النفس، وما يتبعها من قوة القلب، وأصالة الرأي.

بل هي مما يولد الخوف في نفوسهم، ومما يورثهم الذلة، والمهانة، والخجل الشديد، وفقدان الثقة بالنفس[(١)].

إن «التربية النافعة ما كانت أثراً لمحبة يطفىء البأس شيئاً من حرارتها، وصرامة تلطف الشفقة نبذة من شدتها، وهي التي يستوجب بها الوالدان دعاء الولد بقوله: رب ارحمهما كما ربياني صغيراً»[(٢)].

أضف إلى ذلك أن الأولاد يرثون طباع والديهم كما يرثون قاماتهم وأشكالهم.

ولذلك قيل: «إذا أردت ولداً صحيحاً فتخير له آباء أصحاء أقوياء»[(٣)].

---

(١) انظر التقصير في تربية الأولاد المظاهر ـ سبل الوقاية والعلاج للكاتب ص ٩-٣٨، وانظر أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة للكاتب ص ٤١-٤٤.

(٢) حياة الأمة ص ٢٥ والسعادة العظمى لمحمد الخضر حسين ص ٩٩.

(٣) الأخلاق لأحمد أمين ص ٤٣.

ويقول الشاعر العربي في وصف ابنه:

أعـرف منـه قِلَّـة النُّعـاس وخِفَّةً في رأسه من راسي[١]

وقال عدي بن الرقاع:

والمـرء يـورث جـوده أبنـاءه ويموت آخر وهو في الأحياء[٢]

فإذا كان الوالد عديم المروءة، ساقط الهمة فإن ذلك الأثر سيلحق بالأبناء في الغالب.

٣ ـ البيئة والمجتمع:

فلهذين الأمرين أهمية كبرى في علو الهمة وسفولها، فقد يكون ذلك سبباً لترقي الإنسان، وقد يكون بالعكس من ذلك تماماً.

والشأن في ذلك كالشأن في النبات؛ فالنبات في المنبت السوء لاتزال بيئته به حتى تضعفه وتميته، وفي المنبت الصالح ينمو ويترعرع، وينبت من كل زوج بهيج، ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾. [الأعراف: ٥٨].

كذلك الإنسان إذا نشأ في بيئة صالحة؛ من بيت طيب، ومجتمع تشيع فيه الفضيلة، ومدرسة تُعنى بدين الطلاب وخلقهم، وكان يحكمه دين صحيح ـ نبت خير منبت، وتربى خير تربية، وإلا فما أحراه أن يكون سافل القدر، شريراً، لا خير فيه[٣].

٤ ـ قلة وجود المربين الأفذاذ والمعلمين القدوات:

وهذا الأمر من أعظم أسباب دنو الهمة، فمما يؤسف عليه قلة المربين

(١) الأخلاق ص ٤٣.
(٢) عيون الأخبار ١/ ٢٣٣.
(٣) انظر الأخلاق ص ٤٨، ٤٩.

الأفذاذ، والمعلمين الناصحين القدوات، الذين يربون طلابهم على نشدان المعالي، وتطلاب الكمالات.

فتجد من المعلمين من لا هم له إلا إلقاء الدرس فحسب، بِغَضِّ النظر عن توجيه الطلاب، وتربيتهم، والنصح لهم.

وتجد فيهم من يؤدي درسه بكل تثاقل وبرود، وكأن الدرس جبل على عاتقه يسعى لإزاحته، وبالتالي يفقد الدرس الحرارة والروح، فتقل فائدة الطلاب من الدرس، فلا يجدون اليدَ الحانيةَ، والقلب الرحيم، والنفس الأبية، التي تنشد عزَّهم، وتروم فلاحهم.

وتجد من المعلمين من هو ضعيف النفس، مهزوم الوجدان، مهزوز الشخصية، ساقط الهمة، ضيّق النظرة، يربي الطلاب على الجبن والخور، والتقليد الأعمى.

ومن هنا يخرج الجيل الذي تربى على أمثال هؤلاء جيلاً جباناً، ضعيف النفس، قانعاً بالدون، يرى أستاذه عقبة كؤوداً لا يستطيع تجاوزها.

٥ ـ وسائل الإعلام:

فوسائل الإعلام لها دور خطير في التربية، ولديها قدرة كبيرة على الإقناع، وصياغة الأفكار، ولها دور بالغ في تنحية دور الأسرة والمدرسة.

فإذا ما انحرفت تلك الوسائل قادت الناس إلى الهاوية، وأصبحت معاول هدم وتخريب، وأدوات فساد وانحلال، ومدارس لتمييع الأخلاق، وقتل المروءة والرجولة.

وهذا سبب عظيم يقود إلى سفول الهمم ودنوها.

٦ ـ همُّ الزوجة والأولاد:

فقد تكون الزوجة فتنة لزوجها، فتصده عن العبادة، وتعوقه عن طلب العلم، والسعي للمعالي، وذلك بسبب رِقَّةِ دينها، أو كثرة طلباتها، وتخذيلها لزوجها.

وكذلك الأولاد قد يكونون فتنة وبلاء لوالدهم، فتراه يخاف عليهم، ويحرص على تأمين مستقبلهم، ويخشى من ضياعهم بعد فراقه الدنيا.

أما إذا انحرفوا عن سواء السبيل فلا تسل عن شقاء الأب وحسرته.

وصدق الله ـ عز وجل ـ إذ يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ﴾. [التغابن: ١٤].

وإذ يقول: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾. [الأنفال: ٢٨].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام: **«إنَّ الولد مبخلة، مجبنة، مجهلة، محزنة»**[١].

فالزوجة والأولاد كثيراً ما يثنون ذا الهمة عن مراده؛ ولهذا فكم عانى الكرام والشجعان منهم ومن تخذيلهم.

فهذا أحدهم يقول مبيناً عاقبته عندما أطاع زوجته في الشهوات:

أطعت العرس[٢] في الشهوات حتى ... أعادتني عسيفاً عَبْدَ عَبْدِ
إذا ما جئتها قد بعتُ عِذقاً ... تعانقُ أو تُقبِّل أو تُفدِّي[٣]

وهذا مالك بن الريب يصور حواره مع ابنته، التي تحاول ثَنْيَه عن الذهاب للجهاد في سبيل الله فيقول:

تقول ابنتي إن انطلاقك واحداً ... إلى الروع يوماً تاركي لا أباليا
ذريني من الإشفاق أو قَدِّمي لنا ... من الحدثانِ والمنية واقيا
ستتلف نفسي أو سأجمع هجمة ... ترى ساقييها يألمان التراقيا[٤]

وهذا جؤية بن النضر، يحكي لنا ما دار بينه وبين زوجه طريفة

---

(١) أخرجه الحاكم ٣/٢٩٦، والطبراني في الكبير ٢٤/٢٤١ برقم (٦١٤) وصححه الألباني كما في صحيح الجامع (١٩٩٠).
(٢) العرس: هي الزوجة.
(٣) عيون الأخبار ١/٢٤٣.
(٤) عيون الأخبار ١/٢٣٨.

عندما لامته على كثرة بذله وعطائه فيقول:

قـالـت طـريفـةُ مـا تبقـى دراهِمُنـا ... ومـا بنـا سـرفٌ فيهـا ولا خـرقُ
إنـَّا إذا اجتمعـت يـومـاً دراهمُنـا ... ظلَّت إلى سبل المعروف تستبقُ
ما يألف الدرهمُ المضروبُ خرقتَنَا ... إلا يمـر عليهـا ثـم ينطلـق
حتـى يصيـرَ إلـى نـذلٍ يخلـده ... يكـاد مـن صـرِّه إيـاه ينمـزق[1]

وهذا أحدهم يوصي بالخطار بالنفس، ويرى أن الجلوس مع العيال لا يليق بذي الهمة فيقول:

خاطر بنفسك كي تصيب غنيمة ... إن الجلـوس مـع العيـال قبيـح[2]

وهـذا لا يعنـي الـدعـوة للتمـرد علـى الـزوجـة والأولاد، وهضمهـم حقوقهم، والتقصير في رعايتهم، بقدر ما هو دعوة للتوازن ووضع الأمور في نصابها، ومكانها اللائق بها، من غير ما إفراط أو تفريط[3].

٧ ـ قلة التشجيع:

فكثيراً ما يبرز أحد في ميدان من الميادين، ثم لا يجد من يأخذ بيده، ويعينه على نفسه.

بل ربما وجد من يُخَذِّلُه، ويضع العقبات في طريقه، ومن هنا تخبو ناره، وتدنو همته.

---

(١) وتنسب الأبيات لحاتم الطائي، وطريفة كانت جارية له، وقد قالت له: اتق الله، وأبق على نفسك، وذلك عندما أتى قومه مُحمَّلاً بالعطايا من النعمان بن المنذر، وفرق المال على أعاريب طيء. انظر الحماسة- التبريزي- ٤/ ٨٢٦ وديوان حاتم الطائي، صنعه يحيى بن مدرك الطائي، رواية هشام بن محمد الكلبي تحقيق د. عادل سليمان جمال ص ٣٠٢ وانظر الإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين ص ٢٤٦-٢٤٧.

(٢) عيون الأخبار ١/ ٢٣٨.

(٣) انظر أخطاء في مفهوم الزواج والحياة الزوجية للكاتب ـ يسر الله إتمامه ـ.

٨ ـ صحبة الأشرار ومرافقة المخذّلين:

فالصحبة السيئة تحسن القبيح وتقبح الحسن، وتجر المرء إلى الرذيلة، وتبعده عن كل خير وفضيلة؛ ذلك أن المرء يتأثر بعادات جليسه، فالصاحب ساحب، والطبع استراق.

ثم إن مجالسة المخذلين ومرافقتهم تنساق بصاحبها إلى الحضيض؛ فكلما همَّ بالصعود عوَّقوه عن همته، وثنوه عن عزمته، تارة بالتخذيل، وتارة بالتخويف، وتارة بوضع العراقيل وهكذا. . .

ولو لم يأته من مجالسة هؤلاء إلا أنه يقارن حاله بحالهم، فيتعاظم في نفسه، ويرى أنه أرفع منهم قدراً، وأعلا منهم منزلة، فلا يسعى في إصلاح حاله، ولا في رفع شأنه، بل ربما قاده ذلك إلى مقارنة سيئاته بسيئاتهم، فيستقل سيئاته بجانب سيئاتهم، فيجره ذلك إلى الجرأة والإقدام على فعل الموبقات والآثام[١].

وصدق البارودي إذ يقول:

تعست مقارنةُ اللئيم فإنها ... شرقُ النفوس ومحنة الكرماء
أنا في زمان (قلّب)[٢] ومعاشر ... يتلونون تلون الحرباء
قد أصبحوا للدهر سُبَّةَ نادمٍ ... من كل مصدر محنة وبلاء
وأشد ما يلقى الفتى من دهره ... فقد الكرام وصحبة اللؤماء[٣]

٩ ـ ضعف الإيمان:

فالإيمان جذوة تتقد في قلب صاحبها، فتقوده إلى كل خير، وتنأى به عن كل شر، فإذا ما ضعف الإيمان أو فقد فإن صاحبه لن يبالي بالمكرمات، ولن يسعى للمعالي.

---

(١) انظر بهجة قلوب الأبرار ص ٢٢٤، ومن تجالس للشيخ عبدالله الجعيثن ص ٣٦ ـ ٤٤.
(٢) في الديوان: (غادر) ولعل كلمة (قُلَّب) أصوب وأنسب، ثم إنها لا تغير الوزن.
(٣) ديوان البارودي ص٣١ . .

ثم إن ضعف الإيمان أو فقده أعظم ما يقلل بركة العمر والعلم والعمل، وإذا فقدت البركة في شيء فأي خير يرتجى من ورائه؟.

ثم إن همة المؤمن أعظم الهمم؛ إذ أن مراده هو رضا الله ودخول الجنة، وأي همة تعدل هذه الهمة أو تقترب منها؟.

١٠ ـ ضعف الغيرة على الحق:

فالغيرة الصادقة تبعث صاحبها إلى الفضائل، وتنهض به إلى محاربة الفساد بكل صوره، وتأخذ بيده إلى مكافحة المبطل أو المفسد، وتقويم عوجه في تثبت وحزم.

أما ضعف الغيرة على الحق أو فقدها فنقيصة تنزل بصاحبها إلى الحضيض[١].

١١ ـ الإعجاب بالنفس والاستبداد بالرأي:

فالإعجاب بالنفس، والاستبداد بالرأي آية الجهل، ودليل السفه ونقص العقل؛ فالمعجب بنفسه لا يستشير العقلاء، ولا يستنير برأي الأكياس الفطناء، من أهل العقول الراجحة، والتجارب السالفة، ممن جمعوا إلى جانب سداد الرأي والحكمة ـ النصحَ والتقوى والديانة؛ ذلك لأن خيالات الغرور ذهبت بذلك الإنسان كل مذهب، فجعلته معتدًّا بنفسه، مستبدًّا برأيه.

وهكذا يقضي العمر وهو يراوح مكانه، لا يتقدم لمكرمة، ولا يرتقي لمنزلة.

مثلُ المُعْجَبِ في إعجابه مثلُ الواقفِ في رأس الجبل
يبصر الناس صغاراً وهو في أعين الناس صغيراً لم يزل

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/ ٧٣.

١٢ ـ استشارة النّوكى(١) والمخذّلين:

فكما أن الإعجاب بالنفس، والاستبداد بالرأي سبب لدنو الهمة ـ فكذلك الاستشارة إذا لم تطلب من أهلها، وتبتغى من مظانها تكون سبباً لدنو الهمة.

وذلك كحال من يستشير النوكى، والمرجفين، والمخذلين؛ فإن استشارتهم تورد المهالك، وتثني عن المعالي.

١٣ ـ التـــردد:

فهناك من هو ذو رأي سديد، ومشاورة لأهل الرأي، فتراه يعزم على القيام بعمل من الأعمال بعد اقتناع تام، ومشاورة جادة، ودراسة متكاملة.

فإذا لم يبق إلا التنفيذ تردد وتثاقل، وقدم رجلاً وأخَّر أخرى، ثم يتمادى به الأمر إلى أن يترك ما عزم عليه إلى غير رجعة.

وكثيراً ما يجيء التردد في أمرٍ ما من ناحية الشهوات والعواطف، كالذي يثق ـ على سبيل المثال ـ بما في العلم من خير وشرف، ويقعده عنه حبُّ الراحة، وإيثار الدعة، وما تنزع إليه النفس من اللذة الحاضرة.

والذي يقول:

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمةٍ ... فــإن فســاد الــرأي أن تتــرددا

إنما ينبه على التردد الناشيء عن نحو الشهوات والعواطف؛ فذلك التردد المفسد للرأي، الموقع في خسر.

وإلا فلا يُعدُّ من التردد المذموم، ولا من قلة الحزم والعزم أن يستبين الرجل الحق أو المصلحة، فيقف دون عزمه مانع، كأن يعلم أن عقول الجمهور لا تتسع لقبوله، ويخشى الفتنة، فيرجئه ريثما يمهد له بما يجعله مقبولاً سائغاً.

---

(١) النوكى: جمع أنوك وهو الأحمق؛ فالنوكى الحمقى وزناً ومعنى.

كما لا يعد من قلة العزم أن يرى الرجل رأياً ويعقد النية على إنفاذه، ثم يبدو له على طريق الحجة أنه غير صالح فينصرف عنه. وبالجملة فقوي العزيمة هو الذي تكون إرادته تحت سلطان عقله، فَيُقْبِل بها على ما يراه صواباً، ويدبر بها عما يراه فساداً[١].

قال عبد قيس بن خفاف:

وإذا تشاجر في فؤادك مرةً أمران فاعمد للأعفِّ الأجمل
وإذا هممت بأمر سوء فاتئد وإذا هممت بأمر خير فاعجلِ[٢]

١٤ ـ المبالغة في احتقار النفس:

فكثير من الناس مصابون بهذا الداء؛ فالواحد من هؤلاء يبخس حظه، ويبالغ في احتقار إمكاناته، ولا يثق في نفسه البتة، بل يرى أنه دون الناس؛ وأنه لا قيمة له، ولا أمل في نجاحه، ولا يمكن أن يصدر عنه عمل عظيم، أو ينتظر منه خير كبير.

فهذا شعور بالضعة وصغرِ الشأن، من شأنه أن يقتل الطموح، ويفقد ثقة الإنسان بنفسه، فإذا هو أقدم على عمل شك في مقدرته، وارتاب في إمكان نجاحه.

ومن طبيعة الناس أنهم يحتقرون من احتقر شأنه، ويدوسون بأقدامهم من استذل.

وفي الوقت نفسه يحترمون المقدام الواثق من نفسه، العالم بقدرها؛ فالثقة بالنفس فضيلة، وشتان بينها وبين الغرور الذي يعد رذيلة؛ فثقتك بنفسك تعني معرفتك الصحيحة بها، وبمقدار ما تتحمله من أعباء، وما تلتزمه من واجبات، وكذلك علمك بما لديها من استعداد، وملكات، ومواهب.

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/٦٨-٦٩.
(٢) المفضليات للمفضل الضبي ص ٣٨٥، والأصمعيات للأصمعي ص ٢٣٠.

أما الغرور فيقوم على الكبر، وتعظيم النفس، وإعطائها أكثر مما تستحق، والمطالبة بالجزاء من غير عمل، وخداع الناس بالمظاهر الكاذبة من غير أن تكون ثمة قيمة حقيقية[١].

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر عند الحديث عن أسباب اكتساب الهمة العالية ـ إن شاءالله تعالى ـ.

١٥ ـ الخور والمبالغة في تعظيم شأن الخوف:

فهذا السبب من أعظم الأسباب الداعية لدنو الهمة إن لم يكن أعظمها؛ فكم من الناس من أقصره الخوف عن تطلب الكمال، والسعي في درج العلا.

فهذا يثنيه الخوف من الإخفاق عن تقديم أي عمل من الأعمال، وهذا يطير قلبه شعاعاً من الموت فيحجم عن منازلة الأعداء، وهذا يَفْرَقُ من التحدث أمام الناس؛ خشية أن يتلعثم، أو أن يُرْتَجَ عليه، وهذا لا يسطر حرفاً ولا ينبس ببنت شفةٍ؛ حذراً من انتقاد الناس له وهكذا. . .

وربَّ أمـــور لا تضيـــرك ضيـــرةً   وللقلب من مَخْشَاتِهِنَّ وجيبُ[٢]

«وللقرآن أبلغ الكلم في تصوير حال الجبناء، فانظروا إليه إذ يصفهم، ويريكم كيف يذوقون موتات الفزع المرة بعد الأخرى، فيقول: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].

ويريكم كيف يظهر أثر الجبن في أبصارهم، إذ يُقلِّبونها وهم في ذهولِ مَنْ أدركه الموت فيقول: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ [الأحزاب: ١٩]»[٣].

---

(١) انظر فيض الخاطر لأحمد أمين ٦/١٢٨ و ٢٤٧.

(٢) مخشاتهن: خَشْيَتهنَّ، والوجيب: الاضطراب والخوف، انظر الأصمعيات ص ١٨٤.

(٣) رسائل الإصلاح ١/٨٢، وانظر فيض الخاطر ٤/٢٠٣-٢٠٤.

كما أن القرآن نعى على الجبناء، ونبَّه على أنهم قد فقدوا جانباً في رجولتهم.

قال ـ تعالى ـ في توبيخ قوم تأخروا عن الجهاد في سبيل الله، وقعدوا مع مَنْ لم يُخْلَقْنَ للطعن والضرب: ﴿رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧].

ولا يتوارى عن أعين القوم، ولا يسل يده من أيديهم في حرب لهم فيها أمن وسيادة ـ إلا من كان حظه من الرجولة ضئيلاً أو مفقوداً [١].

فهذا النوع من الجبن ضرب من الخوف المذموم؛ فهو نوع من الوهم الذي لا حقيقة له، يقوم في الأذهان الحائرة المبلبلة، فيحول بينها وبين الإقدام؛ فهو خوف مبعثه رضا الناس وسخطهم، وليس الخوف على المبدأ والعقيدة.

فالخوف الذي نشكوه خوف سلبي مانع من الإقدام؛ ولذا صح أن يكون وهماً من الأوهام، بخلاف الخوف المحمود الذي يبعث على الإقدام، واستفراغ الجهد، واستنفاذ الوسع، وإعداد أعلى العدد. [٢]

١٦ ـ ضيق الأفق:

فلهذا الأمر علاقة كبرى في دنو الهمة؛ فهو يشل العقل، ويصد عن رؤية الحق، ويؤدي إلى حصر التفكير، وضيق الرؤية، وإصدار الأحكام الناقصة أو الباطلة.

كما يؤدي إلى زيادة صغر النفس، والإفراط في الأثرة، والنكوص عن المعالي.

فهناك من الناس من لا يعنيه في هذه الدنيا إلا نفسه، وذلك كل تفكيره، وسعيه، وغرضه.

---

(١) انظر الهداية الإسلامية ص ٣٩.

(٢) انظر المسؤولية د. محمد أمين المصري ص ٣١ ـ ٣٢.

فإن عمل خارج هذه الدائرة فلهذه الغاية، فلا يفكر في الآخرين، ولا يعنيه شأنهم، سيان عنده شقوا أم سعدوا.

فهو يحد العالم بحدود نفسه، إذا فكر فكر فيها، وإذا عَمِلَ عمل لها، ولا يعنيه من العمل إلا مقدار ربحه، خسر الناس أم ربحوا، قد تعلم درس الأخذ، ولم يتعلم درس العطاء.

وما الدنيا عنده إلا قنطرة يعبرها للوصول إلى غاياته.

وهناك من هو أسوأ من هذا، وهو من رفع نفسه فوق الناس؛ فكأنهم لم يخلقوا إلا له، فلم تخلق عيونهم إلا لتقع على مطالبه، ولا آذانهم إلا لتصغي إلى كلمته، ولا أيديهم إلا للعمل في خدمته، يسير في الحياة على ما يهوى، ويحب أن يسير الناس على ما يهوى، فهذا ـ في الحقيقة ـ طفل كبير، وكم في الناس مِنْ أطفال كبار، وهم في طفولتهم أشكال وألوان؛ فهو طفل في نفسه، وإن كان كبيراً في سنه وجسمه؛ فالأمر في النفس ليس كالأمر في الجسم؛ فقد ينضج الجسم والنفس لاتزال على حالها نفس طفل، والشاعر كان محقًّا حين قال:

لا بأس بالقوم من طول ومن عِظَمٍ جسم البغال وأحلام العصافير[1]

وضيِّقُ الأفق جبان رعديد، يخاف الأمور الصغيرة، ويشتد فزعه من الحوادث التافهة، ويغضب أشد الغضب للكلمة النابية، ويصل إلى أقصى حد من الانفعال للحوادث اليومية التي يكفي لمرورها غضُّ الطرف عنها، ويمكن بقليل من سعة العقل، وكبر النفس أن ينظر إليها ويبتسم من حدوثها، ولكنه يمعن في الألم منها؛ لضيق أفقه، وصغر نفسه، وخفة عقله.

فالذي يؤمل أن يسير الناس كما يشتهي، ويعملوا ما يريد ـ فخير له ألا ينتظر طويلاً؛ لأنه قد رام مستحيلاً، ولكن خير من ذلك أن تأخذ الناس

(١) البيت لحسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ انظر ديوانه ص ١٢٩.

كما هم، وأن تتلقى شرورهم، وأعمالهم الصغيرة بصدر رحب، وأفق واسع، ونفس مطمئنة.

وبالجملة فمن ضاق أفقه ضاق صدره، ودنت همته، وتنغصت حياته، ولم يصدر عنه خير كثير، أو عمل كبير[1].

١٧ـ الاندفاع الزائد:

فتجد من الناس من يقبل على عمل من الأعمال باندفاع زائد، ونشاط خارج عن طوره، فيكلف نفسه من المهام ما ينوء بحمله، وما لا تطيقه نفسه، وما هي إلا مدة وتني همته، وتنثني عزمته.

١٨ـ المبالغة في تطلب الكمال:

فتجد من الناس من تهفو نفسه لغاية شريفة، فيعمل ما في وسعه؛ كي ينالها، ويصل إليها.

فإذا ما حال حائل دون الوصول إليها نزع عنها، ولم يحاول السعي لها مرة أخرى.

قال العلامة محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ: «والخطل أن ينزع الرجل إلى خصلة شريفة، حتى إذا شعر بالعجز عن بلوغ غايتها البعيدة انصرف عنها جملة، والتحق بالطائفة التي ليس لها في هذه الخصلة من نصيب.

والذي يوافق الحكمة، ويقتضيه حق التعاون في سعادة الجماعة أن يذهب في همه إلى الغايات البعيدة، ثم يسعى لها سعيها، ولا يقف دون النهاية إلا حيث ينفذه جهده، ولا يهتدي للمزيد على ما فعل سبيلاً»[2].

وصدق من قال:

وعلـــيَّ أن أسعـــى وليـ س علـــيَّ إدراك النجـــاح

---

(١) انظر فيض الخاطر ٣/ ١٩٤، ٥/ ١٧٠-١٧١، ١٨٠.

(٢) رسائل الإصلاح ٢/ ٨٧.

١٩ـ قلة الصبر، واستطالة الطريق:

فتجد من الناس من يسلك طريق المجد والمعالي، سواء في طلب العلم، أو في الدعوة إلى الله، أو الجهاد في سبيل الله أو غير ذلك، فإذا ما استقَلَّ الطريق، وتوغل في السير، ورأى كثرة العوائق دونه ـ نفد صبره، ولم تسعفه همته، فيترك ما هم بالقيام به، ويَقْفُل راجعاً من منتصف الطريق.

أما صاحب الهمة العالية، والعزمة الصادقة ـ فلا يستطيل الطريق، ولا يلتفت إلى بُنَيَّاتها، بل يسير ولسان حاله يقول:

عليَّ طلاب العز من مستقره ... ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر[١]

ولهذا لما ذهب امرؤ القيس إلى قيصر الروم مستنجداً به على بني أسد، وردِّ ملك أبيه الذي زال ـ صحب معه عمرو بن قميئة، وكان من أقدم شعراء بكر، فلما سارا في تلك الرحلة، واستقلا طريقها ـ بكى عمرو ابن قميئة؛ لطول الطريق، فقال امرؤ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنَّا لاحقان بقيصرا
فقلت له: لا تبكِ عينُك إنما ... نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا[٢]

فهو يقول: نحن نطلب الملك، فإذا بلغنا إربنا منه، وإلا ألححنا في الطلب، حتى نموت دونه، وفي هذا أشرف العذر لنا.

٢٠ ـ كثرة الشواغل والقواطع:

من أهل، وصحب، وعوائد، وعوائق، ولهث وراء حطام الدنيا، كل ذلك مما يصرف الإنسان عن تطلاب المعالي، وبلوغ الأرب في المجد.

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ:

لو أن لقمان الحكيم الذي ... سارت به الركبان بالفضل

---

(١) ديوان البارودي ص ٢٣٩.
(٢) ديوان امرئ القيس ص ٦٤.

بُلي بفقر وعيال لما فرّق بين التبن والبقل[1]

٢١ ـ اختلاق المعاذير:

فمن أعظم أسباب دنو الهمم اختلاق المعاذير، والتماس المسوغات، التي نسوغ بها أخطاءنا وإخفاقنا، ونعلق عليها عجزنا وقعودنا.

وكثيراً ما تكون تلك المعاذير، والمسوغات مجرد أوهام لا حقيقه تحتها، فلا تزال تلك الأوهام تكبر شيئاً فشيئاً حتى تكوّن لنا سدّاً كبيراً منيعاً، حجارتُه سوء الظن أحياناً، وتخذيل النفس أحياناً، والشك في النتائج والخوف من الإخفاق أحايين أخر.

وقد تَكُوْنُ تلك المعاذير حقيقية، كحال من يتعلل بقلة الذكاء، أو عدم النبوغ، وكحال من يتعلل بسوء الحظ، وقلة التوفيق، وبأن الظروف لم تواته، ولم تأت على وَفْق ما يريد، وكحال من يتعلل بتربيته الأولى، وأنه قد قُصِّر فيها، فلم يُوجَّه الوجهة الصحيحة، فأخفق ولم يعد قادراً على استدراك ما فات.

وكحال من يتعلل بالبيئة التي يعيش فيها، أو الصحبة التي ابتلي بها، وكحال من يتعلل بكبر سنه، وضعف قواه، وقلة تحمله، فَيُسَوِّغ بذلك قعوده وعجزه.

فمثل تلك الأعذار والأعاليل قد تكون سبباً حقيقياً لدنو الهمة؛ إلا أنه لا يليق بالعاقل أن يستسلم لها، أو أن يسترسل معها؛ فمهما يكن من شيء فإن الفرصة متاحة، وإن الباب لمفتوح على مصراعيه لمن أراد المعالي وسعى لها سعيها.

فالإنسان بتوفيق الله، ثم بعزمه، وهمته، وتربيته لنفسه ـ قادر على التغلب على كثير من العقبات والصعاب.

---

(١) ديوان الإمام الشافعي ص ٧٠.

وما الصعاب في هذه الحياة إلا أمور نسبية؛ فكلُّ شيءٍ صعبٌ جدًّاً عند النفوس الصغيرة جدًّاً، ولا صعوبة عظيمة عند النفس العظيمة؛ فبينما النفس العظيمة تزداد عظمة بمغالبة الصعاب إذا بالنفوس الهزيلة تزداد سقماً بالفرار منها.

وإنما الصعاب كالكلب العقور؛ إذا رآك خفت منه وجريت نبحك، وعدا وراءك، وإذا رآك تهزأ به، ولا تعيره اهتماماً أفسح الطريق لك، وانكمش في جلده منك.

فإذا اعتقدت بأنك مخلوق للصغير من الأمور لم تبلغ في الحياة إلا الصغير، وإذا اعتقدت أنك مخلوق لعظائم الأمور، وسلكت السبل الموصلة لها ـ شعرت بهمة تكسر الحدود والحواجز، وتنفذ منها إلى الساحة الفسيحة، والغرض الأسمى.

ومصداق ذلك حادث في الحياة المادية؛ فمن عزم على المسير ميلاً واحداً أدركه الإعياء إذا هو قطعه، وإذا هو عزم على قطع خمسة أميال قطع ميلاً، وميلين، وثلاثة من غير تعب؛ لأن غرضه أوسع، وهمته المدخرة أكبر.

إذا كان الأمر كذلك فلا تقنع بالدون، ولا تلتمس المسوغات وتختلق المعاذير.

فلا تتعلل بقلة الذكاء، وإنما استعمل ذكاءك خير استعمال.

نعم إنك لا تقدر أن تكون في الذكاء مائة إذا خلقت وذكاؤك في قوة عشرين، ولكنك قادر على استعمال ذكائك خير استعمال حتى يفيد أكثر ممن ذكاؤه مائة إذا هو أهمله، كمصباح الكهرباء إذا نظف مما علق به، وكانت قوته عشرين شمعة ـ كان خيراً من مصباح قُوَّتُه خمسون إذا علته الأتربة، وأهمل شأنه.

ولا تتعلل بأنك لست نابغةً، ولا أن الظروف لا تواتيك، فالعالَم لا يحتاج إلى النوابغ وحدهم، والنجاح ليس مقصوراً على النوابغ دون

سواهم، ولا على من تواتيهم الظروف.

ولا تتعلل بسوء الحظ؛ فلا يوجد مَنْ منحوا قدرة على التفوق من غير جهد، وعلى الإتيان بالعجائب من غير مشقة، وعلى قلب التراب ذهباً بعصا سحرية؛ فلا يكن سوء الحظ ـ كما تزعم ـ عائقاً لك عن النجاح.

ولا تعتذر بتربيتك الأولى، ولا بعامل البيئة أو الوراثة؛ فهذه لا تعوق الإنسان عن إسعاد حياته، وملئها بالجد والاجتهاد إذا منح الهمة العالية، والإرادة القوية، والتفكير الصحيح.

ولا تتعلل بكبر السن، وضعف القوى، فتقعد عن كل فضيلة، وتُقصر عن كل مكرمة، بل جدد نشاطك، واستثر همتك، واعمل ما في وسعك.

ولا يعني ذلك أنه يراد منك حال كبرك ما يراد منك حال شبابك، واكتمال نشاطك وفتوتك.

وإنما يراد أن تَجِدَّ في الاستفادة من طاقاتك الكامنة، وخبراتك السابقة قدر الإمكان، فلو سرت على هذا النحو لعادت لك الروح، ولتجدد فيك العزم(١).

على أن هناك من أصحاب الهمم العالية من يكبر وتكبر معه همته؛ فهذا ابن عقيل الحنبلي ـ رحمه الله ـ يقول: «وإني لأجد من حرصي على العلم وأنا في عشر الثمانين أشد مما كنت أجده وأنا ابن عشرين سنة»(٢).

٢٢ ـ قلة الحياء:

فلقلة الحياء أثر عظيم في دنو الهمة، وسفول القدر؛ فقليل الحياء

---

(١) انظر فيض الخاطر ٦/١٢٧- ١٢٩ ، ٢٤٤.

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلي ١/١٤٦.

لا يأبه بدنو همته، ولا يبالي بسفول قدره، فلا يجد ما يبعثه للنهوض إلى الفضائل، ولا ما يرفعه عما هو مستغرق فيه من الرذائل.

يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقي اللحاء
إذا لم تخش عاقبة الليالي ... ولم تستحي فاصنع ما تشاء

٢٣ ـ قلة الإنصاف:

فقلة الإنصاف خصلة غير حميدة، تنساق بصاحبها إلى دركات سحيقة، فتقوده إلى الظلم، والكبر، وإيثار العاجلة على الآجلة.

وقلة الإنصاف تجر إلى التقاطع، وتبعد ما بين الأقارب والأصدقاء، قال الحكيم العربي:

ولم تزل قلةُ الإنصافِ قاطعةً ... بين الرجال وإن كانوا ذوي رحم

وقلة الإنصاف تسقط الاحترام من العيون والقلوب، وتحول بين الرجل وبين أن يزداد علماً، كما أنها تخذل العلم، وتطمس شيئاً من معالمه، وتحدث فيه فساداً كبيراً.

فمن قلة الإنصاف إلصاق التهم بالمخالف، وحمل كلامه على أسوأ المحامل، ورد الحق الذي معه، وأخذه بلازم قوله دون أن يلتزمه.

ومن ذلك ألا ينصف المرء أقرانه، أو من هم أحدث سنّاً منه؛ إما حسداً من عند نفسه، أو خوفاً من ظهور مزيتهم عليه.

ومن قلة الإنصاف إصرار المرء على خطئه بعد ما يتبين له فساده، وأَنَفَتُه من قبول الحق والرجوع إليه بعد أن يتبين له وجهه؛ إما خوفاً من سقوط منزلته، أو لحسد تنطوي عليه دخيلة نفسه، أو حذراً من تفوق الخصم، وحرصاً على الانفراد بخصال الحمد، أو متابعة للأصحاب، ومسايرة لمن هم على الشاكلة، أو لإرادة الإضلال، ومحاولة قتل الحق وطمس معالمه،

أو غير ذلك من أسباب رد الحق والإصرار على الباطل[١].

وهذه الآفة نوع من العناد «والعناد قبيح، ويشتد هذا القبح بمقدار ظهور الحجة على الرأي الذي تحاول ردَّه على صاحبه؛ فمتى كانت الحجة أظهر كان العناد أقبح.

والإنصاف جميل، ويكون جماله أوضح وأجلى حيث يكون في حجة الرأي الصائب شيء من الخفاء، وحيث يمكنك أن تَتَحَيَّزَ لرأيك، وتُهيِّىء كثيراً من الأذهان لقبوله»[٢].

هذا وسيأتي مزيد بيان لهذا الأمر عند الحديث عن أسباب اكتساب الهمة العالية.

٢٤ ـ الحسد:

فالحسد ناتج عن ضعف الإيمان، وضيق العطن، والشح بالخير على عباد الله.

وهذه الأسباب وغيرها من موجبات سفول الهمة؛ ولذلك فالحاسد لا تعلو له مكانة، ولا ترتفع له منزلة؛ لأنه دنيء الهمة، مهين النفس؛ ولأنه بحسده اشتغل بما لا يعنيه، فأضاع ما يعنيه، وما يعود عليه بالنفع والخير.

قال ابن المقفع: «ليكن ما تصرف به الأذى عن نفسك ألا تكون حسوداً؛ فإن الحسد خلق لئيم، ومن لؤمه أنه موكَّل بالأدنى فالأدنى من الأقارب، والأكفاء، والمعارف، والخلطاء، والإخوان.

فليكن ما تعامل به الحسد أن تعلم أن خير ما تكون حين تكون مع من هو خير منك، وأن غُنْماً حسناً لك أن يكون عشيرك وخليطك

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/٣٨ ـ ٤٧، وانظر أخطاء في أدب المحادثة والمجالسة للكاتب ص ٧١ - ٧٥.

(٢) رسائل الإصلاح ١/٤٦.

أفضل منك في العلم فتقتبس من علمه، وأفضل منك في القوة فيدفع عنك بقوته، وأفضل منك في المال فتفيد من ماله، وأفضل منك في الجاه فتصيب حاجتك بجاهه، وأفضل منك في الدين فتزداد صلاحاً بصلاحه»[(١)].

٢٥ ـ الطمع والجشع:

ذلك أن الطمع والجشع من موجبات الذلة والحقارة، وسقوط الجاه والمنزلة، قال الإمام الشافعي:

العبـد حـرٌ إن قنـع والحـر عبـدٌ إن طمـع
فـاقنـع ولا تقنـع فـلا شـيء يشيـن سـوى الطمـع[(٢)]

وقال:

حسبـي بعلمـي إن نفـع مـا الـذل إلا فـي الطمـع[(٣)]

وقال الآخر:

أطعـت مطـامعـي فـاستعبـدتنـي ولـو أنـي قنعـت لكنـت حـرا

٢٦ ـ التقليد الأعمى:

فهذه الخصلة بلية من البلايا، ورزية من الرزايا، وسبب عظيم لدنو الهمة، وموجب من موجبات التخلف عن ركب المعالي.

فكم من الناس من ألغى عقله، واستعاضه بعقل آخر متمثل في عقل الصحبة التي يرتاد مجلسها، أو العشيرة التي ينتمي إليها، ويدين بالولاء لها.

فلا يفكر إلا بذلك العقل، ولا يوالي إلا من أجله، ولا يقدم رجلاً

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٤٤- ١٤٥.
(٢) ديوان الإمام الشافعي ص ٥٧.
(٣) ديوان الإمام الشافعي ص ٥٦.

أو يؤخر أخرى إلا وفق ما تمليه عليه الصحبة أو العشيرة حقًّا كان أم باطلاً، إما خوفاً منهم، أو موافقة ومجاملة لهم.

ولسان حاله يقول كما قال دريد بن الصمة:

وما أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوت غويت وإن ترشد غَزِيَّةُ أرشُدِ[1]

ولا ريب أن هذا الصنيع خلل فادح، وإِمَّعِيَّةٌ مقيتة، لا تليق بالعاقل، ولا تنبغي للحازم.

فكم وضعت هذه الخصلة من همة، وكم ثنت من عزيمة، وكم قطعت من طريق.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فما على العبد أضرُّ من عشائره وأبناء جنسه؛ فنظره قاصر، وهمته واقفة عند التشبه بهم ومباهاتهم، والسلوك أين سلكوا، حتى ولو دخلوا جحر ضب لأحب أن يدخل معهم»[2].

ولا يعني ذلك أن يعيش المرء وحيداً، مؤثراً للعزلة، مستبداً برأيه، قابضاً يده عن التعاون مع بني جنسه.

وإنما المقصود أن يكون المرء ذا نظر في الأمور بعيد، وأن يؤثر الحق، ويقبله من كل أحد، وألا يساير من معه إلا على الحق.

ولهذا ذم الله ـ تبارك وتعالى ـ الذين ألفوا آباءهم على أمة فاتبعوهم، والذين أطاعوا سادتهم وكبراءهم من غير ما بَيِّنة من حق، أو أثارة من علم.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

وقال: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

ثم إن التقليد الأعمى ضرر محض على الأمة؛ حيث يفقدها تميزها

---

(١) الأصمعيات، ص ١٠٧.

(٢) الرسالة التبوكية لابن القيم ص ٨٦.

واستقلالها، ويورثها ذلة وتبعية وهواناً.

وأقبح ما في هذا أن تسير الأمة في ركاب أعدائها من اليهود، والنصارى، وسائر الكفرة؛ فذلك محض هوانٍ، وتخلٍ عن سبيل العزة؛ فلا يقدم على ذلك إلا أمة تدثرت الذلة، وسهل على أفرادها الهوان، وإلا فالأمة العزيزة هي التي تعرف مقدار ما تعطي، ومقدار ما تأخذ، ونوع ما تعطي، ونوع ما تأخذ، وهي التي تعد نفسها بكل ما أوتيت من قوة حتى تحمي رأيها فيما تأخذ وما تدع، وما تعطي وما تمنع.

٢٧ـ الفرقة والاختلاف:

فلو أجَلْت النظر في حال المسلمين اليوم لوجدتهم متفرقين مختلفين، عن اليمين وعن الشمال عزين، وكل حزب بمالديهم فرحون إلا من رحم ربك وقليل ما هم.

فالفرقة والاختلاف من أسباب الهزيمة والضعف، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

وبسبب ذلك ينال العدو نيله من الأمة، ويتمكن من التغلغل فيها، والإيضاع خلالها؛ ابتغاء فتنتها وصدها عن دينها، وتوهين قواها.

وبسبب الخلاف تتفرق الكلمة، وتتبدد الجهود، وتنقبض الأيدي عن التعاون.

وإن المصيبة لتعظم، وإن الخطب ليجل عندما يقع الخلاف بين خاصة المسلمين، وبين أهل العلم والفضل.

ولن يغرق المرء في المثالية، فيحلم بألا يوجد خلاف البتة؛ فذلك غير ممكن؛ فسنة الله اقتضت وجود الخلاف، فليست المشكلة أن نختلف، وإنما هي ألا نعرف كيف نختلف.

وليس الحل بألا نختلف أبداً، وإنما هو بألا نصعد الخلاف، وألا نسعى في إذكائه، وبأن نعرف كيف نختلف كما نعرف كيف نتفق، كما كان الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

فهم خير الناس حال الوفاق وحال الخلاف؛ فمع أن الخلاف وقع بينهم في العديد من المسائل إلا أن قلوبهم كانت متوادة، متراحمة، متقاربة، متآلفة.

بل لقد كانوا ـ رضي الله عنهم ـ مثالاً يحتذى، ونهجاً يقتفى حتى في حال الفتنة والقتال؛ فبرغم ما حصل بينهم من قتال وفتنة إلا أن منار العدل والتقوى كان قائماً فيهم؛ فلم يكفربعضهمبعضاً، ولم يبدع بعضهم بعضاً.

بل لقد كانوا يأخذون العلم من بعض، ويلتمسون المعاذير لبعض، بل كانوا يثنون على بعض، ويترحمون على بعض.

ولهذا كان حرياً بمن له جاه، أو منزلة، أو قدرة أن يسعى سعيه، وأن يبذل قصارى جهده؛ لرأب الصدع، وإصلاح ذات البين، وجمع كلمة المسلمين على الحق المبين، فهذا من أعظم الجهاد، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال: ﴿ ۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [النساء: ١١٤].

٢٨ ـ الانحراف العقدي:

فأعظم مثبطات الهمم، ودواعي القعود عن معالي الأمور - زيغ العقيدة وانحرافها؛ فذلك مبعث الشرور، ومصدر الأخلاق المرذولة.

والانحراف الناشىء عن زيغ العقيدة أصعب علاجاً من الانحراف الناشىء عن طغيان الشهوة؛ فزائغ العقيدة قد يستهين بشعائر الإسلام، ومحاسن الآداب، فيزعم أنها ليست من الحسن في شيء، ويخرج عن حدود المكارم بدعوى أنها رسمت على غير حكمة.

ثم إن زائغ العقيدة لا يتورع عن المناكر، ولا يؤتمن على المصالح، ولا يأبه أن يُلبس الباطل بلبوس الحق؛ فهو ليس عضواً أشلَّ فحسب، بل

هو عضو مسموم لا يلبث أن يسري فساده في بقية جسد الأمة.

ثم إن لانحراف العقيدة أعظم الأثر في تصدع كيان الأمة، وتفرق كلمتها، وتسلط أعدائها عليها.

ثم إن الأمة الزائغة في عقيدتها، المنحرفة عن منهاج دينها القويم - لا تلبث أن تهوي من عليائها، وتنزل من شامخ عزها، وتشرف على حضيض التلاشي والفناء، فتلقى صغاراً بعد شمم، وخمولاً بعد نباهة، وذلاً بعد عزة، وجهلاً بعد علم، وبطالة بعد نشاط، وتقاطعاً بعد ائتلاف.

ولهذا لو تتبعنا تاريخ أمتنا الإسلامية لوجدنا مصداق ذلك واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار.

فما الذي أضاع الأندلس، وقاد النصارى إلى احتلالها وإذلال أهلها؟

إنه ضعف العقيدة، والبعد عن الدين.

وما الذي سلط التتار، فشنوا غارتهم الشعواء على بلاد الإسلام، والتي راح ضحيتها قرابة المليونين، وقُوِّضَتْ بسببها أطناب الخلافة الإسلامية العباسية؟[1]

إنه زيغ العقيدة، والانحراف عن سواء السبيل.

ولهذا لما دخل التتار حاضرة الإسلام - آنذاك - بغداد لم يقم الناس لجهادهم وصد فلولهم، ولم يتضرعوا إلى الله في كشف ما ألم بهم، بل وجد منهم من يلجأ إلى أصحاب القبور، فيستغيث بهم، ويلتمس النصر منهم، كما قال أحدهم:

يـــاخـــائفيـــن مـــن التتـــر ... لـــوذوا بقبـــر أبـــي عمـــر

وفي هذه العصور المتأخرة تخلف المسلمون عن ركب الحضارة، وصاروا عالة على غيرهم، بل لقد تسلط عليهم أعداؤهم، فاستباحوا حماهم، واستولوا على خيراتهم، وذلك لأسباب عديدة أبرزها بعدهم عن

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في البداية والنهاية لابن كثير تحقيق أحمد فتيح ١٣/٢٢٦- ٢٣٢.

دينهم، وانحرافهم عن عقيدتهم في العموم وفي باب القدر على وجه الخصوص كما سيأتي في الفقرة التالية.

٢٩ـ الانحراف في مفهوم الإيمان بالقدر:

فالواجب على العبد في باب القدر أن يؤمن بقضاء الله وقدره، ويؤمن بشرع الله وأمره ونهيه، فعليه تصديق الخبر، وطاعة الأمر[١].

فإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء تاب واستغفر إلى الله، وعلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره.

ثم إن عليه أن يسعى في مصالحه الدنيوية، ويسلك الطرق الصحيحة الموصلة إليها، فيضرب في الأرض، ويمشي في مناكبها.

فإن أتت الأمور على ما يريد حمد الله، وإن أتت على خلاف ما يريد تعزى بقدر الله وهكذا، فالإيمان بالقدر يحمل على الجد، ويدعو للأخذ بالأسباب.

ولما انحرف كثير من المسلمين في مفهوم الإيمان بالقدر في العصور المتأخرة ـ قادهم ذلك إلى التخلف والانحطاط.

وذلك عندما اتخذ كثير منهم من الإيمان بالقدر مسوغاً واهياً لعجزهم وانهيارهم؛ حيث جعلوه تكأة للإخلاد إلى الأرض، وذريعة لترك الحزم والجدِّ، والتفكيرِ في معالي الأمور وسبل العزة والفلاح، تاركين الأخذ بالأسباب، ناسين ـ أو متناسين ـ أنَّ أقدار الله إنما تجري وفْق سننه الثابتة التي لا تتبدل ولا تتغير، ولا تحابي أحداً كائناً من كان.

فكان المخرج لهؤلاء أن يتكل المرء على القدر، وأن الله هو الفعال لما يريد، وأن ما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن؛ فَلْتمضِ إرادته، ولتكن مشيئته، ولْيَجْرِ قضاؤه وقدره، فلا حول لنا ولا طول، ولا يدَلَنَا في ذلك كله.

هكذا بكل يسر وسهولة، استسلام للأقدار دون منازعة لها في فعل الأسباب المشروعة والمباحة.

---

(١) انظر جامع الرسائل لابن تيمية ٢/ ٣٤١ ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ٨/ ٤٠٥.

فلا أمر بالمعروف، ولا نهي عن المنكر، ولا جهاد لأعداء الله، ولا حرص على نشر العلم ورفع الجهل، ولا محاربة للأفكار الهدامة، والمبادىء المضللة، كل ذلك بحجة أن الله شاء ذلك!.

والحقيقة أن هذه مصيبة كبرى، وضلالة عظمى، أدت بالأمة إلى هوة سحيقة من التخلف والانحطاط، وسببت لها تسلط الأعداء، وجرَّت عليها ويلات إثر ويلات.

وإلا فالإيمان بالقدر على الوجه الصحيح يقضي على ذلك كله؛ فالأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر، بل هو من تمامه؛ فالله ـ عز وجل ـ أراد بنا أشياء، وأراد منا أشياء، فما أراده بنا طواه عنا، وما أراده منا أمرنا بالقيام به، فالخلط بين هذين الأمرين يُلبس الأمر، ويوقع في المحذور[1].

وهذا ما لاحظه وألمح إليه أحد المستشرقين الألمان، فقال وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم المتأخرة: «طبيعة المسلم التسليم لإرادة الله، والرضا بقضائه وقدره، والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار.

وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان؛ ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دوراً كبيراً في الحروب، وحققت نصراً متواصلاً؛ لأنها دفعت في الجندي روح الفداء.

وفي العصور المتأخرة كانت سبباً في الجمود الذي خيَّم على العالم الإسلامي، فقذف به إلى الانحدار وعزله وطواه عن تيار الأحداث العالمية»[2].

---

(١) انظر تفصيل ذلك في: الإيمان بالقضاء والقدر للكاتب ص ٨٣- ٨٧ و ١٤١- ١٤٤.

(٢) الإسلام قوة الغد العالمية باول شمتز ص ٩٠، وانظر: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم لشكيب أرسلان.

٣٠ ـ العدوان الخارجي:

مِنْ غزوٍ فكري، واحتلال عسكري، ومكر يهودي صليبي، وما ينضوي تحت ذلك من تنصير واستشراق.

فلقد كان لهذا العدوان على اختلاف طرائقه، وأساليبه ـ أثر بالغ في تخدير الأمة، والوقوف في طريق نهضتها، والحيلولة دون تبوُّئها مكانَها اللائق بها.

ولقد كان الأعداء يرومون إخراج المسلمين من دينهم، وإبقاء الشعوب المسلمة هزيلة مستعبدة، ذليلة لا حول لها ولا طول، بل تكون تابعة للغرب، خاضعة لنفوذه.

وكانوا يرمون إلى قطع حاضر الأمة عن ماضيها؛ حتى تجهله، وتتنكر له، فتلحق بالغرب، وتسير في ركابه.

وكانوا كذلك يريدون الحد من انتشار الإسلام، ونهب الثروات من بلاد المسلمين، وتسخيرها لأطماعهم.

ولقد سلكوا لتحقيق تلك المآرب سبلاً شتى، من تأليف، واستغلال للإعلام، وسيطرة على التعليم إلى غير ذلك مما قاموا به.

أما القضايا التي ركزوا على إثارتها فكثيرة جداً، ولكن أهمها قضية تنحية الشريعة الإسلامية، والادعاء بأنها لا تصلح لهذا الزمان، ووجوب استبدالها، وإحلال القوانين الوضعية محلها .

كما ركزوا على المرأة وتحريرها ـ على حد زعمهم ـ إلى غير ذلك مما حرصوا على إثارته.

ولقد تحقق لهم كثير مما خططوا له، وما كان لهم أن يحققوه إلا عندما انحرفت الأمة في عقيدتها، ونسيت حظاً مما ذكرت به؛ فيوم كانت العقيدة سليمة، والإيمان قويّاً راسخاً، والتمسك بأمر الله قائماً ـ لم يجد الأعداء منفذاً ينفذون من خلاله، وإن وجدوا منفذاً فلن يجدوا مكاناً

يؤثرون فيه، وإن وجدوا مكاناً ففي أندر الأحوال يقع ذلك، ثم سرعان ما يُقاومُ ويعالج.

وفي ظل ذلك الانحراف نجح الأعداء في تحقيق كثير مما أرادوه، ومما تحقق لهم فأدى إلى إضعاف الهمم أو إماتتها ما يلي:

أ ـ تعطيل الحكم بما أنزل الله، وإحلال القوانين الوضعية محلها في أكثر بلاد المسلمين.

ب ـ نشر الفساد، والرذيلة، والإباحية الجنسية عن طريق دور السينما، والصحف، والمجلات، ومختلف وسائل الإعلام.

ج ـ نشر الأدب المتهتك، المستهتر بالقيم والثوابت.

د ـ إشغال الأمة بالتوافه من رياضة، وفن، ونحوها، حتى ماتت همم كثير من الشعوب، وتبلدت أحاسيسهم، ولم يعودوا يميزون بين ما ينفع وما يضر.

هـ ـ بلبلة الأفكار، وتشكيك الناس في معتقداتهم، وذلك من خلال الطعن المتواصل في دين الإسلام، وبِنَبيِّ الإسلام، والقول بأن الإسلام قد استنفذ أغراضه، ولم يعد صالحاً لهذا العصر.

و ـ إثارة الشبهات حول كثير من القضايا، كإثارتهم لقضية تحرير المرأة، وهي في حقيقتها دعوى يهدف من ورائها إلى تحطيم القيم، والأخلاق، والأسر، ونشر الفساد والانحلال.

وكذلك إثارتهم لبعض المسائل الخلافية، وتضخيم ذلك، وعرضه بصورة يخيل لقليل البضاعة من العلم أن الدين لا يوجد فيه شيء يتفق عليه.

وكذلك إثارتهم لمسألة الحدود الشرعية، وتشنيعهم عليها، وزعمهم بأنها تمثل الوحشية والهمجية.

وكذلك إثارتهم لقضية الميراث، وزعمهم بأنه هضم لحق المرأة، حيث لم تساوَ بالرجال، إلى غير ذلك مما يثيرونه من قضايا.

ز ـ تهوين شأن الحضارة الإسلامية، وتشويه التاريخ الإسلامي، بهدف

تزهيد الناس فيه، ولفت نظرهم إلى الحضارة الغربية التي أضفوا عليها دعاية مغرية.

ح ـ احتلالهم لأكثر بلاد المسلمين، ولم يسلم من ذلك إلا أقل القليل.
ط ـ القضاء على الحركات الجهادية.

ي ـ تمزيق الأمة، وتفريق شملها، وإثارة العداوات والأحقاد داخل صفوفها؛ كي يسهل القضاء عليها.

ك ـ إحداث الهزيمة النفسية لدى كثير من المسلمين، حيث فقدوا الثقة بأنفسهم وبدينهم، فقادهم ذلك إلى الإعجاب بالغرب، والنظر إليه بإكبار، وإجلال، وأخذ ما عنده دونما نظر أو تمحيص، مما أدى إلى ضياع الشخصية، وفقدان التميز.

ل ـ التحكم بمصير الشعوب، وامتصاص خيراتها.
م ـ السيطرة على وسائل الإعلام ووسائل التعليم والتوجيه في كثير من بلاد الإسلام.
ن ـ اصطناع العملاء من أبناء المسلمين؛ كي يقوموا بالدور المناط بهم من قبل أسيادهم.
س ـ استهلاك جهود العلماء والدعاة في مقاومة ما يروجونه من فساد وتغريب.
ش ـ رفع الأقزام من ممثلين ولاعبين ومنحرفين، وإضفاء الألقاب الرنانة عليهم، وفي مقابل ذلك يحط من شأن الأعلام من العلماء والقادة العظام.

هذه بعض آثار العدوان الخارجي، وواحدٌ منها كافٍ في إنهاك الأمة، وإماتة هممها؛ فكيف بها إذا اجتمعت كلها؟[١]

---

(١) هذه الآثار نجمت عن العدوان الخارجي سواء كان احتلالاً، أو تنصيراً، أو استشراقاً، أو غزواً فكرياً، أو تخطيطاً يهودياً أو ما شاكل ذلك، ولم أحرص على =

وبهذا ينتهي ما يسر الله تقييده من أسباب دنو الهمة.



= فصلها عن بعض، ولا على ذكر كل واحد منها على حدة؛ لأن المقام لا يحتمل ذلك، ولأنها تشترك ـ في الغالب ـ في أهدافها، ووسائلها، وغاياتها، وآثارها. انظر رؤية إسلامية للاستشراق د. أحمد عبدالحميد غراب ص ٧ ـ ٩ و ١٦ ـ ٢٤، ٤٠، والإسلام والحضارة الغربية د. محمد محمد حسين الفصل الرابع والخامس والسادس، والولاء والبراء د. محمد بن سعيد القحطاني ص ٤١٣، والانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارها في حياة الأمة لعلي بن بخيت الزهراني ص ٨٣١ ـ ٩٧٦، وانظر قوى الشر المتحالفة محمد محمد الدهان، وسموم المستشرقين في العلوم الإسلامية لأنور الجندي، وقادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله لجلال العالم، وبروتوكولات حكماء صهيون للتونسي، وغيرها كثير.

الباب الثاني

مقومات الهمة العالية

وتحته تمهيد وثلاثة فصول:

- تمهيد: هل يمكن اكتساب الهمة العالية؟
- الفصل الأول: علو الهمة.
- الفصل الثاني: أسباب اكتساب الهمة العالية.
- الفصل الثالث: نماذج رائعة للهمة العالية.

(تمهيد)
هل يمكن اكتساب الهمة العالية؟

بعد أن استبان لنا دنو الهمة، ومظاهره، وأسبابه، وبعد أن اتضح لنا أنه خلق ساقط، وخصلة مرذولة، ومنقصة في حق صاحبه ـ فإنه يحسن بنا الحديث عن الهمة العالية، وعن إمكانية اكتسابها؛ فإن الأشياء إنما تتميز وتحسن بذكر ضدها، قال المتنبي:

ونذيمهم[(١)] وبهم عرفنا فضله وبضدها تتبيَّن الأشياء[(٢)]

ثم إن الطباع الحميدة، والأخلاق الفاضلة ـ كما أنها غريزية، فطرية، جبلِّيَّة ـ فهي كذلك اكتسابية تأتي بالدربة والمجاهدة والممارسة.

قال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. [الرعد: ١١]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾. [الشمس: ٩].

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحرَّ الخير يُعْطه، ومن يتوقَّ الشر يوقَه**»[(٣)].

---

(١) نذيمهم: يعني نذمهم.

(٢) ديوان المتنبي ١/ ٢٢.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه (٩/ ١٢٧).
قال المناوي في فيض القدير (٢/ ٥٧٠).
«قال الحافظ العراقي: سنده ضعيف انتهى، ولم يبين وجه ضعفه، وذلك لأن فيه إسماعيل بن مجالد، وليس بمحمود» اهـ.
ورمز لضعفه السيوطي في الجامع الصغير كما في فيض القدير.

فتغيير الطباع والأخلاق وارد ممكن؛ فليس متعذراً ولا مستحيلاً، خلافاً لمن يرى أنها ثابتة في الإنسان لا يمكن أن تتغير؛ بحجة أنها غرائز فطر عليها، وطبائع جبل على التحلي بها؛ فلا يمكنه تغييرها، ولا يتصور فكاكه عنها.

= وقال الألباني في الصحيحة (١/ ٦٠) رقم (٣٤٢): إسناده حسن أو قريب من الحسن.
وأخرجه الطبراني في الكبير ١٩/ ٣٩٥ رقم (٩٢٩) من حديث معاوية ـ رضي الله عنه ـ بلفظ:
«يا أيها الناس، إنما العلم بالتعلم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما يخشى الله من عباده العلماء».
قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٢٨:
«فيه راوٍ لم يسم، وعتبة ابن أبي حكيم وثقه أبو حاتم، وأبو زرعة، وابن حبان، وضعفه جماعة» اهـ.
وقال المناوي في فيض القدير ٢/ ٥٧٠:
«قال ابن حجر: إسناده حسن؛ لأن فيه مبهماً اعتضد لمجيئه من وجه آخر.
وروى البزار نحوه من حديث ابن مسعود موقوفاً ورواه أبونعيم مرفوعاً» اهـ.
وأخرجه الطبراني في الأوسط ٣/ ٣٢٠ رقم (٢٦٨٤)، وأبونعيم في الحلية ٥/ ١٧٤، والخطيب البغدادي في تاريخه ٥/ ٢٠١ من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ بلفظ:
«إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم، ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتق الشرَّ يوقَه، ثلاث من كن فيه لم يسكن الدرجات العلا ـ ولا أقول لكم الجنة ـ من تكهن، أو استقسم، أو رَدَّه من سفرٍ تطيرٌ».
وقال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن سفيان إلا محمد بن الحسن. اهـ.
وقال أبو نعيم:
«غريب من حديث الثوري عن عبدالملك تفرد به محمد بن الحسن. اهـ.
وقال الهيثمي في المجمع ١/ ١٢٨.
«فيه محمد بن الحسن بن أبي يزيد وهو كذاب» اهـ.

ولـو كـانـت الأخـلاق لا تتغيـر لبطلـت الـوصـايـا، والمـواعـظ، والتأديبات.

ثم إن في الأدلة التي مضى ذكرها دلالةً على هذا الأمر، بل إن كثيراً من الأدلة في الكتاب والسنة إنما تحث على الفضائل، وتنهى عن الرذائل، ولو كان ذلك غير ممكن لما أُمِرَ به.

بل كيف ينكر هذا وتغيير خلق الحيوان البهيم وارد ممكن؟!

إذ أن البازيَّ ينقل من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك عن التخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكُلُّ ذلك تغيير في الأخلاق.

فإذا كان هذا هو الشأن مع الحيوان البهيم فأجدر بالإنسان الذي ميزَّه الله بالعقل، وكلَّفه من بين سائر المخلوقات ـ أن يتغير خلقه، ويتبدل طبعه إلى حد الاعتدال، وذلك إذا أخذ بالأسباب، وقام برياضة نفسه، وحَمْلِها على المكارم.

ثم إن الواقع يشهد لما مضى؛ فنحن نرى، ونقرأ، ونسمع عن أناس دانيةٍ هِمَمُهم، خائرة عزائمهم، سيئة أخلاقهم.

فإذا ما راض الواحد منهم نفسه، وساسها، وتطلع إلى الفضائل وسعى لها سعيها، وتخلى من الرذائل وأنف من أن يوصف بها ـ علت همته، ووفرت كرامته.

أما إذا جبل المرء على علو الهمة ثم سقاها بماء المكرمات، ونماها بالممارسة والمران والدربة ـ فنور على نور، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وبعد أن تبين أن الأخلاق قابلة للتغيير نصل إلى مربط الفرس، وبيت القصيد.

ألا وهو كيفية اكتساب الهمة العالية، وعلاج الهمم الدانية؛ ذلك أن

غالبية الناس لا يخفى عليهم فضل الهمة العالية، ولا قبح الهمم الدانية.

وإنما الذي يحتاجون إليه هو السبل الموصلة إلى اكتساب المعالي، والارتقاء بالهمم[1].

وفيما يلي من صفحات يتم الحديث ـ إن شاءالله ـ عن علو الهمة من حيثُ فضلُه، والثناء عليه، والحث على اكتسابه، وبيان منزلته في الإسلام، ومن ثم الحديث عن الأسباب المعينة على التحلي به.

فلعل في ذلك تحريكاً للهمم، وبعثاً للعزائم؛ فإن معالي الأمور إذا اتضحت معالمها وتبينت سبل اكتسابها كان ذلك أدعى لتمثلها، والتحلي بها، والله المستعان، وعليه التكلان.



(١) انظر إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي ٣/٥٥-٥٦، وجوامع الآداب في أخلاق الأنجاب للقاسمي ص ٤ وسوء الخلق مظاهره ـ أسبابه ـ علاجه للمؤلف ص ٧٥ ـ ٧٨ ط٢.

الفصل الأول

علـــو الهمـــة

وتحته أربعة مباحث:

- المبحث الأول: فضل علو الهمة، والثناء عليه، والحث على اكتسابه.
- المبحث الثاني: الهمة العالية وشرف المقصد.
- المبحث الثالث: موقف الإسلام من علو الهمة.
- المبحث الرابع: أقوال مضيئة في الهمة.

المبحث الأول
فضل علو الهمة ، والثناء عليه ، والحث على اكتسابه

علو الهمة خلق رفيع، وغاية نبيلة، تتعشقه النفوس الكريمة، وتهفو إليه الفطر القويمة، وعلو الهمة من الأسس الأخلاقية الفاضلة، وإليه يرجع مجموعة من الظواهر الخلقية، كالجد في الأمور، والترفع عن الصغائر والدنايا، وكالطموح إلى المعالي.

وإنما تعلو قيمة المرء، وتسمو مكانته بقدر نصيبه من علو الهمة؛ ذلك أن علو الهمة يستلزم الجد والإباء، ونشدان المعالي وتطلاب الكمال، والترفع عن الدنايا والصغائر ومحقرات الأمور(١).

والهمة العالية لاتزال بصاحبها تضربه بسياط اللوم والتأنيب، وتزجره عن مواقف الذل، واكتساب الرذائل وحرمان الفضائل حتى ترفعه من أدنى دركات الحضيض إلى أعلى مقامات المجد والسؤدد.

فهذا الخلق يسمو بصاحبه «فيتوجه به إلى النهايات من معالي الأمور؛ فهو الذي ينهض بالضعيف يُضطهد أو يزدرى فإذا هو عزيز كريم.

وهو الذي يرفع القوم من سقوط، ويبدلهم بالخمول نباهة، وبالاضطهاد حرية، وبالطاعة العمياء شجاعة أدبية.

هذا الخلق هو الذي يحمي الجماعة من أن تتملق خصمها، وتسل يدها من أسباب نجاتها ومنعتها.

أما صغير الهمة فإنه يبصر بخصومه في قوة وسطوة، فيذوب أمامهم

---

(١) انظر الأخلاق الإسلامية ٢/ ٤٧٣.

رهبة، ويطرق إليهم رأسه حطة، ثم لا يلبث أن يسير في ريحهم، ويسابق إلى حيث تنحط أهواؤهم»[١].

نعم يورد هذا الخلق صاحبه موارد التعب والعناء، ولكن التعب في سبيل الوصول إلى النهاية من معالي الأمور يشبه الدواء المر، فيسيغه المريض كما يسيغ الشراب عذباً بارداً.

تلذ له المروءة وهي تُؤْذِي ومن يعشق يلذ له الغرام[٢]

«فالمكارم منوطة بالمكاره، والسعادة لا يعبر إليها إلا على جسر المشقة، فلا تُقطع مسافتها إلا في سفينة الجد والاجتهاد»[٣].

فعظيم الهمة قد يشتد حرصه على الشرف، حتى لا يكاد يشعر بما يلاقيه في سبيله من أنكاد وأكدار.

بل ربما كان الشرف الذي يركب له الأخطار والشدائد أعزَّ وقعاً، وأدلَّ على عظم همته من الشرف الذي يناله بيسر وسهولة.

ومن تكن العلياءُ همةَ نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبَّب[٤]

ولذلك فعظيم الهمة يستخف بالمرتبة السفلى أو المرتبة الوسطى من معالي الأمور؛ فلا يهدأ له بال، ولا يقر له قرار إلا حين يضع نفسه في أسمى منزلة، وأقصى غاية[٥].

وإلى هذا المعنى يشير قول نابغة بني جعدة:

بلغنا السما مجداً وجوداً وسؤدداً وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا[٦]

---

(١) رسائل الإصلاح ٢/٨٨.
(٢) ديوان المتنبي ٤/٧٥.
(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١/١٠٩.
(٤) ديوان البارودي ص ٤٣.
(٥) انظر رسائل الإصلاح ٢/٨٦ ـ ٨٨.
(٦) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص ٣٦٤.

وكما قال الآخر:

ومـا أنـا راضٍ أنني واطـئ الثـرى ولي همة لا ترتضي الأفق مقعدا

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «فينبغي للعاقل أن ينتهي إلى غاية ما يمكنه؛ فلو كان يتصور للآدمي صعود السموات لرأيت من أقبح النقص رضاه بالأرض، ولو كانت النبوة تحصل بالاجتهاد رأيت المقصر في تحصيلها في حضيض، غير إنه إذا لم يمكن ذلك فينبغي أن يطلب الممكن.

والسيرةُ الجميلة عند الحكماء خروج النفس إلى غاية كمالها الممكن لها في العلم والعمل»[١]

ثم إن عظيم الهمة لا يشغل باله أمر صغير، ولا يقلق فكره عمل يسير، بل يقوم بجلائل الأعمال التي تتعصى على أولي القوة من الرجال، ومع ذلك فلا يتبرم، ولا يقلق، ولا يشكو كثرة الأعباء.

له قلب لا يتعب فيبلغ منزلة إلا ابتدأ التعب؛ لِيَبْلُغَ منزلة أعلى منها، وله فكرٌ كلما جهد فأدرك حقيقة كانت الحقيقة أن يجهد فيدرك غيرها[٢].

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم[٣]

ولقد جَرَتْ سنة الله في خلقه ألا ينهض بأصر المقاصد الجليلة، ويرمي إلى الغايات البعيدة ـ غيرُ النفوس التي عظم حجمها، وكبرت هممها، فلم تتعلق إرادتها بسفاسف الآمال، ولا محقرات الأعمال[٤].

فإذا كان هذا الخلق الرفيع لا يقع إلا على معالي الأمور ـ فلا عظمة

---

(١) صيد الخاطر ٢/ ٢٢٤.

(٢) انظر وحي القلم ٢/ ٨٣.

(٣) ديوان المتنبي ٣/ ٣٧٨ ـ ٣٧٩.

(٤) انظر حياة الأمة ص ٥٢٩، والسعادة العظمى ص ٢٠٩.

لهمم قوم يبتغون النهاية في زينة هذه الحياة، ويغرقون في التمتع بملذاتها المادية، كهؤلاء الذين يسرفون في الملابس المنمقة، والمطعومات الفاخرة، والمباني الشاهقة؛ فإن ذلك لا يعد فيما تتسابق فيه الهمم من معالي الأمور[١].

وإن كان في لبس الفتى شرف له فما السيف إلا غمدُه والحمائل[٢]

فإذا كان علو الهمة بتلك المكانة السامقة، والمنزلة العالية ـ فما أجدر العاقل اللبيب أن يعلي من همته، وأن يرفع من قدره، وأن يتطلب المعالي، ويسعى لها سعيها، وألا يقصر عنها، ولا يقعد دون نيلها؛ فإن علو الهمة مما يفتخر به، وسفول الهمة مما يذم ويعاب به، قال الشوكاني:

كـــن نـــاسكـــاً تبتـــلا أو رائســـــاً تبجــــــلا
وعـــدٌ عـــن مُحَمَّـــقٍ قَصَّـــر عـــن أن ينبـــلا
يصـــــده قُعُـــــودُهُ وعَجْـــزُهُ عـــن العـــلا[٣]

وهذا أبو فراس الحمداني يمدح نفسه، ويفتخر بعلو همته فيقول:

إنــي أبيــت قليــل النــوم أرّقنــي قلب تصارع فيه الهَمُّ والهِمَمُ[٤]

وهذا أبو الطيب المتنبي يفخر بعلو همته، واشتغاله بالجد والتشمير فيقول:

لولا العلا لم تَجُبْ بي ما أجوب بها وجنـاءُ حـرفٌ ولا جَـرْدَاءُ قُيـدُودُ
وكان أطيبَ من سيفي مضاجعةً أشبـاهُ رونقـة الغيـد الأمـاليـدُ

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ٢/٨٦.
(٢) شرح ديوان سقط الزند للمعري ص ٥٧.
(٣) ديوان الشوكاني أسلاك الجوهر ص ٣٠٢.
(٤) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٥٦.

لم يترُكِ الدهرُ من قلبي ولا كبدي ... شيئاً تُتَيِّمه عينٌ ولا جيدُ[(١)]

وهذا علي بن المقرب العيوني يقول:

يُشَيِّعُني قلبٌ إلى العز تائقٌ ... ونفسٌ إلى العليا شديدٌ نزوعُها
أُشَرِّفها من أن يكون إباؤها ... لواجب حقٍّ أو لِضَيْمٍ خنُوعُها
وما أنا في السراء يوماً فَروْحُها ... ولا أنا في الضراء يوماً جزوعُها
سأنزلها الملحودَ أو رأسَ هضبةٍ ... من العزِّ يعيي كلَّ راقٍ طُلوعُها
وما طلبي العلياءَ إرثُ كلالةٍ ... فَيقْصُر خطوي دونها فأسوعُها[(٢)]
عليَّ لها سعيُ الكرام فإن أَمُتْ ... فَوَهابُها سَلاَّبُها ونَزُوعُها[(٣)]

وهذا البارودي يقول:

سواي بتحنان الأغاريد يطرب ... وغيري باللذات يلهو ويعجبُ
وما أنا ممن تأسِرُ الخمرُ لبَّه ... ويملك سمعيه اليراعُ المثقبُ
ولكن أخو هَمٍّ إذا ما ترجحت ... به سورةٌ نحو العلا راح يدأب
نفى النوم عن عينيه نفسٌ أبيَّةٌ ... لها بين أطراف الأسنة مطلب[(٤)]

قال الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ حاثاً على علو الهمة:

«وينبغي لمن كان صادق الرغبة، قوي الفهم، ثاقب النظر، عزيز النفس، شهم الطبع، عالي الهمة، سامي الغريزة ـ ألا يرضى لنفسه بالدون، ولا يقنع بما دون الغاية، ولا يقعد عن الجد والاجتهاد المبلغين له إلى أعلا ما يراد، وأرفع ما يستفاد؛ فإن النفوس الأبية، والهمم العلية لا ترضى بما دون الغاية في المطالب الدنيوية من جاه، أو مال، أو رئاسة، أو صناعة، أو حرفة، حتى قال قائلهم:

---

(١) ديوان المتنبي ٣٩، ٤٠.
(٢) أسوعها: أهملها.
(٣) علي بن المقرب العيوني حياته - شعره، ص ٢٢٧.
(٤) ديوان البارودي ص ٤٢..

إذا غامرت في شرف مروم ... فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت في أمر حقير ... كطعم الموت في أمر عظيم

وقال آخر مشيراً إلى هذا المعنى:

إذا ما لم تكن مَلِكاً مطاعاً ... فكن عبداً لخالقه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعاً ... كما تهواه فاتركها جميعا
هما شيئان من مُلْكٍ ونُسْكٍ ... ينيلان الفتى شرفاً منيعا

وقال آخر:

فإما مكان يضرب النجم دونه ... سرادقه أو باكياً لحمام

وقد ورد هذا المعنى كثيراً في النظم والنثر، وهو المطلب الذي تنشط إليه الهمم الشريفة، وتقبله النفوس العلية»[١].



(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب ص ١٢٧.

المبحث الثاني
الهمة العالية وشرف المقصد

الهمة العالية خلق سام، ومسلك رائع، تحبه النفوس، وتهفو إليه القلوب ـ كما مر بيان ذلك ـ.

وأجمل ما في ذلك الخلق وأروع ما فيه ـ ما كان مقترناً بشرف المقصد، ونبل الهدف والغاية.

فالناس تتفاوت هممهم رفعة وضعة، وتختلف مشاربهم عُلُوّاً وحِطَّة.

ولكن الشأن كل الشأن فيمن جمع إلى علو الهمة شرفَ المقصد، ونبلَ الهدف والغاية.

وإذا علمت نفسٌ طاب عنصرُها، وشرف وجدانها أن مطمح الهمم إنما هي غاية وحياة وراء حياتها الطبيعية ـ لم تقف بسعيها عند حد غذاء يقوتها، وكساء يسترها، ومسكن تأوى إليه.

بل لا تستفيق جهدها، ولا يطمئن بها قرارها إلا إذا بلغت مجداً يصعد بها إلى أن تختلط بكواكب الجوزاء[(١)].

ولا ريب أن أعلا المطالب، وأشرف المكاسب ـ هو ما كان لله وفي سبيل الله ـ تبارك وتعالى ـ.

ولذلك «لما كان مجد الآخرة أعظم المجد ـ كان ابتغاؤه أعظم الغايات، وكان هو الهمَّ الأكبر للمؤمنين الصادقين ذوي الهمم العلية، والنفوس الكبيرة الزكية.

أما الدنيا فإنها في نظرهم ـ مهما بلغت أمجادها ـ قليلة القيمة في جنب

(١) انظر الحرية في الإسلام ص ١٠.

الآخرة؛ لذلك فهم يحاولون أن يبتغوا فيما آتاهم الله الدار الآخرة، مع أنهم لا ينسون نصيبهم من الدنيا»[١].

فاستصغار متاع الدنيا، وتحقير لذائذها في نفوس الناس يرفعهم عن الاستغراق فيها، ويكبر بهممهم عن جعلها قبلةً يولون وجوههم شطرها حيثما كانوا.

وقد بين لنا العيان أن الإنسان متى عكف على ملاذ الدنيا، ولم يَصْحُ فؤاده عن اللهو بزخارفها ـ ماتت عواطفه، ونسي أو تناسى من أين تؤتي المكارم والمروءة، ودخل مع الأنعام في حياتها السافلة.

ولا يعني التزهيد والحط من متاع الحياة الدنيا ترغيب الإنسان ليعيش مجانباً للزينة، ميت الإرادة عن التعلق بشهواته على الإطلاق.

وإنما يقصد من ذلك حِكَمٌ أخرى، ومنها تعديل الأنفس الشاردة، وانتزاع ما في طبيعتها من الشره والطمع؛ لئلا يخرجا بها عن قصد السبيل، ويَتَطَوَّحا بها في الاكتساب إلى طرق غير لائقة[٢].

ولذلك فالمؤمنون الصادقون لا يدنسون أنفسهم بالدناءات ومحقرات الأمور، ولا يريقون ماء وجوههم في سبيل الحصول على عرض من أعراض الدنيا، ولا يفنون أعمارهم ويبددون طاقاتهم بحثاً عن منصب أو جاه أو مُلك، يكون غايتَهم، ومنتهى طموحهم.

بل يرون أن الآخرة هي أولى بأن تُبتغى، ويُسعى لها سعيها؛ فنعيمها خير وأبقى، وملكها ملك لا ينقطع ولا يبلى.

قال ـ تعالى ـ مخبراً عن بعض ما يناله أهل الجنة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾. [الإنسان: ٢٠].

فما ظنك بنعيم وملك وصفه الله بأنه كبير؟!.

---

(١) الأخلاق الإسلامية ٢/ ٤٧٥.

(٢) انظر الحرية في الإسلام ص ٣٨.

وقال ـ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لَمَوْضَعُ سوطٍ أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولغدوة في سبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدنيا وما فيها**»(١).

ولهذا فكلما علت همة الإنسان كانت مطالبه أسمى، وصغرت في عينه المطالب الدنيا، فلا يَكْلَفُ بها كثيراً، ولا يتتبعها إلا بمقدار الحاجات(٢).

«قيل للعتابي: فلان بعيد الهمة، قال: إذاً ليس له غاية دون الجنة»(٣).

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «لا تبذل نفسك إلا فيما هو أعلى منها، وليس ذلك إلا في ذات الله ـ عز وجل ـ في دعاء إلى حق، وفي حماية الحريم، وفي رفع هوان لم يوجبه عليك خالقك ـ تعالى ـ وفي نصر مظلومٍ.

وباذلُ نفسِه في عرض دنيا كبائع الياقوت بالحصى»(٤).

وقال ـ رحمه الله ـ: «وجدت العمل للآخرة سالماً من كل عيب، خالصاً من كل كدر، موصلاً إلى طرد الهم على الحقيقة.

ووجدت العامل للآخرة إن امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يُسر؛ إذ رجاؤه في عاقبة ما ينال به عون له على ما يطلب، وزايد في الغرض الذي إياه يقصد.

ووجدته إن عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم؛ إذ ليس مؤاخذاً بذلك؛ فهو غير مؤثر في ما يطلب.

ورأيته إن قُصد بالأذى سُرَّ، وإن نكبته نكبةٌ سر، وإن تعب فيما سلك سر؛ فهو في سرور أبداً، وغيره بخلاف ذلك أبداً»(٥).

---

(١) رواه البخاري ٧/ ١٧٠.
(٢) انظر الأخلاق الإسلامية ٢/ ٤٧٥.
(٣) عيون الأخبار ١/ ٢٣٣.
(٤) الأخلاق والسير ص ١٦.
(٥) الأخلاق والسير ص ١٥، ١٦.

وقال الشوكاني ـ رحمه الله ـ بعد أن رغَّب في علو الهمة، وبيَّن فضل الهمة العالية، وأن النفوس الأبية تسعى إليها وتتطلبها في شتى المطالب الدنيوية ـ قال: «وإذا كان هذا شأنهم في الأمور الدنيوية التي هي سريعة الزوال، قريبة الاضمحلال ـ فكيف لا يكون ذلك من مطالب المتوجهين إلى ما هو أشرف مطلباً، وأعظم مكسباً، وأرفع مراداً، وأجل خطراً، وأعظم قدراً، وأعود نفعاً، وأتم فائدة؟

وهي المطالب الدينية مع كون العلم أعلاها، وأولاها بكل فضيلة، وأجلها وأكملها في حصول المقصود، وهو الخير الأخروي؛ فإن الله ـ سبحانه ـ قد قرن العلماء في كتابه بنفسه وملائكته فقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾. [آل عمران: ١٨].

وقصر الخشية له التي هي سبب الفوز لديه عليهم فقال: ﴿ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ ﴾. [فاطر: ٢٨].

وأخبر عباده بأنه يرفع علماء أمته درجات فقال: ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾. [المجادلة: ١١].

وأخبرنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «**بأن العلماء ورثة الأنبياء**»[1].

---

(١) هذا جزء من حديث رواه أبوالدرداء- رضي الله عنه- ولفظ الحديث: «وإن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورَّثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله به طريقاً إلى الجنة».
والحديث أورده الإمام البخاري في صحيحه في باب العلم قبل القول والعمل ١/ ٢٥، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٥/ ١٩٦، وأبوداود ٤/ ٥٧ (٣٦٤١)، والترمذي ٥/ ٤٨ (٢٦٨٢)، وابن ماجة ١/ ٨١ (٢٢٣)، والدارمي في سننه ١/ ٢٠٨، وابن حبان في صحيحه ١/ ٢٨٩ (٨٨) وغيرهم كثير.
من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة، عن داود بن جميل، عن كثير بن قيس عن أبي الدرداء الحديث بطوله.
وقد اختلف الرواة في إسناده، ومن ثم اخُتلف في درجته.
=

وناهيك بهذه المزية الجليلة، والمنقبة النبيلة.

فأكرم بنفسٍ تطلب غاية المطالب في أشرف المكاسب، وأحبب برجل أراد من الفضائل ما لا تدانيه فضيلة، ولا تساميه منقبة، ولا تقاربه مكرمة»[1].



= فنقل ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ١/ ٣٤ عن حمزة الكناني أنه حسنه، وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٢٨٩ (٨٨)، وحسنه في صحيح الترغيب والترهيب ص ٣٣ (٦٨).

وقال الدارقطني في العلل: ٦/ ٢١٦ (٦١٧٣) وعاصم بن رجاء ومن فوقه إلى أبي الدرداء ضعفاء، ولا يثبت.

وقال الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٤ (٢٥٩٩): داود بن جميل حديثه مضطرب، وضعفه الأزدي، وداود لا يعرف كشيخه، وقال الدارقطني في العلل: عاصم ومن فوقه ضعفاء، ولا يصح. ا-هـ.

(١) أدب الطلب ص ١٢٨.

المبحث الثالث
موقف الإسلام من علو الهمة

الإسلام دين العزة والكرامة، ودين السمو والارتفاع، ودين الجد والاجتهاد، فليس دين ذلة ومسكنة، ولا دين كسل وخمول ودعة.

ولذلك فالإسلام يحض على علو الهمة، ويحث المسلمين على التحلي بهذا الخلق، ويوجههم إلى طرق اكتسابه، ويحرص على تربيتهم عليه، ويبين لهم جميع الطرق الموصلة إليه.

عن الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«إن الله ـ تعالى ـ يحب معالي الأمور وأشرافها، ويكره سفسافها»**[1].

---

(1) أخرجه الطبراني في الكبير ٣/ ١٣١ رقم (٢٨٩٤)، وابن عدي في الكامل ٣/ ٨٧٩.
قال الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٦): صحيح.
إلا أن في سنده خالد بن إلياس، قال فيه الحافظ في التقريب: متروك الحديث.
وقد جاء الحديث بلفظ: «إن الله - عز وجل- كريم يحب الكرماء، ويحب معالي الأمور ويكره سفسافها».
من حديث سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ عند الحاكم ١/ ٤٨، وأبي نعيم في الحلية ٣/ ٢٢٥ و ٨/ ١٣٣، والطبراني في الكبير ٦/ ١٨١ رقم (٥٩٢٨)، والخرائطي في مكارم الأخلاق ١/ ٥ رقم (٢)، والبيهقي في الكبرى ١٠/ ١٩١.
قال الحاكم: صحيح الإسناد، وقال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٨٨: رجاله ثقات، وقال العراقي في حمل الأسفار ٣/ ٢٥٩: إسناده صحيح.
وجاء بلفظ: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفسافها».
من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ عند الطبراني في الأوسط كما في مجمع البحرين ٥/ ٢٠٥ رقم (٢٩٢٦).
قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٨٨: وفيه من لم أعرفه.

فمما يلاحظ في دين الإسلام أن الإيمان والعمل قرينان، فدائماً ما يقرن بينهما في نصوص الشرع، كما في مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦﴾. [التين: ٦].

وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾. [العصر: ٣].

والعمل هو الظاهرة المادية لعلو الهمة في النفس؛ لأنه هو التحرك الجاد الذي تبذل فيه الطاقات لتحصيل أي غاية من الغايات.

ومن الملاحظ ـ أيضاً ـ أن الإسلام يحث على ترقية غايات المسلمين.

وهذا إعلاء لهممهم، وارتفاع بها عن الدنايا، وأخذ بها إلى معالي الأمور.

ولهذا فإن جميع الأوامر في القرآن الكريم والسنة المطهرة ـ إنما تدعو إلى تزكية النفوس، والارتفاع بها إلى أعلا الكمالات.

وكذلك جميع النواهي إنما هي نهي عما يُدَسِّي النفوس، وينزلها إلى حضيض الدركات.

وكل ذلك من مظاهر علو الهمة.

ومن تربية الإسلام للمسلمين على هذا الخلق ـ أن وجههم لكسب الرزق المباح عن طريق الكدح والعمل، والمشي في مناكب الأرض؛ حتى يعف الإنسان نفسه، ويستغني عن غيره.

كما وجههم في المقابل إلى أن يترفعوا عن مسألة الناس، ونفرهم من ذلك الخلق الذميم ما لم تدع الضرورة إلى ذلك، وعلمهم أن اليد العليا خير من اليد السفلى؛ فَمنَعَ القادرَ على الكسب من بسط كفه؛ للاستجداء، إذا كان في استجدائه إراقةً لماء وجهه بين يدي من تكون يده هي العليا.

بل إن من أحكام الشريعة إباحةَ التيمم للمكلف، وعدم إلزامه بقبول هبة ثمن الماء للوضوء؛ لما في ذلك من المنة التي تنقص حظاً وافراً من أطراف الهمة الشامخة.

بل ومنها عدم إلزامه باستهابة ثوب يستر به عورته في الصلاة، وأبيح له أن يصلي عارياً؛ صيانة لضياء وجهه من الانكساف بسواد المطالب.

ومن الأحكام القائمة على رعاية هذا الخلق أن التبرعات لا تتقرر إلا بقبول المُتبرَّع له؛ فلو وهب شخص لآخر مالاً لم تنعقد الهبة إلا أن يقبلها الموهوب له؛ إذ قد يربأ به خلق العزة عن قبولها؛ كراهة احتمال مِنَّتها، والمنة تصدع قناة العزة؛ فلا يحتملها ذوو المروءات إلا حال ضرورة، ولاسيما منة تجيء من غير ذي طبع كريم، أو قدرٍ رفيع[1].

ولهذا قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**لأن يأخذ أحدكم أحبلاً، فيأخذ حزمة من حطب، فيكف الله به وجهه ـ خير من أن يسأل الناس أعطي أو منع**»[2].

وقال: «**ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل ـ فخذه، وما لا فلا تُتْبِعْه نفسك**»[3].

وقال: «**من يستغن يغنه الله، ومن يستعف يُعفه الله، ومن يتصبر يُصبِّره الله، وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر**»[4].

وقال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**من سأل الناس أموالهم؛ تكثُّراً فإنما يسأل جمراً؛ فليستقل، أو يستكثر**»[5].

وعن قبيصة بن مخارق الهلالي ـ رضي الله عنه ـ قال: «تحمَّلت حَمَالة، فأتيت رسول الله– صلى الله عليه وسلم– أسأله فيها فقال: «**أقم حتى تأتينا الصدقة، فنأمر لك بها**».

---

(١) انظر حياة الأمة ص ٣٠، ورسائل الإصلاح ١/ ١٢٦.

(٢) رواه البخاري ٣/ ٧٩، ومسلم (١٠٤٢).

(٣) رواه البخاري ٨/ ١١٢، ومسلم (١٠٤٥).

(٤) رواه البخاري ٣/ ٢٦٥، ومسلم (١٠٥٣).

(٥) رواه مسلم (١٠٤١).

قال: ثم قال: **«يا قبيصة إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تَحَمَّلَ حَمَالةً، فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحةٌ اجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتى يصيب قِواماً من عيش** (أو قال سِداداً من عيش) **ورجل أصابته فاقةٌ حتى يقوم ثلاثة من ذوي الحِجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش** (أو قال سِداداً من عيش).

فما سواهن من المسألة ياقبيصة سحتاً يأكلها صاحبها سُحتاً»[1].

بل لقد أوصى ـ عليه الصلاة والسلام ـ نفراً من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً.

ففي صحيح مسلم عن عوف بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أنه لما بايع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع طائفة من أصحابه أسر إليهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلمة خفية: **«ألا تسألوا الناس شيئاً؛ فكان أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه»**[2]

ومن مظاهر تربيته لهم على خلق الهمة أن حثّهم على التسابق في فعل الخيرات، والتنافس في الأعمال الصالحات، التي تنال بها الدرجات العالية في الدنيا وفي الآخرة، والأدلة على ذلك كثيرة جدّاً.

كما عَوّدهم على الجد في العمل، والقيام إليه بهمة ونشاط.

ومن تلك المظاهر أن أمر المسلمين بالجهاد، ورغبهم فيه أيما ترغيب، والجهاد أقصى مراتب العمل الجاد؛ إذ فيه تقديم النفس رخيصة في سبيل الله.

يجود بالنفس إن ضنَّ البخيل بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود[3]

وقال الآخر:

هل الجود إلا أن تجـود بأنفس ... عـلى كل ماضي الشـفرتين صقيل

---

(١) رواه مسلم (١٠٤٤).

(٢) مسلم (١٠٤٣).

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٢٧٩.

وفي مقابل ذلك نهى الإسلام عن التواني والكسل، وأمر بالبعد عن اللهو واللعب والهزل، ونأى بأتباعه أن يضيعوا أوقاتهم في ما لا طائل تحته، ولا فائدة ترجى من ورائه.

فأمرهم بالترفع عن الدنايا، ومحقرات الأمور، وأمرهم بالزهد بالدنيا طلباً لما هو أجل وأعظم، وأبقى وأخلد، ألا وهو النعيم المقيم في جنات الخلد.

ومن مظاهر الحث على علو الهمة ما جاء في الكتاب والسنة من ذم للبخل والجبن، ومدحٍ للشجاعة والسماحة في سبيل الله.

والأدلة من الكتاب والسنة في هذا الشأن لا تكاد تحصى كثرةً؛ فصلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة والكرم؛ فبالشجاعة والكرم في سبيل الله فضل الله السابقين فقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ [الحديد: ١٠].

كما ذكر ـ عز وجل ـ الجهاد بالنفس والمال في سبيله ومدحه في غير ما آية[(١)].

ومن أعظم البواعث على علو الهمة في دين الإسلام عقيدة المسلمين بالقضاء والقدر؛ فالإسلام أمر بالإيمان بالقدر، وجعله أساساً من أسس العقيدة، وركناً من أركان الإيمان.

والإيمان بالقدر يبعث على الكرم، وعزة النفس، والشجاعة والإقدام، والصبر، والاحتساب في مواجهة الصعاب.

فتلك الخصال وغيرها هي مما يعد أصولاً في علو الهمة؛ ولذلك فالمؤمن بالقدر تجده عالي الهمة، لا يرضى بالدون، ولا بالواقع المر الأليم، ولا يستسلم له مُحْتَجّاً بالقدر؛ إذ أن هذا ليس مجال الاحتجاج

---

(١) انظر الاستقامة لابن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم ٢/ ٢٦٤- ٢٧١.

بالقدر؛ لأنه من المعائب، والاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب دون المعائب.

بل إن إيمانه بالقدر يحتم عليه أن يسعى سعياً حثيثاً لتغيير الواقع إلى الأفضل حسب قدرته واستطاعته بالطرق المشروعة.

ثم إن الإيمان بالقدر يمنع المؤمن من الاسترسال والتحسر على ما فات، ويدفعه في الوقت نفسه إلى النظر في المستقبل، والحرص على ما ينفع ويجدي.

قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قَدَرُ الله وما شاء فعل**»[١].

ومن مظاهر تربية الإسلام لأهله على علو الهمة ـ أن وجههم للدعاء، والدعاءُ باب عظيم من أبواب علو الهمة؛ فبالدعاء تكبر النفس وتشرف، وتعلو الهمة وتتسامى؛ ذلك أن الداعي يأوي إلى ركن شديد، ينزل به جميع حاجاته، ويستعين به في كافة أموره.

وبهذا يقطع الطمع عما في أيدي الخلق؛ فيتخلص بذلك من أسرهم، ويتحرر من رقهم، ويسلم من منَّتهم.

ومن أعظم مظاهر حث الإسلام على علو الهمة ـ أن وضع الأمة الإسلامية موضع قيادة البشرية؛ فأمة الإسلام هي الأمة الوسط، وهي الشاهدة على جميع الأمم.

وتلك مسؤولية عظمى، وأمانة كبرى، تتطلب جدّاً، وإخلاصاً، وعزماً ومضاءً.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤).

بل إن الله ـ عز وجل ـ توعد هذه الأمة أن يستبدلها غيرها إن هي تولَّت عن القيادة، وأخلَّت بالأمانة، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾ ﴾. [محمد: ٣٨].

وفي ذلك غرس لخلق الهمة في نفوس المسلمين، وحفز لهم كي يتحلوا بخصال الهمة العالية من اختراقٍ للصعاب، وتحمل للمشاق، واستهانة بما يعترضهم من آلام ومتاعب.

ولقد كانت حياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مليئةً بألوان من تربية المسلمين على علو الهمة.

ولقد كان ـ عليه الصلاة والسلام ـ مثالاً يحتذى، ونهجاً يقتفى في كرم نفسه، وشرف همته، فهو أعلى البشرية همة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

لـه هـمم لا منتـــهى لكبـارها وهمته الصغرى أجل من الدهر[1]

ثم إن أصحابه الكرام، الذين ورثوا عنه العلم والعمل ـ كان لهم القِدْحُ المعلَّى، والنصيب الأوفى من هذا الخلق الأسمى.

فإن أتيت إلى عبادتهم وجدت رهبان الليل، الذين أضناهم السهر، وأنضتهم العبادة.

وإن أتيت للجهاد وجدت الأسود الخادرة، التي إذا غضبت لم يقم لغضبتها شيء.

إن سولموا كانوا الملائكَ سُجَّداً أو حوربوا كانوا الليوثَ غضابا[2]

وإن أتيت للحكمة وجدت ينابيعها تتفجر من على ألسنتهم.

وإن أتيت للعلم وجدتهم أعمق الناس فهماً، وأصفاهم قريحةً، وأقلَّهم تكلفاً.

---

(١) أحسن ما سمعت، للثعالبي ص ١٣٣.

(٢) ديوان خواطر الحياة ص ٢٥.

وما تحقق لهم ذلك إلا عندما زكت نفوسهم، وارتفعت هممهم، وقوي إيمانهم ويقينهم، فبارك الله في أعمارهم، وزكّى أقوالهم وأعمالهم، فكانوا أئمة هدى، ومصابيح دجى.

ومن مظاهر التوجيه الإسلامي لعلو الهمة ـ أن حث المسلمين على خلق الحياء؛ لأن الحياء مظهر من أعظم مظاهر علو الهمة، وسبب عظيم لاكتسابها؛ ذلك أنه يدفع المرء للتحلي بكل جميل محبوب، والتخلي من كل قبيح مكروه.

ومن غرائب توجيه الإسلام إلى خلق علو الهمة ـ ما جاء في قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من أن الله ـ تعالى ـ يحب العطاس، ويكره التثاؤب، فقد روى البخاري عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: «**إن الله يحب العطاس، ويكره التثاؤب، فإذا عطس أحدكم فحمد الله ـ تعالى ـ فحق على كل مسلم سمعه أن يُشَمِّتَه.**

أما التثاؤب فإنما هو من الشيطان، فإذا تثاءب أحدكم فليرده ما استطاع؛ فإن أحدكم إذا تثاءب ضحك منه الشيطان»[1].

فالعطاس الذي لا يكون عن مرض كالزكام ـ هزة عصبية موقظة للنشاط والعمل، والنشاطُ والعمل من علو الهمة النفسية والجسدية.

بخلاف التثاؤب؛ فهو ظاهرة من ظواهر الفتور والكسل، وميل الأعصاب إلى الاسترخاء، والإخلاد إلى الراحة، وعزوف النفس عما يحركها للعمل والإنتاج، وكل ذلك من نزول الهمة.

ولذلك جعل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ التثاؤب من الشيطان، أي مما يرضي الشيطان، وإنما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك؛

(١) البخاري ٧/ ١٢٤.

تنفيراً منه، وتحذيراً للمسلم من الوقوع فريسة لمثبطات الشيطان.

ولما كان العطاس الذي لا يكون ظاهرة مَرَضِيَّة دالاً على حركة عصبية باعثة على اليقظة والنشاط، وكان أمراً انفعاليّاً غير إرادي ـ كان حقّاً على العاطس أن يحمد الله؛ لأن العطاس نعمة ربانية جاءته؛ لتوقظه، وتنشطه إلى العمل، وكان حقّاً على من سمعه من المسلمين أن يشاركه السرور بهذه الرحمة التي جاءته، فيدعو له بأن يرحمه الله.

أما التثاؤب فلما كان عنوان الكسل والخمول، وتواني الهمة ـ فهو بهذا المعنى نقص عن الكمال، ونزول في الهمة، ومن أجل ذلك كان الأدب في الإسلام أن يرده المسلم عن نفسه ما استطاع ذلك، وكان من أدب جليسه أن يعرض عنه، ويتجاهله، وينطلق فيما هو فيه، وكأنه لم يعلمه من جليسه؛ فالمسلمون يفرح بعضهم لبعض بما يأتيهم من نعمة وكمال، ويغضي بعضهم عن بعض فيما يصيبهم من نقص[(١)].

وبالجملة فدين الإسلام دين الكمال والرفعة، ودين الهداية والسمو؛ فهو يهدي العقول إلى ما تغفل أو تقصر عنه من وجوه الإصلاح.

وهو الذي يقوي عزم الإنسان على القيام بالأعمال الجليلة، ويحثه على أن يتحرى بأعماله غاية ما يستطيع من الإتقان.

وإذا رأينا من بعض المنتمين إليه وهناً في العزم، أو صِغَراً في الهمة ـ فالدين بريء من تبعة هذه النقائص، وإنما تبعتها على أصحابها[(٢)].

هذا وسيمر بنا ـ إن شاء الله تعالى ـ مزيد بيان لذلك عند الحديث عن أسباب اكتساب الهمة العالية.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في كتاب الأخلاق الإسلامية ٢/ ٤٧٤ ـ ٥٦٠.

(٢) انظر رسائل الإصلاح ٢/ ٩٤.

المبحث الرابع
أقوال مضيئة في الهمة

هناك أقوال مضيئة، وكلمات مأثورة، ينطق بها العلماء، وتجري على ألسنة الحكماء والأدباء، تبين فضل الهمة، وترفع من قدرها، وتعلي من شأنها.

فمن ذلك ما يلي:

١ ـ روي عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «لا تصغرنَّ هِمَّتُكم؛ فإني لم أرَ أقعد عن المكرمات من صغر الهمم»(١).

٢ ـ قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ: «وعليك بمعالي الأمور وكرائمها، واتق رذائلها وما سف منها؛ فإن الله ـ تعالى ـ يحب معالي الأمور ويكره سفسافها»(٢).

٣ ـ قال بعض الحكماء: «الهمة راية الجد»(٣).

٤ ـ قال بعض البلغاء: «علو الهمم بذر النعم»(٤).

٥ ـ وروي عن أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ قوله:

إذا أظمأتك أكفُّ الرجال ... كفتك القناعة شبعاً وريا
فكن رَجُلاً رِجْلُه في الثرى ... وهامةُ همَّتِه في الثريا(٥)

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٣١٩.
(٢) أقوال مأثورة وكلمات جميلة، ص ٥٥٣ عن ترتيب المدارك ١/ ١٨٧ ـ ١٨٨.
(٣) أدب الدنيا والدين ص ٣١٩.
(٤) أدب الدنيا والدين ص ٣١٩.
(٥) ديوان الإمام علي ص ٢١٧.

٦ ـ قال عنترة:

دعوني أجدُّ السعي في طلب العلا   فأدرك سؤلي أو أموت فأعذر[١]

٧ـ وقال:

إن لـي همـةً أشـدَّ مـن الصخـ   ـر وأقوى من راسيات الجبال[٢]

٨ ـ قال أحمد شوقي: «الطير يطير بجناحيه، والمرء يطير بهمته»[٣].

٩ ـ قال أبوعبيد القاسم بن سلام: «يُروى عن أبجر بن جابر العجلي أنه قال فيما أوصى به ابنه حجاراً: إياكَ والسآمةَ في طلب الأمور، فتقذفك الرجال خلف أعقابها»[٤].

١٠ ـ وقال بعضهم: «على طلاب العلا أن يوطنوا أنفسهم على اجتياز ألف عقبة، وأن يحسبوا لأنفسهم ألف هزيمة قبل الوصول إلى الظفر الأخير»[٥].

١١ ـ قال أحمد شوقي:

والخلد في الدنيا وليس بِهَيِّنٍ   عليا المراتبِ لم تُتَحْ لجبان

المجد والشرف الرفيع صحيفة   جعلت لها الأخلاق كالعنوان[٦]

١٢ ـ وقال حافظ إبراهيم:

شَمِّرْ وكافِحْ في الحياة فهذه   دنياك دارُ تناحرٍ وكفاحِ

وانهل مع النهال من عذب الحيا   فإذا رقا فامتح مع المُتَّاح

(١) ديوان عنترة ص ١٤٧.

(٢) ديوان عنترة ص ٢٠٠.

(٣) أقوال مأثورة وكلمات جميلة ص ٢٠٧.

(٤) الأمثال لأبي عبيد ص ٢٣٠.

(٥) أقوال مأثورة ص ٢١٤.

(٦) الشوقيات ٣/ ١٥٢.

وإذا ألح عليك خطب لا تهن   واضرب على الإلحاح بالإلحاح[١]

١٣ ـ قال ابن الجوزي- رحمه الله- «من علامة كمال العقل علو الهمة، والراضي بالدون دنيٌّ»[٢].

١٤ ـ وقال إبراهيم طوقان:

كفكف دموعك ليس ينـ   فعك البكاء ولا العويلُ
وانهض ولا تشك الزما   ن فما شكا إلا الكسول
واسلك بهمتك السبـ   يل ولا تقل كيف السبيل
ما ضل ذو أمل سعى   يوماً وحكمته الدليل
كلا ولا خاب امرؤ   يوماً ومَقْصِدُه نبيل[٣]

١٥ ـ قال الثعالبي: «ومن أحسن ما قيل في علو الهمة قول ابن طباطبا العلوي:

له همة إنْ قِسْتَ فرطَ علوِّها   حسبت الثريَّا في قرار قليب[٤]

١٦ ـ وقال ابن عبد القوي:

فلا تشتغل إلا بما يكسب العلا   ولا ترضَ للنفس النفيسة بالردي[٥]

١٧ ـ وأخيراً هذه كلمات مشرقة رَقَمَتْهَا يراعةُ الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه الفوائد:

أ ـ قال ـ رحمه الله ـ: «إذا طلع نجمُ الهمة في ليل البطالة، وردفه قمر العزيمة ـ أشرقت أرض القلب بنور ربها»[٦].

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم ٢/١٠٣.
(٢) صيد الخاطر ١/٣٩.
(٣) ديوان إبراهيم طوقان، ص ٦٥ ـ ٦٦.
(٤) أحسن ما سمعت ص ١٣٣.
(٥) غذاء الألباب ٢/٤٦٠.
(٦) الفوائد ص ٧٩.

ب ـ وقال: «فالنفوس الشريفة لا ترضى من الأشياء إلا بأعلاها وأفضلها، وأحمدها عاقبة.

والنفوس الدنيئة تحوم حول الدناءات، وتقع عليها كما يقع الذباب على الأقذار؛ فالنفوس العلية لا ترضى بالظلم، ولا بالفواحش، ولا بالسرقة، ولا بالخيانة؛ لأنها أكبر من ذلك، والنفوس الحقيرة بالضد من ذلك»[١].

جـ ـ وقال: «فمن علت همته، وخشعت نفسه ـ اتصف بكل جميل، ومن دنت همته، وطغت نفسه ـ اتصف بكل خلق رذيل»[٢].

د ـ وقال: «إنما تفاوت القوم بالهمم لا بالصور»[٣].

هـ ـ وقال: «أَلِفْتَ عجز العادة؛ فلو عَلَتْ بك هِمَّتُك ربا المعالي ـ لاحت لك أنوار العزائم»[٤].

و ـ وقال: «نزول همة الكساح[٥] دلاَّه في جبِّ العَذِرَةِ»[٦].

ز ـ وقال: «من تلمَّح حلاوة العافية هانت عليه مرارة الصبر»[٧].

ح ـ وقال: «لو خرج عقلك من سلطان هواك عادت الدولة إليه»[٨].

---

(١) الفوائد ص ٢٦٦.
(٢) الفوائد ص ٢١١.
(٣) الفوائد ص ٧٧.
(٤) الفوائد ص ٧٧.
(٥) الكساح: هو الذي يزيل الأوساخ، ويكنس الطرقات، وقوله: دلاه: يعني أنزله، والمعنى أن هذا الكساح لما دنت همته وصل إلى درك من السقوط قبيح؛ حيث نزل إلى مستنقع الأقذار.
(٦) الفوائد ص ٧٧.
(٧) الفوائد ص ٧٦.
(٨) الفوائد ص ٦٧.

ط ـ وقال: «نور العقل يضيء في ليل الهوى، فتلوح جادة الصواب، فيتلمح البصير في ذلك عواقب الأمور»[١].

ي ـ وقال: «القواطع محنٌ يتبين بها الصادق من الكاذب، فإذا خضتها انقلبت أعواناً توصلك إلى المقصود»[٢].

ك ـ وقال: «الهمة العَلِيّة من استعد صاحبها للقاء الحبيب»[٣].

ل ـ وقال: «إذاجن الليل تغالب النوم والسهر، فالخوف والشوق في مقدم عسكر اليقظة، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة، فإذا حمل العزم على الميمنة انهزمت جنود التفريط، فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان، وبردت الغنيمة لأهلها»[٤].

م ـ وقال: «سفر الليل لا يطيقه إلا مُضَمَّرُ المجاعةِ، النجائبُ في الأول، وحاملات الزاد في الأخير»[٥].

ن ـ وقال: «بينك وبين الفائزين جبل الهوى، نزلوا بين يديه، ونزلت خلفه، فاطوِ فضلَ منزلٍ تلحق بالقوم»[٦].

س ـ وقال: «إنما يُقطع السفر، ويصل المسافر بلزوم الجادة، وسير الليل.

فإذا حاد المسافر عن الطريق، ونام الليل كله فمتى يصل إلى مقصده؟»[٧].

---

(١) الفوائد ص ٦٧.
(٢) الفوائد ص ٧١.
(٣) الفوائد ص ١٠٤.
(٤) الفوائد ص ٧٩.
(٥) الفوائد ص ٧٩.
(٦) الفوائد ص ٧٧.
(٧) الفوائد ص ١٤٩.

الفصل الثاني
أسباب اكتساب الهمة العالية

أسباب اكتساب الهمة العالية

للهمة العالية أسباب تبعثها وتحركها، وهناك سبل تعين على اكتسابها والتحلي بها، وذلك إذا أخذ بها الإنسان، ووطن نفسه عليها.

فمن الأسباب الباعثة للهمة، والسبل المعينة على اكتسابها بالنسبة للفرد أو الجماعة ما يلي:

١ ـ طبيعة الإنسان:

فهناك من الناس من جُبل على علو الهمة، فلا يرضى بالدون، ولا يقنع بالقليل، ولا يلتفت إلى الصغائر، ولا تغدو بِلُبِّهِ الدنايا ومحقرات الأمور.

ولهذا قيل: «ذو الهمة إن حُطَّ فنفسه تأبى إلا عُلوّاً، كالشعلة في النار يصوِّبها صاحبها وتأبى إلا ارتفاعاً»[١].

قال عمر بن عبدالعزيز: «إن لي نفساً تَوّاقَةً؛ لم تزل تتوق إلى الإمارة، فلما نِلْتُها تاقت إلى الخلافة، فلما نِلْتُها تاقت إلى الجنة!»[٢].

وقال بعضهم:

ولي نفس تنازعني إذا ما ... أقول لها لعلِّي أو عساني

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

أمطري لؤلؤاً جبال سرنديـ ... ـب وفيضي آبارَ تكرورَ تبرا
أنا إن عشتُ لست أعدم قُوْتاً ... وإذا متُّ لست أعدم قبرا
همتي همةُ الملوكِ ونفسي ... نفسُ حرٍّ ترى المذلة كفرا[٣]

---

(١) عيون الأخبار ١/ ٢٣٣.

(٢) عيون الأخبار ١/ ٢٣١.

(٣) ديوان الشافعي ص ٤٤.

وقال أبو فراس الحمداني:

إنـي أبيـت قليـل النـوم أرَّقنـي　　قلبٌ تصارع فيه الهمُّ والهِمَمُ[١]

٢ ـ أثر الوالدين، ودورهما في التربية الصحيحة:

فأثر الوالدين في التربية عظيم، ودورهما في إعلاء همم الأولاد خطير وجسيم؛ فإذا كان الوالدان قدوة في الخير، وحرصا على تربية الأولاد، واجتهدا في تنشئتهم على كريم الخلال وحميد الخصال، مع تجنيبهم ما ينافي ذلك من مساوئ الأخلاق ومرذول الأعمال ـ فإن لذلك أثراً عظيماً في نفوس الأولاد؛ لأن الأولاد سَيَشِبُّون ـ بإذن الله ـ متعشقين للبطولة، محبين لمعالي الأمور، متصفين بمكارم الأخلاق، مبغضين لسفساف الأمور، نافرين عن مساوئ الأخلاق[٢].

ثم إن صلاح الآباء يدرك الأبناء، بل إن نبوغ الآباء يؤثر أيما تأثير في نفوس الأولاد؛ فمما يهيئ الناشئ للنبوغ «أن يسبقه أب أو جد بالنبوغ؛ فإن كثرة تردد اسم سلفه العبقري على سمعه، ومطالعته لبعض آثار عبقريته ـ يثيران همته، ويرهفان عزمه لأن يظفر بما ظفر به سلفه من منزلة شامخة وذكر مجيد»[٣].

ولا أدل على عظم شأن الوالدين في التربية، وأثرهما البالغ في نفوس الأولاد من حال سلفنا الصالح الذين خرجوا لنا أكرم جيل، وقدموا لنا أفضل رعيل، لا يدانيهم أحد في الفضل، ولا يُبلغ شأوهم في النبل.

فمن كان وراء هؤلاء الأبطال؟ ومن الذي صنع أولئك الرجال؟

---

(١) ديوان أبي فراس الحمداني ص ١٥٦.

(٢) انظر التقصير في تربية الأولاد المظاهر ـ سبل الوقاية والعلاج للكاتب ص ٥٠ ـ ٩٢

(٣) رسائل الإصلاح ١/ ١٨٠.

إننا لو سبرنا أحوالهم، وتتبعنا سيرهم ـ لوجدنا أن وراء كل واحد منهم أباً عظيماً، أو أمّاً عظيمة، يربون أولادهم على تطلاب الكمال، ونشدان المعالي.

فهذا أمير المؤمنين أبو الحسن علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ تنقل في تربيته بين صدرين من أملا صدور العالمين حكمة، وأحفلها بجلال الخلال، وكريم الخصال، فكان مغذاه على أمه فاطمة بنت أسد، ومراحه على أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ[(١)].

وهذا أمير المؤمنين، أريب العرب، وألمعيُّها معاوية ابن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ من كان وراءه؟ لقد كان وراءه أم عظيمة هي هند بنت عتبة وهي القائلة ـ وقد قيل لها ومعاوية وليد بين يديها: إن عاش ساد قومه ـ قالت: ثكلته إن لم يسد إلا قومه.

وكان معاوية إذا نوزع الفخر بالمقدرة، وجوذب بالمباهاة بالرأي انتسب إلى أمه، فصدع أسماع خصمه بقوله: أنا ابن هند![(٢)].

[وهكذا أبوه له شأن عظيم في الجاهلية والإسلام][(٣)].

وهذا عبدالله بن الزبير ـ رضي الله عنه ـ كان وراءه أمٌّ عظيمة كريمة شجاعة، وهي أسماء بنت أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنهما ـ.

وهي القائلة ـ وقد نعي إليها ابنها عبدالله ـ: «ما يمنعني وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل».

وهي القائلة ـ أيضاً ـ قبل ذلك عندما استشارها ابنها عبدالله ابن الزبير في قتال الحجاج: «اذهب؛ فوالله لضربة بالسيف على عز ـ أفضل من ضربة بالسوط على ذل»[(٤)].

---

(١) انظر صفحات من سيرة الأم المسلمة للشيخ د. محمد بن أحمد بن إسماعيل ص ٧٩.

(٢) المرجع السابق.

(٣) من تعليقات سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز.

(٤) انظر عودة الحجاب د. محمد بن إسماعيل ٢/١٣٦ ـ ١٤٦، وانظر التقصير =

[وهكذا أبوه الزبير له شأن عظيم وكان حواري النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ] ـ[1].

٣ ـ النشأة في مجتمع مليْ بالقمم:

فمن بواعث الهمة، ومهيئات النبوغ ـ أن يشب الناشيء الذكي في مجتمع مليْ بالقمم الحقيقية من الأبطال المجاهدين، والعلماء العاملين؛ فهذا مما يحرك همته، ويبعث عزمته؛ كي يحذو حذوهم، ويسير على نولهم.

٤ ـ تقدير النوابغ، ورعاية المواهب:

فالنوابغ يحتاجون إلى توجيه مستمر، وإلى رعاية وصيانة، وإلى أن تُـهَـيَّئَ لهم مقوماتُ النبوغ والألمعية.

فإذا نشأ الألمعي النابغة في مجتمع يَقْدُرُهُ قَدْرَه، وينظر إليه بعين الإكبار والتَّجِلَّة ـ هَفَتْ نفسُه لكل فضيلة، ورَنَتْ عينه إلى كل بطولة، فيزداد بذلك جدّاً في الطلب، وسعياً إلى أقصى درجات الكمال.

ولهذا فلا عجب أن يظهر النابغون في العلم، والأدب، والشجاعة في بلاد الأندلس؛ لأن أهلها يعظمون من عظمه علمه، ويرفعون من رفعه أدبه.

وكذلك سيرتهم في رجال الحرب، يقدمون من قَدَّمَتْهُ شجاعتُه، وعظمت في الحروب مكايده[2].

٥ ـ وجود المربين الأفذاذ، والمعلمين القدوات:

الذين يستحضرون عظم المسؤولية، ويستشعرون ضخامة الأمانة، والذين يتَّسمون ببعد النظرة، وعلو الهمة، وسعة الأفق، وحسن الخلق، والذين يتحلون بالحلم والعلم، والصبر والشجاعة، وكرم النفس والسماحة.

= في تربية الأولاد للكاتب ص ٤١ ـ ٤٧.

(١) من تعليقات سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز.

(٢) انظر رسائل الإصلاح ١/ ١٨٠.

فأثر هؤلاء في التربية كبير، ودورهم الذي يقومون به غير يسير؛ فالواحد من هؤلاء الأفذاذ ممن اجتمع له ما اجتمع من خصال الخير، ومن معاني السمو والألمعية ـ لابد أن يتأثر به طلابه، وأن ينطبعوا بطابعه؛ لأنه سيربيهم على معالي الأمور، ومكارم الأخلاق، والتطلع للكمالات.

فإن أتيت للعلم وجدته يفتح لهم أبوابه، ويشحذ قرائحهم لفهم معانيه، وإدراك مراميه، ورأيته يطلق لهم العنان في البحث، ويردهم إلى الصواب برفق إن أخطأوا، ويثني عليهم إن ناقشوا فأصابوا.

بل إنه سيحرص جهده على أن يكون من تحت يده خيراً منه، فلن يقف حجر عثرة أمام طلابه، ولن يجد في نفسه غضاضة أن يتفوق أحدهم عليه.

وما ذلك إلا لكرم نفسه، وعلو همته، وسعة أفقه، ولأنه يسعى للإصلاح، ويروم رفع الغشاوة عن الناس، ولأنه يعمل للآخرة، ويعلم أن أجره سيدوم ويتضاعف إذا هو خرَّج طلاباً يخلفونه في العلم، وينشرون ما تلقوه على يديه.

«يقص علينا التاريخ أن في الأساتذة من يحرص على أن يرتقي تلاميذه في العلم إلى الذروة، ولا يجد في نفسه حرجاً من أن يظهر عليه أحدهم في بحث أو محاورة.

يذكرون أن العلامة أبا عبدالله الشريف التلمساني كان يحمل كلام الطلبة على أحسن وجوهه، ويبرزه في أحسن صوره.

ويروى أن أبا عبدالله هذا كان قد تجاذب مع أستاذه أبي زيد ابن الإمام الكلامَ في مسألة، وطال البحث اعتراضاً وجواباً، حتى ظهر أبو عبدالله على أستاذه أبي زيد، فاعترف له الأستاذ بالإصابة، وأنشد مداعباً:

أعلمه الرماية كل يوم ... فلما اشتد ساعده رماني»[1]

---

(١) رسائل الإصلاح ١/ ٤٤.

وإن أتيت للمجالات الأخرى وجدت هذا المربي الفاضل يربيهم على خلق العدل، وفضيلة الإنصاف، والتجافي عن ساقط القول ومرذوله.

وستجده ـ أيضاً ـ يربيهم على خلق الشجاعة، وصرامة العزم، وعزة النفس، وإباءة الضيم، كما أنه سيربيهم على التواضع الجم، والبعد عن الإعجاب والتعالي على عباد الله.

فإذا تربى الطلاب على الدين القويم، ووصلت معانيه إليهم من طريقها الصحيح، وقام على التربية معلمون ربانيون مخلصون ـ رسخت الفضائل في نفوسهم، وَقَّرتْ بها قرار ذات الصدع تحت ذات الرجع، فلا ترى من جرَّاء تلك التربية إلا حياءً وعفافاً، وأمانة وصدقاً، واستصغاراً للعظائم، وغيرة على المصالح، وما شئت بعدُ من عزة النفس، وكبر الهمة.

تلك الخصال التي لا تنبت أصولها، ولاتعلو فروعها إلا أن يتفيأ عليها ظلال الهداية ذات اليمين وذات الشمال؛ فالإسلام دين ينير العقول بالحجة، ويهذب النفوس بالحكمة.

وكم أخرجت مدارسه، أو مجالس القوامين على هدايته من رجال يلاقون الأسود فيصرعونها، ويجارون الرياح فيسبقونها، يخفضون أجنحتهم؛ تواضعاً للمستضعفين، ويرفعون رؤوسهم؛ عزة على الجبارين، تعترضهم الأخطار فيخوضون غمارها، وتَعْتَـلُّ قلوب أو عقول فيضعون الدواء موضع عللها، عدل كأنه القسطاس المستقيم، وسخاء كأنه الغيث النافع العميم، وجدٌّ في طلب العلم وإن كان بمناط الثريا، وطموح إلى المعالي وإن انتبذت وراء الفلك الدوَّار مكاناً قَصِيّاً [١].

قال الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ في وصيته للمعلمين: «ثم احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال منطبقاً على ما يرونه ويشهدونه منكم من الأعمال؛ فإن الناشئَ الصغير مرهف الحس،

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/ ٢٤ و٥٦١ وفيض الخاطر ٦/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

طُلَعَةٌ إلى مثل هذه الدقائق التي تغفلون عنها، ولا ينالها اهتمامُكم.

وإنه قوي الإدراك للمعايب والكمالات، فإذا زيَّنتم له الصدق فكونوا صادقين، وإذا حسَّنتم له الصبر فكونوا من الصابرين.

واعلموا أن كلَّ نقْشٍ تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشاً في نفوسكم ـ فهو زائل، وأن كل صبغ تنفضونه على أرواحهم من قبل أن يكون متغلغلاً في أرواحكم فهو ـ لا محالة ـ ناصل حائل، وأن كل سحر تنفثونه لاستنزالهم غير الصدق فهو باطل.

ألا إن رأس مال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة، وأما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم والمعرفة ـ فهو ربح وفائدة»[١].

٦ ـ التشجيـــع:

وقد سبق في الفقرات الماضية ذكر لشيء من ذلك.

والتشجيع بمعناه العام لا يختص بالنوابغ فحسب، ولا يقتصر على المربين والمعلمين، بل هو عام للنوابغ وغيرهم، في العلم أو في أي مجال آخر.

وهو كذلك ليس مسؤوليةَ المربين والمعلمين، بل هو يقع على عاتق كل أحد يستطيع ذلك، سواء من المعلمين أو المربين، أو الوالدين، أو الرؤساء أو غيرهم.

بل هو مسؤولية عامة الناس؛ فبإمكانهم أن يحرِّضوا على الخير، ويعينوا على البر.

فيجدر بمن يستطيع القيام بذلك أن يقوم به، من خلال الكلمة الطيبة،

---

(١) عيون البصائر لمحمد البشير الإبراهيمي ص ٢٩١، وانظر كلاماً جميلاً حول هذا المعنى في عيون البصائر ص ٢٨٨ ـ ٣٠٠ وآثار محمد البشير الإبراهيمي ١/١٦١ ـ ١٦٦.

أو المبادرة بالهدية، أو من خلال رسالة الشكر والتقدير، أو غير ذلك.

فلذلك الصنيع أثره البالغ في رفع الهمم، وتنمية المهارة، والشعور بالثقة؛ ذلك أن الناس مجبولون على محبة التشجيع والدعم والشكر.

ولهذا لو تتبعنا سير العلماء والمصلحين، والمجاهدين، ثم بحثنا عن سر نبوغهم وألمعيتهم ـ لوجدنا أن كثيراً منهم قد نال ما نال بسبب كلمة سمعها فَغَيَّرت مسار حياته، أو كانت سبباً في ثباته، وصبره، واستشعاره للمسؤولية، أو نحو ذلك.

وقد يصدر ذلك من بعض العامة، فيكون له وقعه وأثره.

عن حسين الكرابيسي قال: «سمعت الشافعي يقول: كنت امرءاً أكتب الشعر، وآتي البوادي فأسمع منهم، وقدمت مكة وأنا أتمثل بشعر للبيد، وأضرب وحشي قدمي بالسوط، فضربني رجل من ورائي من الحجبة فقال: رجل من قريش، ثم ابن المطلب رضي من دينه ودنياه أن يكون مُعَلِّماً ما الشعر؟

الشعر إذا استحكمت فيه قعدت معلماً؛ تَفَقَّهْ يُعْلِكَ الله.

قال: فنفعني الله بكلام ذلك الحجبي، ورجعت إلى مكة، وكتبت عن ابن عيينة ما شاء الله أن أكتب، ثم كنت أجالس مسلم بن خالد بن عبدالله الزنجي، ثم قدمت على مالك في المدينة، فكتبت موطأه» (١).

وهذا الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ لما ابتلي بفتنة القول بخلق القرآن كان من أسباب ثباته رجل من عامة الناس، بل هو لص طرار.

قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: «كنت كثيراً أسمع والدي يقول: رحم الله أبا الهيثم، غفر الله لأبي الهيثم، عفا الله عن أبي الهيثم.

فقلت: يا أبه، مَنْ أبوالهيثم؟

فقال: لما أُخرِجْتُ للسياط، ومُدَّتْ يداي للعقابين إذا أنا بشاب يجذب

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ١٦٥.

ثوبي من ورائي، ويقول لي: تعرفني؟ قلت: لا.

قال أنا أبو الهيثم العيَّار، اللص الطرَّار، مكتوب في ديوان أمير المؤمنين أني ضُربتُ ثمانية عشر ألف سوط بالتفاريق وصبرت في ذلك على طاعة الشيطان؛ لأجل الدنيا؛ فاصبر أنت في طاعة الرحمن؛ لأجل الدين»[١].

٧ ـ التوجيه السليم ومراعاة الميول:

فلهذا الأمر أبلغ الأثر في علو الهمم، وشرف المقاصد، ونيل المآرب؛ ذلك أن نفوس الناس تختلف، ومشاربهم لا تأتلف؛ فكل نفس تميل إلى ما يوافق طبعها، وقد علم كل أناس مشربهم، وكل ميسر لما خلق له.

فهناك من الناس من همته عالية، وإرادته قوية، ولكنه ينزع بها إلى الشر والفساد، كحال بعض المجرمين الذين إذا عزموا على نوع من الإجرام لا يثني عزمهم شيء، بل إن إرادتهم قد تَفْضُل إرادة كثير من الأخيار في قوتها، ولكن عيبهم سوء الوجهة، وقلة المرشد الناصح.

فإذا ما وُجِّهت للخير، وحولت له كانت قوية في الخير كما هي قوية في الشر[٢].

وكذلك الحال بالنسبة لكثير من الناس، فقد يتوجه لمجال لا يلائم ميوله، ولا يناسب مواهبه، ومن هنا فلن تجد له إبداعاً، ولا تفوقاً.

فإذا حُوِّل إلى ما يناسبه، ووجه إلى ما يلائمه أبدع أيما إبداع؛ فلا يعني كوننا لا نبدع في كل شيء أننا لا نصلح لأي شيء[٣].

٨ ـ الإعلام:

فالإعلام له دور خطير، وأثر بالغ في توجيه الناس، والتأثير فيهم، فإذا

---

(١) صفة الصفوة ٢/٢٢٩-٣٣٠.

(٢) انظر الأخلاق ص ٥٥.

(٣) انظر قوة الإرادة وطرق تنميتها د. صلاح مراد ص ٣٤.

ما وضع في أيدٍ أمينة، وحكمته سياسة بناءة هادفة، تعلي منارات الهدى، وترفع ألوية الفضيلة، وتحمي المجتمعات من عوامل الفساد، وتحرص على رفع الأعلام، وحط الأقزام ـ فإن لذلك أبلغَ الأثر في علو الهمم، ورفعة الأمم.

٩ ـ سلامة العقيدة:

فسلامة العقيدة أهم المهمات، وأوجب الواجبات؛ فالعقيدة السليمة سبب للنصر، والظهور، والتمكين، والاجتماع.

والعقيدة السليمة تحمي معتنقيها من التخبط، والفوضى، والضياع، وتمنحهم الراحة النفسية والفكرية، وتدفعهم إلى الحزم والجد في الأمور، وتكفل لهم حياة العزة والكرامة.

كما أنها تؤثر في أخلاقهم أيما تأثير؛ فسلامة العقيدة أساس لتهذيب الأخلاق؛ فالأخلاق الكريمة لا تستقيم إلا على العقيدة السليمة، والانحراف في السلوك إنما ينشأ في الغالب عن انحراف في العقيدة؛ فالسلوك ثمرة لما يحمله الإنسان من معتقد، وما يدين به من دين.

وهذه العقيدة تأمر أهلها بكل خير، وتنهاهم عن كل شر، فتأمرهم بالعدل، وتنهاهم عن الجور، وتأمرهم بمعالي الأمور، وتنأى بهم عن سفسافها.

ولذلك فأهل العقيدة السليمة ـ أهل السنة والجماعة ـ هم خيار الناس، وأفاضلهم؛ فما من خصلة حمد وإلا ويمتازون بها، وما من خصلة ذم عند بعض أفرادها إلا وعند غيرهم أعظم وأطمُّ منها.

فأهل السنة أعظم الناس اهتماماً بالكتاب والسنة، وتسليماً لنصوص الشرع، وتعظيماً للسلف الصالح.

وهم أهل العدل، والوسطية، والأمانة العلمية، وحسن الخلق، وسعة الأفق.

وهم أهل الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وهم أهل الجمع بين النصوص، والجمع بين العلم والعمل، والجمع بين الرحمة واللين، وبين الشدة والغلظة.

وهم أبعد الناس نظراً، وأكثرهم للمعاذير التماساً، وأكثرهم للحق رجوعاً، فلا يأنفون من سماع الحق، ولا تحرج صدروهم من قبوله، ولا يستنكفون من الرجوع إليه، ولا يتلَبَّثون في الأخذ به.

ثم إنهم أعلا الناس همة، وأكثرهم حرصاً على تطلاب المعالي، ونشدان الكمالات، والبعد عن السفاسف والمحقرات.

ومن أعظم مظاهر علو الهمة عندهم حرصهم على طلب العلم، ونشره بين الناس.

ولا أدل على ذلك من حال علماء الحديث، الذين كانوا يواصلون في سبيل طلبه كلال الليل بكلال النهار، ويقطعون لأجله المفاوز والقفار، بهمة لا تني، وعزمة لا تنثني، وبنفوس أبية، وهمم علية، لا تقنع بالدون، ولا ترضى من ذلك بالقليل، حتى حفظ الله بهم الدين، فنفوا عنه زيف الغالين، وانتحال المبطلين، فاستمرت الشريعة بذلك غضة طرية، تتناقلها الأجيال، وتنهل من ينبوعها العذب، ومعينها النمير الصافي(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن بعض خصائص أهل السنة: «ومن المعلوم أن أهل الحديث(٢) يشاركون كل طائفةٍ فيما يتحلون به من صفات الكمال، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم؛ فإن المنازع لهم لابد أن يذكر فيما يخالفهم فيه طريقاً أخرى، مثل المعقول، والقياس، والرأي، والكلام، والنظر، والاستدلال، والمحاجة،

(١) انظر عقيدة أهل السنة والجماعة مفهومها ـ خصائصها ـ خصائص أهلها للكاتب.
(٢) أهل الحديث: هم أهل السنة وهذا أحد أسمائهم.

والمجادلة، والمكاشفة، والمخاطبة، والوجد، والذوق ونحو ذلك...

وكل هذه الطرق لأهل الحديث صفوتُها وخلاصتها؛ فهم أكمل الناس عقلاً، وأَعْدَلُهم قياساً، وأصوبهم رأياً، وأسدُّهم كلاماً، وأصحهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسةً، وأصدقهم إلهاماً، وأحدهم بصراً ومكاشفة، وأصوبهم سمعاً ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجداً وذوقاً.

وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر الملل؛ فكل من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدُّ وأسدُّ عقلاً»[1].

فما أجدر المسلمين أن يحرصوا كل الحرص على إصلاح عقائدهم، وما أحرى بأهل العقيدة الصحيحة أن يقوموا بالدين حق قيام ،وأن يرفعوا عقيرتهم بالحق، وينشروا عقيدتهم بين الخلق.

١٠ـ الجهاد في سبيل الله:

فبالجهاد تشرف الهمة، ويرفع الذلُّ عن الأمة، وبه يحق الحق، ويرفع الظلم، وتصحو الأمة من رقدتها، وتنهض من كبوتها.

فإذا استولى حب الجهاد على الأمة، وسار في أوصالها، وسرى في مسارب عروقها ـ عادَ لها عزها، ورجع إليها سالف مجدها، وأصبحت أمة مهيبة الجناب، موفورة الكرامة، وأصبح أفرادها متعشقين للبطولة، مترفعين عن كل رذيلة.

أما إذا تركت الجهاد، وأخذت بأذناب البقر، واشتغلت بمحقرات

---

(١) نقض المنطق لابن تيمية ص ٧-٨ وانظر اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق د. ناصر العقل ١/ ٦٤.

الأمور ـ أصابها الوهن، وجثم عليها الذل، وتسلط عليها العدو فاستباح حماها، وسلبها عزها.

١١ ـ قوة الإيمان بالله ـ عز وجل ـ:

فالإيمان بالله ـ عز وجل ـ هو الباعث الأعظم للهمة، وهو السبب الأول لشرفها؛ ذلك أن الإيمان بالله يبعث على الإقدام، والشجاعة، ويدعو إلى الحزم، والجد، والتشمير.

ثم إنه السبب الأعظم لتيسير الأمور، والحصول على البركات في الأعمال والأعمار.

وأهل الإيمان ـ كما قال ابن تيمية رحمه الله ـ: «ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعافَ ما يناله غيرهم في قرون وأجيال»[1].

وهذا شيء مشاهد محسوس؛ فالإيمان الصحيح الثابت يقوي الإدراك، ويشحذ القريحة، ويزيد العلم والإيمان، ويبارك في الأعمال وإن قلت، وفي الأوقات وإن قصرت.

وكلما ضعفت إرادة العبد، ووهنت قُوتُّه في السعي في المعالي ـ أمده هذا الإيمان الصادق بقوة قلبية، تتبعها الأعمال البدنية.

وكلما أحاطت به المخاوف كان هذا الإيمان حصناً حصيناً يلجأ إليه المؤمن، فيطمئن قلبه، وتسكن نفسه[2].

١٢ ـ الدعــاء:

وقد مر بنا قريباً أن بالدعاء تشرف النفس، وتعلو الهمة.

ثم إن الدعاء سبب لنيل الهمة، وذلك أن الله ـ عز وجل ـ أمر

---

(١) نقض المنطق لابن تيمية ص ٨، وانظر هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم ص ٢٣٤ ـ ٢٤٨.

(٢) انظر الرياض الناضرة لابن سعدي ص ٨.

بالدعاء، ووعد بالإجابة، قال ـ عز وجل ـ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. [غافر: ٦٠].

فثمرة الدعاء مضمونة ـ بإذن الله ـ إذا أتى العبد بشرائط الإجابة.

فإذا سأل العبد ربه أن يعلي همته، وأن يهديه لكل خير، ويجنبه كل شر ـ كان ذلك سبباً لعلو الهمة.

ولهذا كان من دعاء عباد الله الصالحين أنهم يقولون: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾. [الفرقان: ٧٤].

وإمامة المتقين من أعلى مراتب علو الهمة إن لم تكن أعلاها.

١٣ ـ الحياء:

فالحياء من أقوى البواعث على الفضائل، والحيي لا يرضى بالدون، ولا أن يكون من سقط المتاع، ولا أن يكون غرضاً للوم.

فيبعثه حياؤه إلى التحلي بالفضائل، والتخلي من الرذائل، وإلى فعل ما يزين، وترك ما يشين.

١٤ ـ قراءة القرآن بتدبر وتعقل:

فالقرآن يهدي للتي هي أقوم، وعلو الهمة من جملة ذلك.

والقرآن قد دفع إلى الكمالات؛ إذ ميز بين الطيب والخبيث، وبين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، وبين المجاهدين والقاعدين، وبين السابقين والمتخلفين[١].

«والقرآن يملأ النفوس بعظم الهمة، وهذا العظم هو الذي قذف بأوليائه ذات اليمين، وذات الشمال، فأتوا على عروش كانت ظالمة، ونسفوها من وجه البسيطة نسفاً، ثم رفعوا لواء العدل والحرية، والمساواة، وفجروا أنهار العلوم تفجيراً.

---

(١) انظر الأخلاق الإسلامية ٢/ ٤٨٥.

وإذا رأينا من بعض قرائه همماً ضئيلة، ونفوساً خاملة ـ فلأنهم لم يتدبروا آياته، ولم يتفقهوا في حكمه»[1].

فالقرآن هو الذي ربى الأمة، وأدبها، وزكّى منها النفوس، وصفى القرائح، وأذكى الفِطن، وجلا المواهب، وأرهف العزائم، وأعلى الهمم، وصقل الملكات، وقوّى الإرادات، ومكّن للخير في النفوس، وغرس الإيمان في الأفئدة، وملأ القلوب بالرحمة، وحفز الأيدي للعمل النافع، والأرجل للسعي المثمر، ثم ساق هذه القوى على ما في الأرض من شر وباطل وفساد فطهرها منه تطهيراً، وعمرها بالحق والإصلاح تعميراً.

ثم إن القرآن حرر الأرواح من العبودية للأوثان الحجرية والبشرية، والأبدان من الطاعة والخضوع لجبروت الكسروية والقيصرية، وجلا العقول على النور الإلهي فأصبحت كشافة عن الحقائق العليا، وطهر النفوس من أدران السقوط والإسفاف إلى الدنايا فأصبحت نزَّاعة إلى المعالي، مُقْدِمة على العظائم، فلم يزل بها هذا القرآن حتى أخرج من رعاة النَّعَم رعاةَ الأمم، وأخرج من خمول الأمية أعلام العلم والحكمة.

وبهذه الروح القرآنية اندفعت تلك النفوس بأصحابها تفتح الآذان قبل البلدان، وتمتلك بالعدل والإحسانِ الأرواحَ قبل الأشباح، ولقد أحسن من قال:

الله أكبر إن دين محمدٍ ... وكتابه أقوى وأقوم قيلا
طلعت به شمسُ الهداية للورى ... وأبى لها وصفُ الكمال أُفولا
والحق أبلجُ في شريعته التي ... جمعت فروعاً للهدى وأصولا
لا تذكر الكتب السوالفُ عنده ... طلع الصباحُ فأطفأ القنديلا

---

(١) رسائل الإصلاح ٢/ ٨٨.

ولكن سرَّ القرآن ليس في هذا الحفظ الجاف فحسب، ولا في تلك التلاوة الشلاء، وليس من مقاصد القرآن التي أُنزل لتحقيقها تلاوته في المآتم وعلى الموتى، ولا اتخاذه مكسبة ونحو ذلك.

وإنما السرُّ كل السر في تدبره، وعقله، وفهمه، واتباعه، وتحكيمه، والاهتداء بهديه، والتخلق بأخلاقه[١].

١٥ ـ الأحداث التي تمر بالأمة:

فالأحداث الجسام التي تمر بالأمة هي مما يبعث الهمم، ويوقظ العزائم؛ لأن تلك الأحداث بمثابة جرس الإنذار، وناقوس الخطر الذي يؤذن بهلاك الأمة وفنائها.

فإذا رأت الأمة ما هي عليه من الضعف، والتردي، وتسلط الأعداء ـ بدأت في التفكير السليم، والعمل الجاد، الذي ترد به المعتدي، وتستعيد به عزها ومجدها.

وإذا استعرضنا تاريخ الأمة السالف ـ وجدنا أن الأحداث الجسام التي مرت بالأمة كانت من أعظم الأسباب لحفز الهمم، وإيقاظ العزائم، والتي كان نتيجتها أن ظهر في تلك الأثناء أبطال مجاهدون، وعلماء عاملون، خلد التاريخ ذكرهم، وأحيا مآثرهم.

فعندما قام الصليبيون بما قاموا به من فساد ودمار في بلاد الإسلام إبان الحروب الصليبية ـ خرج من أمثال ابن قدامة في العلم، وعماد الدين زنكي، ونور الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي في الجهاد ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ.

فجمع الله بهم شمل الأمة، ورد كيد المعتدي، وطهر الأرض من رجسه.

---

(١) انظر آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ١/٨٨ ـ ٩٣ و٢٥٢ ـ ٢٥٣، و٢٩٨.

وعندما أغار التتار على بلاد الإسلام وفعلوا ما فعلوا في عاصمة الخلافة بغداد ـ خرج على أنقاض تلك الغارة الشعواء علماء عاملون مجاهدون، جددوا لهذه الأمة أمر دينها جدالاً باللسان، وجلاداً بالسيف والسنان.

وذلك من أمثال شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلاميذه كابن القيم والذهبي، وابن كثير، وغيرهم ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ.

وعندما غشت الديارَ النجديةَ غواشي الشرك والبدع وذلك في القرن الثاني عشر وما قبله ـ خرج في ذلك الجو المظلم شيخ الإسلام، ومجدد الدين في عصره، الإمام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمة الله عليه ـ فقام لله، ورفع عقيرته داعياً لتوحيد الله، حتى أظهر الله على يديه السنة، وقمع به ضلالات الشرك والبدعة.

وفي هذا العصر الحديث عندما أتى الاحتلال بشقيه العسكري، والفكري، ورام القضاء على الأمة حتى لا تقوم لها قائمة، وظن أنه قد نجح في خطته، وتحقق له ما يصبو إليه ـ خرجت تلك الصحوة المباركة، التي فاح شذاها، وضاع عبيرها في شتى بقاع المعمورة.

فهذه الأحداث وغيرها تؤثر تأثيراً بالغاً في الأمة أفراداً وجماعات.

١٦ ـ المواقف التي تمر بالإنسان:

فكما أن الأحداث والمواقف التي تمر بالأمة تكون سبباً من أسباب علو الهمة ـ فكذلك الفرد نفسه إذا مرت به أحداث ومواقف، وتقلبات في حياته، من محن، وبلايا وغير ذلك ـ فإنها تؤثر فيه، وتترك أثرها في نفسه، وقد تكون سبباً لنهوضه ورفعته؛ ذلك أن للهمم خموداً، وللعزائم فترةً، ولا يتيقظ من فترتها إلا من استفزته صروف الحوادث، وأَرَتْـهُ كيف يرقى أناس إلى مكانة العز، وينحط آخرون إلى وهدة السقوط، ولا تفعل ذلك إلا بمن أدركت منه رمق حياة لم يزل نبضها خافقاً.

أما من جف طبعه، وسكنت إحساساته حتى التحق عند أولي البصائر ببهيمة الأنعام ـ فلا يحس لها وجبة[١]، ولا يسمع لها ركزاً[٢].

ولهذا كان امرؤ القيس في حياة والده ـ شابًّا لاهياً، عابثاً، همُّه ملاحقة النساء، وتشرابُ الخمور؛ إذ كان ينعم بطيب العيش تحت ملك والده.

وعندما قُتِل والده، وزال الملك الذي تحت يديه ـ أثَّر به ذلك الموقف أيما تأثير، فاستيقظ من رقدته، وهب من سباته، وأعلى من همته، وترك شرب الخمر، وبدأ يسعى في استعادة ملك أبيه.

فبعد أن كان يقول:

لنا غنم نُسَوِّقُها غِزارٌ ... كأن قرون جلتها العصيُّ
فتملىء بيتنا إقطاً وسمناً ... وحسبك من غنى شبعٌ وريُّ[٣]

أصبح يقول: «لا صحو اليوم، ولا سكر غداً، اليوم خمر، وغداً أمر.

وآلى على نفسه ألا يأكل لحماً، ولا يشرب خمراً، ولا يدَّهن بدهن، ولا يصيب امرأة، ولا يغسل رأسه ـ حتى يقتل من بني أسد مائة، ويجزَّ نواصي مائة، بثأر أبيه»[٤].

وأصبح يقول من أمثال قوله:

فلو أنما أسعى لأدنى معيشةٍ ... كفاني ـ ولم أطلب ـ قليلٌ من المال
ولكنما أسعى لمجدٍ مُؤَثَّلٍ ... وقد يدرك المجدَ المؤثَّلَ أمثالي[٥]

فقوله: ولم أطلب جملة اعترض بها بَيْنَ الفعل (كفاني) وفاعله (قليل).

---

(١) الوجبة: الحركة والاضطراب.
(٢) انظر السعادة العظمى ص ٦٤.
(٣) ديوان امرئ القيس ص ١٧١.
(٤) ديوان امرئ القيس ص ٨.
(٥) ديوان امرئ القيس ص ١٢٩.

وفائدتها تحقير شأن المعيشة، وتبرئة سعيه أن ينضي الطلب إلى ما هو أدنى؛ فإنها مما يحصل بغير طلب ولا عناء.

وإنما الذي يحتاج إلى الطلب هو المجد المؤثل، ولا يدركه إلا عظماء الرجال[١].

١٧ـ التجافي عن الترف والنعيم:

ذلك أن التقلب في الترف، والإغراق في النعيم ـ يعد من أعظم الشواغل والقواطع، التي تشغل صاحبها عن تَطَلُّب الكمال، وتَقْطعُ عليه طريق المجد والسؤدد، ثم إن الإغراق في النعيم ينبت في نفس صاحبه أخلاقاً مرذولة من نحو الجبن، والخور، وقلة الأمانة، والإمساك في وجوه الخير.

وذلك مما يورثه ضعف الهمة، وحقارة الشأن.

فإذا تجافى المرء عن الترف والنعيم ـ دل ذلك على كبر نفسه، وعلو همته.

وذلك التجافي مما يعين على بلوغ العز، واكتساب الهمة العالية، كما قيل:

فمن هجر اللذات نال المنى ومن ... أكبَّ على اللذات عضَّ على اليد[٢]

ولهذا جرت العادة أن من ينغمس في النعيم، ويغرق في الترف ـ يكون أشد الناس كراهة للحروب، وأقلَّهم نبوغاً في العلم، وأبعدهم عن معاناة المشاق، وتحمل المصاعب.

«فإذا أنبتت بيئات الترف فتى يزدري النعيم والزينة، ويطمح بهمته إلى الشرف الصميم ـ كان فضله في الشجاعة أظهر، وإقدامه أدعى للإعجاب؛ ولذلك ترى الأدباء إذا أرادوا أن يجعلوا إعجابك بشجاعة الممدوح أبلغ ـ

(١) انظر الحرية في الإسلام ص ١٠.
(٢) الآداب الشرعية ٣/ ٥٨٨.

أشاروا إلى أن النعمة والزينة لا تذهب برجوليته، ولا تقعد به عن حماية الشرف والكرامة»[١].

قال الحطيئة يمدح سعيد بن العاص:

إذا هَمَّ بالأعداء لم تَثْنِ عزمَه ... كعابٌ عليها لؤلؤٌ وشنوفُ[٢]
حَصَانٌ[٣] لها في البيت زيٌّ وبهجةٌ ... ومشيٌ كما تمشي القطاة كتيفُ[٤][٥]

ولقد حدثنا التاريخ عن أفراد نشأوا في بيوت توافرت فيها وسائل الرفاهية، ومع ذلك لم يكونوا بحال المترفين السادرين.

بل نشأوا وقد عظم في نفوسهم الطموح إلى معالي الأمور، فاحتقروا ما يسمى لذاتٍ حسيةً، وإن كانت طوع أيمانهم وشمائلهم، وأقبلوا على العلم أو على ضرب آخر من ضروب السيادة فأدركوا فيه غاية قصوى.

فهذا عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ قد نشأ في بيت إمارة، وحينما تولى الخلافة استطاع بما وهبه الله من الحكمة، والروية، ألا يقيم للزينة والأطعمة الفاخرة وزناً، فعاش عيشة الكفاف، وخزائن الأرض طوع يمينه.

ولما تجافى عن الترف والنعيم مع أنه يعيش في بحبوحته ـ دل ذلك على سمو نفسه، وعلو همته؛ فلذلك كان صيته أذكر، وشأنه أشهر، وتوفي وقد أبقى سيرةً غراء، وذكراً أطيب من ريح المسك[٦].

---

(١) رسائل الإصلاح ١/ ٨١.
(٢) الشنوف: مفردها الشنف وهو القرط الأعلى.
(٣) الحصان: العفيفة.
(٤) قوله: كما تمشي القطاة كتيف، يعني أنها قليلة المشي، مقاربة الخطو، ليست كمن اعتاد السير، والمعنى أن الممدوح إذا أراد الغزو فنهته امرأته عن ذلك مضى إلى سبيله ولم يلتفت إلى نهيها.
(٥) انظر ديوان الحطيئة ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨.
(٦) انظر سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم نسخها وصححها وعلق عليها أحمد عبيد، وانظر الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبدالعزيز الخليفة الخائف الخاشع =

وقل مثل ذلك في شأن ابنه عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز الذي كملت مروءته، وتناهى سؤدده، فكان مضرب المثل في العلم، والحلم، والشجاعة، والزهد، والعبادة مع أنه توفي وهو في التاسعة عشرة من عمره ـ رحمه الله ـ.

ولم يكن ذلك ليتم ـ بعد توفيق الله ـ إلا لأنه تجافى عن الترف والنعيم، وآثر الجد ومعالي الأمور[١].

وكذلك الحال بالنسبة للإمام أبي محمد ابن حزم ـ رحمه الله ـ فلقد نشأ في بيت وزارة في الأندلس، وتولى هو نفسه الوزارة، ثم نفض يده، وانقطع للازدياد من العلم، حتى ارتقى إلى طبقة كبار العلماء بنظر مستقل، وقلم بارع[٢].

١٨ ـ التوازن، وإعطاء كل ذي حق حقّه:

فهذا مما يعين على أداء المسؤولية، وتحمل التبعة، وأداء الحقوق، والسلامة من اللوم والتعذال.

وهذا بدوره يعين الإنسان على تحقيق ما يرومه ويصبو إليه، كما أنه دليل على حزمه، ووعيه، وحكمته؛ فقوة الشخصية تبدو في القدرة على الموازنة بين الحقوق، والملائمة بين الواجبات، التي قد تتعارض أمام بعض الناس.

فالعاقل الحازم يستطيع أن يعطي كل ذي حقٍّ حقه دون أن يلحق جوراً بأحد.

= لعمر بن محمد الخضر، المعروف بالملاء، تحقيق د. محمد صدقي البورنو، وانظر ترجمة عمر بن عبدالعزيز في صفة الصفوة لابن الجوزي، وسير أعلام النبلاء للذهبي، ومحاضرات إسلامية ص ١٤٣

(١) انظر سيرة عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز لابن رجب الحنبلي تحقيق عفت وصال حمزة.

(٢) انظر محاضرات إسلامية ص ١٤٤.

ومن عظمة هذه الشريعة أنها جاءت بأحكام توازن بين شتى العوامل والدوافع والحوافز؛ فللوالدين حقوق، وللزوج حقوق، ولسائر الناس حقوق، وهذه الحقوق قد تختلف من حال إلى حال، ومن شخص إلى شخص، وهكذا[١]...

١٩- استشارة العقلاء العاملين، والحذر من استشارة الحمقى والقاعدين:

فالشورى أمرها عظيم، وشأنها جلل؛ فلقد نوَّه الله -عز وجل- بذكرها، وأثنى على المؤمنين بقيامهم بها، فقال -سبحانه وتعالى-: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾. [الشورى: ٣٨].

وأمر نبيه -صلى الله عليه وسلم- مع وفور عقله، وسداد رأيه، وعلو مكانته- أن يأخذ بالشورى، قال -عز وجل-: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾. [آل عمران: ١٥٩].

ولهذا كان -عليه الصلاة والسلام- كثير المشاورة لأصحابه[٢].

فالعاقل اللبيب، ذو الهمة العالية، والنظرة الثاقبة- لا يستبد برأيه، ولا يعتد بنفسه بحيث يقوده ذلك إلى ترك المشورة.

بل إنه يشاور أهل العقول السليمة، والتجارب السالفة، ممن يجمعون بين العلم والعمل، والنصح والديانة.

فبالشورى تُشحذ القريحة، وتتلاقح الفِكَرُ، وتنمَّى المعارف، وتُقوَّى الأواصر بين المتشاورين.

والشورى تنفي عن العبد الغرور، والإعجاب بالنفس، وتفتح له الأبواب، وتزيل عنه الحيرة والاضطراب.

---

(١) انظر: نظرات في الأسرة المسلمة ص ١٠١.
(٢) انظر الرياض الناضرة ص ٥٩.

قال أمير المؤمنين علي ـ رضي الله عنه ـ: «نعم المؤازرة المشاورة، وبئس الاستعداد الاستبداد»[١].

وقال بشار بن برد:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضةً ... فإن الخوافي قوةٌ للقوادم[٢]

أما ترك الشورى، أو استشارة الحمقى ـ فدليل الغرور، وآية الجهل.

وكذلك استشارة القاعدين؛ فإنها تورث الكسل والتخذيل؛ لأن القاعد لن يتصور الأمور كما ينبغي، ولن يجد في نفسه انبعاثاً للمعالي؛ ففاقد الشيء لا يعطيه.

٢٠ـ قبول النقد البناء، والنصيحة الهادفة:

فالنقد، والنصيحة إذا صدرا من ناقد بصير، أو ناصح أمين، أراد بنقده البناء، ورام بنصحه الخير ـ كان جديراً بمن توجه إليه ذلك أن يأخذ به، ويشرح صدره له، وأن يتقبله بقبول حسن؛ فذلك مما يدل على كرم النفس، وسعة الأفق، وعلو الشأن.

وهو في الوقت نفسه سبب لعلو الهمة، وارتفاع المنزلة، وتناهي الفضل، والترقي في مراتب الكمال.

بل ينبغي لمتطلب الكمال ـ خصوصاً إذا كان رأساً مطاعاً ـ أن يتقدم إلى خواصه وثقاته، ومَنْ كان يسكن إلى عقله من خدمة وحاشيته ـ فيأمرهم أن يتفقدوا عيوبه ونقائصه، ويطلعوه عليها، ويعلموه بها؛ فهذا مما يبعثه إلى التنزه من العيوب، والتطهر من دنسها، وهذا مما يؤهله لعليا المراتب، والسير قدماً في درجها.

بل ينبغي له أن يتلقى من يهدي إليه شيئاً من عيوبه بالبشر والقبول، وأن

---

(١) أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٣٠٠.

(٢) ديوان بشار بن برد ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

يظهر له الفرح والسرور بما أطلعه عليه.

بل المستحسن أن يجيز الذي يوقفه على عيوبه أكثر مما يجيز المادح على المدح؛ فإنه إذا لزم هذه الطريقة وعرف بها أسرع خواصه وأصحابه إلى تنبيهه على عيوبه.

وإذا نبه على ما فيه من النقص أنف من ذلك النقص، واستشعر قبحه، وأن الناس سيعيرونه به، ويصغرونه من أجله؛ فيلزمه حينئذٍ أن يأخذ نفسه بالتنزه من العيوب، ويقهرها على التخلص منها؛[1] فإصلاح النفس لا يتم بتجاهل عيوبها، ولا بإلقاء الستار عليها[2].

قال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ لمولاه مزاحم: «إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيني على نفسي؛ فإن سمعت مني كلمة تربأُ بي عنها، أو أفعالاً لا تحبها ـ فعِظني عنده، وانهني عنه»[3].

٢١ ـ حسن النية وإخلاص العمل:

ومدار الإخلاص على أن يكون الباعث على العمل أولاً امتثال أمر الله، ولا حرج على من يطمح بعد هذا إلى شيء آخر، كالفوز بنعيم الآخرة، أو النجاة من أليم عذابها.

بل لا يذهب بالإخلاص بعد ابتغاء وجه الله أن يخطر في باله أن للعمل الصالح آثاراً طيبة في هذه الحياة الدنيا، كطمأنينة النفس، وأمنها من المخاوف، وصيانتها من مواقف الهُون، إلى غير هذا من الخيرات التي تعقب العمل الصالح، ويزداد بها إقبال النفوس على الطاعات قوة إلى قوة.

هذا وإن لحسن النية، وإخلاص العمل تأثيراً عظيماً في علو الهمة؛

---

(١) انظر تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٦٠-٦١.
(٢) انظر أقوال مأثورة ص ٤٥٥.
(٣) عيون الأخبار ٢/١٨.

فمن تعكست عليه أموره، وتضايقت عليه مقاصده ـ فليعلم أنه بذنبه أصيب، وبعدم إخلاصه عوقب[١].

فالإخلاص يرفع شأن الأعمال، حتى تكون مراقي للفلاح، وهو الذي يحمل الإنسان على مواصلة عمل الخير، فمن يصلي؛ رياءً أو حياءً من الناس لابد أن تمرَّ عليه أوقاتٌ لا ينهض فيها إلى صلاة.

ومن يحكم بالعدل؛ ابتغاء السمعة، أو خوف العزل قد تَعْرِضُ له منفعةٌ يراها ألذَّ من السمعة، أو قد يأمن العزل ـ فلا يبالي أن يدع العدل جانباً.

ومن يفعل المعروف؛ لِتُرَدِّدَ ذِكْرَهُ الألسنةُ في المجالس أو الصحف قد يرى بعينه سبيلاً من سبل الخير في حاجة إلى مؤازرة، ولكنه لا يرى بجانبه لساناً أو قلماً شأنهُ إطراءُ المؤازرين، فيصرف عنه وجهه، وهو يستطيع أن يمد إليه يده، ويسد حاجته.

ثم إن الإخلاص يجعل في عزم الرجل متانة، ويربط على قلبه، فيمضي في عمله إلى أن يبلغ الغاية.

وكثير من المشروعات لايساعدك على العمل لتذليلها إلا الإخلاص.

ولولا الإخلاص يضعه الله في نفوس زاكيات ـ لحرم الناس من خيرات كثيرة تقف دونها عقبات.

فالإخلاص يمد جأش[٢] صاحبه بقوة، فلا يتباطأ أن ينهض للدفاع عن الحق، ولا يبالي بما يلاقيه في ذلك السبيل.

والإخلاص يشرح صدر صاحبه للإنفاق في وجوه البر، فتراه يؤثرها بجانب من ماله، وإن كان به خصاصة.

والإخلاص يعلم صاحبه الزهد في عرض الدنيا، فلا يُخشى منه أن

(١) انظر أدب الطلب ص ١٣٣، وانظر تذكرة السامع والمتكلم ص ٦٨ ـ ٧٠.
(٢) الجأش: القلب.

يناوىء الحق، أو يلبسه بشيء من الباطل، ولو أمطر عليه أشياع الباطل فضة أو ذهباً.

والإخلاص يحمل القاضي على تحقيق النظر في القضايا، فلا يفصل في قضية إلا بعد أن يتبين له الحق.

والإخلاص يوحي إلى الأستاذ أن يبذل جهده في إيضاح المسائل، وألا يبخل على الطلاب بما تَسَعُه أفهامُهم من المباحث المفيدة، وأن يسلك في تدريسهم الأساليب التي تجدد نشاطهم للتلقي عنه.

والإخلاص يصون التاجر عن أن يخون الذي يأتمنه في صنف البضاعة أو قيمتها؛ ويحمل الصانع على إتقان عمله حسب الطاقة.

والإخلاص يردع قلم الكاتب عن أن يقلب بعض الحقائق أو يكسوها لوناً غير لونها؛ إرضاءً لشخص أو طائفة.

فإذا كان للإخلاص هذه المآثر العظيمة فحقيق بنا أن نربي أنفسنا ونَشْأنا على أن يكونوا مخلصين فيما يقولون أو يفعلون، وأن نستحضر ما يناله المخلص من حمد وكرامة، وحسن عاقبة؛ لكي نخرج للناس رجالاً يقومون بالعمل الذي يتولونه بحزم وإتقان[1].

٢٢ ـ عزة النفس:

فعزة النفس تعني الارتفاع عن مواضع المهانة، ويقابلها الضعة، وهي انحدار النفس في المهانة[2].

فعزيز النفس لا يريق ماء وجهه، ولا يبذل عرضه فيما يدنسه، فيبقى موفور الكرامة، مرتاح الضمير، مرفوع الرأس، شامخ العرنين، سالماً من ألم الهوان، متحرراً من رق الأهواء ومن ذل الطمع، لا يسير إلا وفق ما يمليه عليه إيمانُه، والحقُّ الذي يحمله ويدعو إليه؛ فعزة النفس من كبر

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/ ٩ ـ ١٢.
(٢) انظر رسائل الإصلاح ١/ ١٢٤ ـ ١٢٥.

الهمة، «وكبر الهمة يعقد الألسنة عن الانطلاق في مجاري التملق والمداهنة»[١]

ولهذا تجد أن أشد الناس عزماً ومضاءاً هو أنزههم نفساً، وأبعدهم عن الطمع وجهة.

قال الثعالبي: «ومن أحسن ما سمعت في القناعة قول ابن طباطبا العلوي:

كـن بمـا أوتيتـه مقتنعـاً ... تَسْتَدِمْ عسر القنوع المكتفي
إن في نيلِ المنى وَشْكَ الردى ... وهلاك المرء في ذا السرفِ[٢]

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ:

أَمَتُّ مطامعي فأرحت نفسي ... فإن النفس ما طمعت تهون
وأحييت القنوع وكان ميتاً ... ففي إحيائه عرضٌ مصون
إذا طمعٌ يَحِلُّ بقلب عبد ... عَلَتْه مهانة وعلاه هون[٣]

وقال:

رأيت القناعةَ كنز الفتى ... فصرت بأذيالها ممتسك
فلا ذا يراني على بابه ... ولا ذا يراني به منهمك
وصرت غنيّاً بلا درهم ... أَمُرُّ على الناس شبه الملك[٤]

ومما ينسب لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قوله:

أفادتني القناعةُ كلَّ عزٍّ ... وهل عزٌّ أعزُّ من القناعةْ
فَصَيِّرْها لنفسك رأسَ مالٍ ... وصيِّرْ بعدها التقوى بضاعةْ
تحُز ربحاً وتغنى عن بخيل ... وتنعم بالجنان بصبر ساعةْ[٥]

---

(١) حياة الأمة ص ٣١.
(٢) أحسن ما سمعت ص ٢٢.
(٣) ديوان الشافعي ص ٨٥.
(٤) ديوان الشافعي ص ٢٧.
(٥) ديوان الإمام علي ص ١٢١ ـ ١٢٢.

وأنشد ثعلب:

من عفَّ خفَّ على الصديق لقاؤه   وأخو الحوائج وجهه مبذول
وأخوك مَنْ وفَّرت ما في كيسه   فإذا استعنت به فأنت ثقيل[١]

ثم إن عزة النفس تلقى على صاحبها مهابة ووقاراً في العيون، وتحرز له جلالة ومكانة في القلوب، وذلك مما تنشرح له صدور العظماء.

وإنما عيب الرجل في أن يجعل هذه المكانة غايته المنشودة، أو أن يتخذها حبالةً لاصطياد مآرب لا يتعداه نفعها.

ولهذه الخصلة ـ كذلك ـ آثار صالحة في الاجتماع؛ فإن الأمة التي تُشْرَبُ في نفوسها العزة يشتد فيها الحرص على أن تكون مستقلة بشؤونها، غنية عن أمم من غيرها، وتبالغ في الحذر في أن تقع في يد مَنْ يطعن في نحر كرامتها، ولا يستحيي الإنسانية أن تراه مهتضماً لحق من حقوقها[٢].

ولئن كانت عزة النفس جميلةً رائعة فَلَهِيَ من أهل العلم أجمل وأروع.

ولئن كانت مرغوبةً مطلوبةً من كل أحد فلهي من أهل العلم أولى وأحرى.

فأكرم بمن رفعه العلمُ فرفع العلمَ، فصار عوداً مرّاً، ومكسراً صلباً، لا تلين له في نصرة الحق قناة، ولا يفت له عضد، يقف للمبطلين موقف الشجى بين الحلق والوريد، فيصارعهم بالحجة، ويفلجهم بالبينة.

وأجدر بذي العلم أن يكون ذا نفس عزيزة زكية، وساحة طاهرة نقية؛ حتى لا يكون الخلل حائلاً بينه وبين هداية الناس[٣].

ورحم الله القاضي علي بن عبدالعزيز الجرجاني؛ إذ يقول في عزة أهل العلم:

---

(١) عين الأدب والسياسة لعبد الرحمن بن هذيل ص ١٣٧.
(٢) انظر رسائل الإصلاح ١/ ١٢٥ ـ ١٢٦.
(٣) انظر السعادة العظمى ص ٢٠٩ ـ ٢١٢ وحياة الأمة ص ٣١ ـ ٣٢.

يقولون لي فيك انقباضٌ وإنما رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهم هان عندهم ومن أَكْرَمَتْهُ عزةُ النفس أُكرما
ولم أقضِ حقَّ العلمِ إن كان كلما بدا طمعٌ صيَّرْته لي سُلَّما
وما كلُّ برقٍ لاح لي يسْتفزُّني ولا كل من لاقيت أرضاه منعما
إذا قيل: هذا منهلٌ قلت قد أرى ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمل الظما
أُنَهْنِهُهَا عن بعض ما لا يشينها مخافة أقوال العدا فِيمَ أَوْلِما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجْنِيهِ ذلةً؟! إذاً فاتِّباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظَّموه في النفوس لَعَظَّما
ولكنْ أهانوه فهانوا ودنَّسوا محياه بالأطماع حتى تجهما[1]

وصفوة المقال في عزة النفس أنها ترجع إلى معرفة المرء قيمةَ نفسه؛ فلا يوردها إلا الموارد التي تليق بها؛ فيشعر بكرامة نفسه، ويشعرها بما لها من حقوق، فلا يسمح لمخلوق كائناً من كان أن ينال منها مثقال ذرة، كما يشعر بما عليه من واجبات، فلا يسمح لنفسه أن يعتدي على حقوق الناس مثقال ذرة أيضاً.

وهي بمعناها الدقيق احترام نفسك من غير احتقار لأحد، وأن تقف موقفاً له جانبان: فإن نظرت إلى من هو أعلى منك في المنصب والجاه ونحو ذلك؛ فلا تُمَكِّنْهُ أن ينال من نفسك ولو ذرة، ولا أن يتعدى حدوده ولو شعرة.

وإذا نظرت إلى من هو أسفل منك فلا تتعدى حدودك، وإذا شعرت باستخذائه وذلته فارفع مستواه ما استطعت حتى يصل إلى الحدود[2].

---

(١) أدب الدنيا والدين، والبداية والنهاية لابن كثير ١١/٣٥٥، وخاص الخاص ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٢) انظر فيض الخاطر ٢/١٤٧ و١٤٩.

٢٣ ـ السخاء:

فالسخاء يقوم على الشعور بأن للمال قيمةً تستدعي عدم الإسراف في إنفاقه؛ وأن للحياة الفاضلة مطالب يُبذل المال في سبيلها غير مأسوف عليه؛ فهو بذل ما ينبغي في الوجه الذي ينبغي الإنفاق فيه.

فمن أطلق يده في اتباع الشهوات فهو مسرف، ومن قبضها عن الإنفاق في وجوه الخير فهو بخيل، أما السخاء فكان بين ذلك قواماً.

وبما أن السخاء يقوم على الرحمة، وقلة الحرص على جمع المال ـ كان متصلاً بفضائل أخرى تعد من مقومات الهمة العالية، ومن مظاهرها الجلية؛ فالسخي في أغلب أحواله يأخذ بالعفو، ويتحلى بالحلم، ويجري في معاملاته على الإنصاف، فيؤدي حقوق الناس من تلقاء نفسه، وإذا قضى كان عادلاً، فلا تطمح نفسه إلى رشوة، ولا تحدثه أن يأخذ حقَّ ضعيف إلى قوي.

ولتجدنَّ السخيَّ بحق متواضعاً، لا يطيش به كبر، ولا تستَخِفُّه الخيلاءُ، ولتجدنَّه أقرب الناس إلى الشجاعة وعزة النفس؛ وإنما يخسر الإنسان الشجاعة والعزة بشدة حرصه على متاع الحياة الدنيا.

قال أبو الطيب:

فأَحْسَنُ وجهٍ في الورى وجهُ مُحْسِنٍ وأيمـن كـفٌّ فيهـم كـفُّ مُنْعِـمِ[1]

أما البخيل فلفراغ قلبه من الرحمة، ولقلة اهتمامه بأن يكون له ذكر جميل، ولحرصه على جمع المال حرصاً يعمي ويُصمُّ ـ تجده قد فقد كثيراً مـن المكارم، وجمـع إلى الشـح كثيراً من الرذائـل، كما قال عـمرو ابن الأهتم:

(١) ديوان المتنبي ٤/١٤١.

ذرينـي فـإن البخـل يـا أمَّ هيثـمٍ   لصالح أخلاق الرجال سروق[١]

فإذا اتصف المرء بالسخاء زكت نفسه، ولانت عريكته، وقاده سخاؤه إلى أن يترقي في المكارم، وأن يتطهر من المساوىء والمعايب؛ فالسخي قريب من كل خير وبر.

قال الرافعي ـ رحمه الله ـ: «فمن ألزم نفسه الجود والإنفاق راضها رياضةً عملية كرياضة العضل بأثقال الحديد، ومعاناة القوة في الصراع ونحوه.

أما الشح فلا يناقض تلك الطبيعة، ولكنه يَدُعها جامدة مستعصية، لا تلين، ولا تستجيب، ولا تتيسَّر»[٢].

ولقد جرت سنة الله بأن السخي بحق يفوز بالحياة الطيبة، ولا تكون عاقبته إلا الرعاية من الله والكرامة؛ فلما كان السخي رحيماً بالفقراء والمساكين والمحتاجين، حريصاً على إسعادهم وإدخال السرور والبهجة في نفوسهم ـ كان جزاؤه من جنس عمله[٣].

أثر السخاء في سيادة الأمة:[٤]

للسخاء أثر في سيادة الأمة؛ فالأمة تبلغ القدر الأسمى من السيادة بحفظ دينها، وسعة معارفها، وسمو أخلاقها، وصيانة أعراضها، ونباهة ذكرها، ومتانة اتحادها، وحماية أوطانها.

وكل هذه المقاصد الرفيعة الشأن ـ إنما تتحقق بالمال الذي يبذله الأسخياء من الناس.

---

(١) شعر الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، دراسة وتحقيق د. سعود عبدالجابر ص ٩٢.

(٢) وحي القلم ٣/ ١٤.

(٣) انظر الهداية الإسلامية ص ٨٤ ـ ٨٩.

(٤) انظر الهداية الإسلامية ص ٨٩ ـ ٩٢.

فللسخاء أثر في حفظ الدين؛ فالمساجد التي تقام فيها الصلوات، والمدارس التي تدرس فيها علوم الدين ووسائلُها، والجمعيات التي ترشد بمحاضراتها ومجلاتها إلى حقائق الدين، وتدعو إلى التمسك بعروته الوثقى، والمحاكم التي تُنْصَبُ للعدل بين الناس وتحكم بشريعة الإسلام الغراء ـ كل ذلك معدود من مآثر السخاء.

وللسخاء أثر عظيم في تنمية العلوم، وسعة المعارف، وذلك من خلال ما تجود به النفوس الكريمة من أموال تصرف في إنشاء مدارس للتعليم، أو طبع كتب قيِّمة، أو عقد مسابقات لتحقيق بحث علمي أو أدبي.

وللسخاء أثر في نبل الأخلاق وسلامتها من جهة أنه يحفظ الدين، وينمي العلوم.

وبحفظ الدين، ونمو العلوم ترتفع الأخلاق، وتبلغ الذروة في كمالها.

وللسخاء أثر في إنقاذ كثير من الناس من عوز الفقر، الذي قد ينجرف بهم إلى فساد الأخلاق، وضيعة الآداب.

وللسخاء أثر في صيانة الأعراض؛ ذلك أن الكريم يبذل المال لذي الحاجة، فيصون وجهه من الابتذال بالسؤالِ، والسؤالُ يزري بصاحبه، ويجعله عرضة للوقيعة فيه.

ثم إن الأسخياء يصونون أعراضهم بما يسدُّون به أفواه أناس لولا عطاؤهم لأطلقوا ألسنتهم بذمهم وهجائهم، ولاختلقوا لهم معايب وهم منها براء.

قال بعض الشعراء:

وما خير مالٍ لا يقي الذمَّ ربَّه ... ونفس امرئٍ في حقها لا يهينها[1]

وقال المثقِّب العبدي:

لا يبالي طيبُ النفس به ... تلَفَ المال إذا العرض سَلِمْ

---

(١) عيون الأخبار ١/ ٣٤٠.

أجعل المال لِعِرْضي جُنَّةً ... إن خير المال ما أوفى الذِّمَمْ[1]

وقال حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ:

أصون عرضي بمالي لا أدنسه ... لا بارك الله بعد العرض بالمال[2]

وقال الشافعي: ـ رحمه الله ـ:

وعداوة الشعراء داء معضل ... ولقد يهون على الكريم علاجه[3]

ولهذا فالبخلاء كثيراً ما يكونون عرضة للهجاء، بل إن أكثر مادة للهجاء في الجاهلية هي البخل والبخلاء؛ فإذا هجي الرجل سارت الركبان بذمه وعيبه.

قال الثعالبي: «قال بعض الرواة: أهجى بيت للعرب قول الأعشى:

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم ... وجاراتكم غرثى يَبِتْنَ خمائصا[4]

ولهذا كان جرير يتألم كثيراً من قول الأخطل:

قوم إذا استنبح الأضيافُ كَلْبَهُمُ ... قالوا لأُمِّهِمُ بولي على النار[5]

وللسخاء أثر في نباهة الذِّكرِ بعد سلامة العرض؛ فإن الفضائل ـ والسخاء في مقدمتها ـ تطلق الألسنة بالثناءِ، والثناءُ الصادق من النعم التي تقابل بالارتياح والشكر.

قال عمرو بن الأهتم:

وإن المجد أوَّله وَعَورٌ ... ومصدر غِبِّه كرمٌ وَخِيرُ[6]

وإنك لن تنال المجد حتى ... تجودَ بما يَضَنُّ به الضمير

---

(١) المفضليات ص ٢٩٤.

(٢) ديوان حسان بن ثابت ص ١٩٢.

(٣) ديوان الشافعي ص ٣٤ تحقيق الزعبي.

(٤) أحسن ما سمعت للثعالبي ص ١٣٠.

(٥) ديوان الأخطل ص ١٦٦.

(٦) الخِير: الشرف.

بنفسـك أو بمـالـك فـي أمـور   يهاب ركوبها الوَرِعُ[١] الدَّثور[٢]

وكان خالد بن عبدالله القسري يقول: «تنافسوا في المغانم، وسارعوا إلى المكارم، واكتسبوا بالجود حمداً، ولا تكتسبوا بالمال ذمَّاً، ولا تَعِدوا بمعروف ولم تعجلوه، واعلموا أن حوائج الناس نعمةٌ من الله عليكم، فلا تملوها فتعودَ نِقَماً»[٣].

وقال ابن حبان البستي ـ رحمه الله ـ: «فالواجب على العاقل إذا أمكنه الله من حطام هذه الدنيا الفانية، وعلم زوالها عنه، وانقلابها إلى غيره، وأنه لا ينفعه في الآخرة إلا ما قدم من الأعمال الصالحة ـ أن يبلغ مجهوده في أداء الحقوق من ماله، والقيام بالواجب في أسبابه، مبتغياً بذلك الثواب في العقبى، والذكر الجميل في الدنيا؛ إذ السخاء محبة ومحمدة، كما أن البخل مذمة ومبغضة، ولا خير في المال إلا مع الجود»[٤].

ثم إن للسخاء أثراً في ستر العيوب وإن كثرت، قال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

وإن كثـرت عيـوبُـك فـي البـرايـا   وسَـرَّكَ أن يكـون لهـا غطـاء
تَسَتَّـرْ بـالسخـاء فكـلُّ عيـبٍ   يُغَطِّيـه كمـا قيـل السخـاء[٥]

وللسخاء أثر في ائتلاف القلوب، وتأكيد رابطة الإخاء؛ ذلك أنه يبذر محبة المحسنين في قلوب ذوي الحاجات.

ثم إن من وجوه السخاء صرفَ المال في نحو ضيافة أو هدية ولو لغير ذي حاجة.

---

(١) الورع: المتحرج، الدثور: الخامل النؤوم.
(٢) المفضليات ص ٤١٠.
(٣) اتحاف النبلاء بأخبار وأشعار الكرماء والبخلاء لابن المبرد الحنبلي تحقيق يسري البشري ص ٦٠.
(٤) روضة العقلاء ص ٢٣٥.
(٥) ديوان الشافعي ص ١٦ تحقيق الزعبي.

وهذا مما يذهب بالجفوة، ويجعل القلب من القلب قريباً.

بل إنه يقضي على كثير من الأخلاق المرذولة، والتي من شأنها أن تفتك بالجماعة وتقضي على وحدتها، كرذيلتي الحسد والكبر؛ فالكبر من ذوي اليسار، والحسد من ذوي الحاجة والفاقة.

فبالسخاء يتواضع ذوو اليسار، وبه يزول الحسد من ذوي الحاجات.

أما أثر السخاء في حماية الأوطان فإن إعداد وسائل الدفاع إنما يكون بالمال، وعلى قدر سخاء الأمة يكون الاستعداد.

وسخاء الأمة في سبيل الدفاع يأتي على حسب شعورها بالكارثة التي تقع فيها إذا هي تركت الدفاع.

هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الإمساك عن الإنفاق في سبيل دفع العدو إلقاءٌ باليد إلى التهلكة، فقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وكما يسخو المرء بماله في سبيل مجاهدة الأعداء فكذلك يسخو بسلاحه، فيقول:

لئن لم أكن فيكم خطيباً فإنني ... بسيفي إذا جدَّ الوغى لَخطيبُ[١]

وكما يسخو بسلاحه يسخو كذلك بقلمه فيقول:

ولي قلمٌ في أنملي إن هَزَزْتُه ... فما ضرني ألا أَهُزَّ المهندا[٢]

من صور السخاء:[٣] ومما ينبغي أن يعلم أن السخاء ليس مقتصراً على بذل المال فحسب، بل إن مفهومه أوسع، وصوره أعمُّ وأشمل:

أ ـ فيدخل في قبيل الأسخياء من يكون له دين على آخر فيطرحه عنه، ويخلي ذمته منه، وهو يستطيع الوصول إليه دون عناء ولا تعب.

«كان قيس بن سعد بن عبادة ـ رضي الله عنهما ـ من الأجواد

---

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٢٢.

(٢) الهداية الإسلامية ص ٩١.

(٣) انظر مدارج السالكين ٢/٢٧٩ ـ ٢٨٢، والهداية الإسلامية ص ٨٤ ـ ٨٩.

المعروفين، حتى إنه مرض مرةً، فاستبطأ إخوانه في العيادة، فسأل عنهم، فقالوا: إنهم كانوا يستحيون مِمَّا لك عليهم من الدين، فقال: أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة، ثم أمر منادياً ينادي: من كان لقيس عليه مال فهو منه في حلٍّ، فما أمسى حتى كُسِرت عَتبةُ بابه من كثرة عاده»[١].

ب ـ ويدخل في قبيل الأسخياء من يستحق على عمل أجراً فيترك الأجر من تلقاء نفسه.

ج ـ ويدخل في قبيلهم من يسعى في قضاء حوائج الناس، وتفريج كرباتهم.

عن الحسن ـ رحمه الله ـ قال: «لأن أقضيَ حاجة أخ أحبُّ إلي من أن أعتكف سنة»[٢].

«وقيل لابن المنكدر: أي الأعمال أحبُّ إليك؟ قال: إدخال السرور على المؤمن.

وقيل أي الدنيا أحب إليك؟ قال: الإفضال إلى الإخوان»[٣].

وقال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ:

الناس بالناس مادام الحياة بهم	والسعد لاشكَّ تارات وهبَّاتُ
وأفضل الناس ما بين الورى رجل	تقضى على يده للناس حاجات
لا تَمْنَعَنَّ يدَ المعروف من أحد	مادمت مقتدراً فالسعد تارات
وأشكر فضائل صنع الله إذ جعلت	إليك لا لك عند الناس حاجات[٤]

د ـ ويدخل في السخاء سخاوة الإنسان بجاهه، بحيث يبذله في سبل الخير،

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ٢٧٨.
(٢) عيون الأخبار ٤/ ١٧٥.
(٣) عيون الأخبار ٤/ ١٧٤.
(٤) ديوان الشافعي تحقيق خفاجي ص ٨٣.

والشفاعات الحسنة، من إحقاق حق، ونصرة مظلوم، وإعانة ضعيف، ومشي مع الرجل إلى ذي سلطان، ونحو ذلك.

قال ـ تعالى ـ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**اشفعوا تؤجروا**»[١]

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

وأدِّ زكـاةَ الجـاه واعلـم بـأنهـا   كمثل زكاة المال تم نصابها[٢]

هـ ـ ويدخل في السخاء سخاء الإنسان برياسته، فيحمله سخاؤه على امتهانها، والإيثار في قضاء حاجات المتلمس.

و ـ ومن السخاء سخاء الإنسان براحته، وإجمام نفسه، فيجود بها تعباً وكدّاً في مصلحة غيره.

ومن هذا جود الإنسان بنومه ولذاته لمسامره، كما قيل:

متيَّـمٌ بـالنـدى لـو قـال سـائلـهُ   هبْ لي جميعَ كرى عينيك لم ينم[٣]

ز ـ ومن ذلك سخاء الإنسان بوقته في سبيل نفع الناس أيّاً كان ذلك النفع.

ح ـ ومن جميل السخاء سخاء الإنسان بالنصح والإرشاد.

ط ـ ومن أعلى مراتب السخاء سخاء الإنسان بالعلم، وذلك أفضل من السخاء بالمال؛ لأن العلم أشرف من المال.

والناس في السخاء بالعلم مراتب متفاوتة، وقد اقتضت حكمة الله، وتقديره النافذ ألا ينفع به بخيلاً أبداً.

ومن الجود به أن تبذله لمن يسألك عنه، بل تطرحه عليه طرحاً.

ومن الجود به أن السائل إذا سألك عن مسألة استقصيت له جواباً شافياً،

---

(١) أخرجه البخاري ٢/١١٨، ومسلم (٢٦٢٧) عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ.

(٢) ديوان الشافعي تحقيق الزعبي ص ٢١.

(٣) مدارج السالكين ٢/٢٧٩.

فلا يكون جوابك له بقدر ما تدفع به الضرورة، كما كان بعضهم يكتب في جواب الفتيا (نعم) أو (لا) مقتصراً على ذلك.

ومن السخاء بالعلم أن لا يقتصر على مسألة السائل، بل يذكر له نظائرها، ومتعلقاتها، ومآخذها، بحيث يشفيه، ويكفيه.

ي ـ ومن السخاء سخاء الإنسان بنفع البدن على اختلاف أنواعه، كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة كلَّ يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين اثنين صدقة، ويعين الرجل في دابته فيحمله عليها، أو يرفع له عليها متاعه صدقه، والكلمة الطيبة صدقة، وبكل خطوة يمشيها الرجل إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**»[(١)].

ك ـ ومن السخاء سخاء الإنسان بعرضه لمن نال منه، كما جاء في خبر أبي ضمضم: قال النبي ـ ﷺ ـ: «**أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضيغم، أو ضمضم** ـ شك ابن عبيد[(٢)] ـ **كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تصدقت بعرضي على عبادك**»[(٣)].

قيل للشعبي: فلان يَتَنَقَّصُك ويُشتِمُك، فتمثل الشعبي بقول كُثيرٍ عَزَّة:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ لِعَزَّةَ من أعراضنا ما استحلتِ

---

(١) رواه مسلم في صلاة المسافرين، باب استحباب صلاة الضحى (٧٢٠).

(٢) هو محمد بن عبيد بن حساب.

(٣) أخرجه أبوداود (٤٨٨٦)، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ١٨٠، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٥)، والخطيب البغدادي في موضح أوهام الجمع والتفريق ١/ ٣٥ـ ٣٦ كلهم عن أنس، وضعفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٣/ ١٦٣، وكذلك الألباني في إرواء الغليل ٨/ ٣٢، ولكن له شاهد عند أبي هريرة أخرجه ابن بشكوال في كتابه الغوامض والمبهمات (٤٤٩)، ونصه: «أن رجلا من المسلمين قال: اللهم إنه ليس لي مال أتصدق به، فأيما رجل من المسلمين أصاب من عرضي شيئاً ـ فهو له صدقة، فأوحى الله إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قد غفر له». قال عنه ابن حجر في الإصابة ٢/ ٥٠٠: «صحيح».

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لـدينـا ولا مَقْلِيَّـةً إن تَقَلَّـتِ[١]

وفي هذا السخاء من سلامة الصدر، وراحة القلب، والتخلص من معاداة الخلق - ما فيه.

ل - ومن السخاءِ السخاءُ بالصبر والاحتمال، والإغضاء.

وهذه مرتبة شريفة من مراتب السخاء، وهي أنفع لصاحبها من الجود بالمال، وأعزُّ له، وأنصر، وأملك لنفسه، وأشرف لها، ولا يقدر عليها إلا النفوس الكبار.

وينسب لأمير المؤمنين - علي ابن أبي طالب - رضي الله عنه - قوله:

أُغَمِّـضُ عينـي عـن أمـورٍ كثيـرةٍ وإني على ترك الغَمَوضِ قديرُ
وما من عمىً أُغضي ولكن لربما تعامى وأغضى المرء وهو بصيرُ
وأسكت عن أشياءَ لوشئتُ قُلْتُها وليـس علينـا فـي المقـال أميـرُ
أُصَبِّرُ نفسي باجتهادي وطاقتي وإنـي بـأخـلاق الجميع بصيـر[٢]

م - ومـن جميـل السخـاء سخـاء المـرء بـالخلـق، والبشـر، والتبسـم، والبشاشة، والبسطة، ومقابلة الناس بالطلاقة.

فذلك فوق السخاء بالصبر والاحتمال، والعفو، وهذا هو الذي بلغ بصاحبه درجة الصائم القائم، وهو أثقل ما يوضع في الميزان، وفيه من المنافع والمسار، وأنواع المصالح ما فيه[٣].

قال ابن حبان - رحمه الله -: «البشاشة إدام العلماء، وسجية الحكماء؛ لأن البشر يطفيء نار المعاندة ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي»[٤].

---

(١) بهجة المجالس ٢/٤٣٦.

(٢) ديوان الإمام علي ص ١٠٦ وانظر سوء الخلق مظاهره - أسبابه - علاجه للكاتب ص ١٠٣ - ١١٦.

(٣) انظر سوء الخلق ص ٨١ - ٩٠ و ١٠١ - ١٠٢.

(٤) روضة العقلاء ص ٧٥.

«قيل للعتابي: إنك تلقى الناس كلهم بالبشر!
قال: دفع ضغينة بأيسر مؤونة، واكتساب إخوان بأيسر مبذول»[١].
وقال محمد بن حازم:
وما اكتسب المحامد حامدوها   بمثل البشر والوجه الطليق[٢]
ن ـ ومن السخاء حض الناس على الخير، وحثهم على الجود والإنفاق.
ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: ١ـ٣].
فَذَكَرَ الله ـ عز وجل ـ مَنْ لا يحض على طعام المسكين في معرض الذم، وفي هذا أمر للعبد بأن يحض على طعام المسكين إن لم يستطع إطعامه بنفسه.
س ـ ومن ذلك دلالة الناس على وجوه الخير، وتذكيرهم بطرقه؛ فالدال على الخير كفاعله.
ع ـ ومن ذلك شكر الأسخياء، والدعاء لهم، وتشجيعهم على مزيد من البذل.
ولهذا لما أمر الله نبيَّه ـ ﷺ ـ بأن يأخذ الصدقات من الأغنياء ـ أمره بالدعاء لهم كما قال ـ عز وجل ـ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].
فقوله ـ عز وجل ـ «وصل عليهم» أي ادع لهم، وقوله: «إن صلاتك سكنٌ لهم» أي طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم[٣].
ف ـ ومن صور السخاء الخفية الجميلة ـ سخاوة النفس بترفعها عن الحسد، وحبِّ الاستئثار بخصال الحمد.

(١) بهجة المجالس ٢/٦٦٥.
(٢) بهجة المجالس ٢/٥٩٨.
(٣) تفسير ابن سعدي ٢/٢٨٣.

وذلك بأن يحب المرء لإخوانه ما يحب لنفسه، فيفتح المجالات أمامهم، ويعطيهم فرصة للإبداع، والحديث، والمشاركة، ونحو ذلك بعيداً عن الأثرة، وحب التفرد بالخير.

ومما يَجْمُل في ذلك أن يفرح لفرحهم، ويحزن لإخفاقهم، فهذه من الصور الخفية للسخاء، وقلَّ من يتفطَّن لها، ويأخذ نفسه بها.

ص ـ ومن جميل السخاء ومحموده سخاء المرء عما في أيدي الناس، فلا يلتفت إليه، ولا يستشرف له بقلبه، ولا يتعرض له بحاله ولا لسانه.

قال ابن المقفع: «عَوِّدْ نفسك السخاء، واعلم أنه سخاءان: سخاوة نفس الرجل بما في يديه، وسخاوته عما في أيدي الناس.

وسخاوة نفس الرجل بما في يديه أكثرهما وأقربهما من أن تدخل في باب المفاخرة.

وتركه ما في أيدي الناس أَمْحَضُ في التكرم، وأبرأ من الدنس.

فإنْ هو جمعهما، فبذل، وعفَّ فقد استكمل الجود والتكرم»[١].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «فلسان القدر يقول للفقير الجواد: وإن لم أعطك ما تجود به على الناس فَجُدْ عليهم بزهدك في أموالهم، وما في أيديهم ـ تَفَضُّلْ عليهم، وتزاحمهم في الجود، وتنفرد عنهم بالراحة»[٢].

ق ـ وأروع ما في السخاء سخاء المرء بنفسه، وأجمل ما في ذلك ما كان في سبيل الله.

هذا وقد مر الحديث عن هذا النوع فيما سبق.

قال أبو فراس:

ويدعى كريماً من يجود بماله ... ومن يبذل النفسَ الكريمة أكرمُ[٣]

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٤٤.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٢٨٢.

(٣) ديوان أبي فراس ص ٦٢.

تفاضل الناس بالسخاء:[(١)]

يتفاضل الناس بالسخاء على قدر هممهم، وإليك تفصيل ذلك:

أ ـ يتفاضلون من جهة حال الإنفاق؛ فالذي ينفق في السر أكمل في السخاء من الذي لا ينفق إلا في العلانية، قال ـ تعالى ـ ﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ب ـ ويتفاضلون من جهة استصغار ما يُنفق واستعظامه؛ فالذي ينفق في الخير، وينسى أو يتناسى أنه أنفق ـ هو أسخى ممن ينفق ثم لايزال يَذْكُر ما أنفق، ولاسيما ذكره في معرض الامتنان.

ج ـ ويتفاضلون في جهة السرعة إلى البذل، والتباطؤ عنه؛ فمن يبذل المال لذوي الحاجة لمجرد ما يشعر بحاجتهم ـ يَفْضُل من لا يبذل المال إلا بعد أن يسألوه.

د ـ ومن يقصد بالبذل موضع الحاجة ـ عرفه أو لم يعرفه ـ يكون أسخى ممن يخص بالنوال من يعرفهم ويعرفونه.

«أعطى رجل امرأة سألته مالاً عظيماً، فلامُوه، وقالوا: إنها لا تعرفك، وإنما كان يرضيها اليسير.

فقال: إن كانت ترضى باليسير فإني لا أرضى إلا بالكثير، وإن كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي»[(٢)].

هـ ـ ومن يعطي عن ارتياح وتلذذ بالعطاء يعد أسخى ممن يحسن وفي نفسه حرج.

قال زهير ابن أبي سلمى يمدح حصن بن حذيفة بن بدر:

تــراه إذا مـــا جئتـــه متهلِّــــلاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله[(٣)]

---

(١) انظر الهداية الإسلامية ص ٨٦ ـ ٨٩.

(٢) عيون الأخبار ١/٣٣٧.

(٣) ديوان زهير ابن أبي سلمى ص ٥٢.

وقال بشار بن برد يمدح عقبة بن سلم:

ليس يعطيك للرجاء ولا الخو ... ف ولكن يَلَذُّ طعم العطاء

لا ولا أن يقال شيمته الجو ... د ولكنْ طبائعُ الآباء[1]

و ـ ومن علامات رسوخ الرجل في السخاء ألا يجعل بينه وبين طالبي العرف حجاباً غليظاً.

ز ـ ومن علامات رسوخ الرجل في السخاء أن يلاقي خدمُه الزائرين والمُسْتَجْدِين بأدب جميل، وأن يستقبلهم بالبشر والترحاب؛ حتى يحفظ عليهم عزتهم.

قال ابن هرمة يمدح رجلاً:

هَشٌّ إذا نزل الوفود ببابه ... سهل الحجاب مؤدَّب الخدام[2]

ح ـ وأبلغ ما يدلك على أصالة الرجل أن يَرِقَّ عطفُه، حتى يبسط إحسانه إلى ذي الحاجة وإن كان من أعدائه؛ فذلك من كِبَر النفس، ومن ضروب الأنفة والعزة.

قال أحدهم:

وأمنحه مالي وَوُدِّي ونصرتي ... وإن كان مَحْنِيَّ الضلوع على بغضي

«حكي عن مصعب بن الزبير أنه لما ولي العراق جلس يوماً لعطاء الجند، وأمر مناديه فنادى: أين عمرو بن جرموز ـ وهو الذي قتل أباه الزبير ـ فقيل له: إنه قد تباعد في الأرض.

فقال: أيظن الجاهل أني أقيده بأبي عبدالله ـ يعني والده الزبير ـ؟ فليظهر آمناً؛ ليأخذ عطاءه موفَّراً!.

فعدَّ الناس ذلك من مستحسن الكبر»[3].

---

(١) ديوان شعر بشار بن برد، السيد بدر ص ١٤.

(٢) عيون الأخبار ١/ ٨٩.

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٢٥٣.

ط ـ ومن علامات الرسوخ في السخاء أن يتألم المرء، وأن يتأسف أشد الأسف إذا سئل شيئاً وهو غير واجدٍ له.

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ:

يـالهـفَ نفسـي علـى مـالٍ أفَـرِّقـه ... على المقلين من أهل المروءات

إن اعتذاري لمن قد جاء يسألني ... ما ليس عندي لمن إحدى المضيبات[1]

قال سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ: «كان سعيد بن العاص إذا أتاه سائل فلم يك عنده ما سأل قال: اكتب عليَّ بمسألتك سِجِّلاً إلى يوم يسري»[2].

ي ـ ومن الأسخياء من تسمو به الحال، فيرى أن الفضل والمنة إنما هي لمن جاءه يستجديه؛ حيث تكرم عليه، وأحسن الظن به، فهذا من غرائب السخاء.

فهذا حبر الأمة، وترجمان القرآن عبدالله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: «ثلاثة لا أكافئهم: رجل بدأني بالسلام، ورجل وسع لي في المجلس، ورجل اغبرَّت قدماه في المشي إليَّ؛ إرادة التسليم عليَّ، أما الرابع فلا يكافئه عني إلا الله ـ عز وجل ـ.

قيل: من هو؟

قال: رجل نزل به أمر، فبات لَيلَتَهُ يفكر بمن ينزله، ثم رآني أهلاً لحاجته فأنزلها بي»![3]

وينسب له ـ رضي الله عنه ـ أبيات جميلة في هذا المعنى يقول فيها:

إذا طارقاتُ الهمِّ ضاجعت الفتى ... وأعمل فِكْرَ الليلِ والليلُ عاكرُ

وباكرني في حاجة لم يجدْ بها ... سواي ولا من نكبة الدهر ناصرُ

فرجت بما لي همَّه من مقامه ... وزايلـه هـمٌّ طـروقٌ مسـامـرُ

(١) ديوان الشافعي تحقيق الزعبي ص ٢٨.

(٢) عيون الأخبار ١/ ٣٧٠.

(٣) عيون الأخبار ٤/ ١٧٦.

وكـان لـه فضـل علـيَّ بظنِّـه بي الخيرَ إني للذي ظنَّ شاكرُ[١]

ك ـ وأرفع درجات السخاء أن يكون الرجل في حاجة مُلِحَّةٍ إلى ما عنده، فيدع حاجته، ويصرف ما عنده في وجوه الخير، وذلك ما يسمى بالإيثار.

قال ـ تعالى ـ في معرض الثناء على الأنصار ـ رضي الله عنهم ـ ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

وقال ـ تعالى ـ في معرض الثناء على عباده المؤمنين: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ «ثم أخبر عنهم بإطعام الطعام على محبتهم له، وذلك يدل على نفاسته عندهم، وحاجتهم إليه.

وما كان كذلك فالنفوس به أشح، والقلوب به أعلق، واليدُ له أمسك.

فإذا بذلوه في هذه الحال فهم لما سواه من حقوق العباد أبذل»[٢].

قال دعبل الخزاعي:

وليس الفتى المعطي على اليسر وحده ولكنه المعطي على العسر واليسر[٣]

وقال بعض الشعراء:

ليس جود الفتيان من فضل مال إنمـا الجـود للمقـل المـواسـي[٤]

فإذا كان السخاء بتلك المثابة فما أجدر العاقل أن يأخذ نفسه به، وأن يجاهدها على اكتسابه.

وإذا كان من أعظم الأسباب لعلو الهمم وسيادة الأمم ـ فما أحرانا أن نربي نَشْأَنا على هذا الخلق العظيم، وأن نلقنهم أنه مرقاة السيادة والفلاح.

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني ١/ ٣٧.

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية ١/ ٧٢.

(٣) عيون الأخبار ١/ ٣٤٤.

(٤) عيون الأخبار ١/ ٣٤٤.

كما كان فرضاً علينا أن ننذرهم سوء المنقلب الذي ينقلب إليه البخلاء والمبذرون.

فإذا نحن فعلنا هذا أخرجنا للناس أمة تسمو أن تنحدر في تلك المدنية الهازلة المرذولة، ولا يجد خصومها لقهرها أو سلب حق من حقوقها طريقاً.

٢٤ ـ الإعراض عن الجاهلين:

فهذا العمل سبب لعلو الهمة، ورفعة المنزلة، ووفور الكرامة، والبعد عن موجبات الذلة.

فمن أعرض عن الجاهلين حمى عرضه، وأراح نفسه، وسلم من سماع ما يؤذيه.

قال ـ عز وجل ـ: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾. [الأعراف: ١٩٩].

فهذه الآية جمعت أصول الأخلاق؛ فهي علاج رباني للراحة من شياطين الإنس.

فبالإعراض يحفظ الرجل على نفسه عزتها؛ إذ يرفعها عن مجاراة الطائفة التي تلذ الإقذاع والمهاترة.

قال الشافعي:

أعـرض عـن الجـاهـل السفيـه ... فكـــل مـــا قـــال فهـــو فيـــه

مـــا ضـــر نهـــر الفـــرات يـــومـــاً ... لو خاض بعض الكلاب فيه[1]

وقال:

إذا سبني نـذل تـزايـدت رفعـةً ... ومـا العيـب إلا أن أكـون مسـابـه

ولـو لـم تكـن نفسـي علـي عـزيـزةً ... لَمَكَّنْتُهـا مـن كـل نـذل تحـاربـه[2]

---

(١) ديوان الشافعي ص ٩٠.

(٢) ديوان الشافعي ص ٢٢.

وقال السموأل:

ربَّ شَتْــم سمعتُــه فَتَصــامَمْـ ـتُ وغَــيٍّ تــركتــه فَكُفِيْــتُ[١]

وقال المثقب العبديُّ:

وكــلام سَيِّــىءٍ قــد وقَــرتْ أذنــي عنـه ومـابـي مـن صَمَـمْ
فَتَعــزَّيْــتُ؛ خشــاةً أن يــرى جـاهـل أنــي كمـا كـان زعـمْ
ولَبَعْضُ الصفح والإعراض عن ذي الخنا أبقى وإن كان ظَلَمْ[٢]

وقال الأصمعي: «بلغني أن رجلاً قال لآخر: والله لئن قلت واحدة لتسمعن عشراً.

فقال له الآخر: لكنك إن قلت عشراً لم تسمع واحدة»[٣].

«وشتم رجل الحسن وأربى عليه، فقال له: أما أنت فما أبقيت شيئاً، وما يعلم الله أكثر»[٤].

وقال بعض الشعراء:

إنـي لأعـرض عـن أشيـاء أسمعهـا حتـى يقـول رجـال إن بـي حُمُقـا
أخشـى جـواب سفيـهٍ لا حيـاء لـه فَسْـلٍ وظـنَّ أنـاسٍ أنـه صـدقـا[٥]

قال ابن المقفع: «واعلم أنك ستبتلى من أقوام بسفه سيطلع منك حقداً.

فإن عارضته أو كافأته بالسفه فكأنك رضيت ما أتى به؛ فأحببت أن تحتذي مثاله.

فإن كان ذلك عندك مذموماً فَحَقِّقْ ذمَّك إياه بترك معارضته.

---

(١) الأصمعيات ص ٨٥.
(٢) المفضليات ص ٢٩٤.
(٣) عيون الأخبار ٣/ ٢٨٥.
(٤) عيون الأخبار ٣/ ٢٨٧.
(٥) عيون الأخبار ٣/ ٢٨٤.

فأما أن تذمه وتمتثله[١] فليس في ذلك سداد»[٢]

وقال الخطابي: «أنشدني ابن مالك، قال: أنشدني الدَّغولي في سياسة العامة:

إذ أمـن الجهـالُ جهلـك مـرة فَعِرْضُك للجهال غُنْمٌ من الغُنْمِ
وإن أنت نازيت السفيه إذا نزا فأنت سفيه مثله غير ذي حلم
ولا تتعـرض للسفيـه ودارِهِ بمنـزلـة بيـن العـداوة والسلـم
فيخشـاك تـاراتٍ ويـرجـوك تـارة وتأخذ فيما بين ذلك بالحزم»[٣]

٢٥ ـ العفو والصفح، ومقابلة الإساءة بالإحسان:

وهذا الأمر كسابقه، وهو قريب منه من حيث كونُه سبباً لعلو المنزلة، ورفعة الدرجة؛ فكثيراً ما يكون الصفح عن المسيء، والعفو عن زلته ـ دواءً لسوء خلقه، وتقويماً لعوجه؛ فيعود الجفاء إلى إلفة، والمناوأة إلى مسالمة.

أما التسرع إلى دفع السيئة بمثلها أو بأشد منها دون نظر إلى ما يترتب عليها من الأثر السيِّىء ـ فدليل ضيق الصدر، والعجز عن كبح جماح الغضب.

وإنما يتفاضل الناس في السماحة والسيادة على قدر تدبرهم للعواقب، وإسكاتهم الغضبَ إذا طغى[٤].

قال عمر بن عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ: «أحب الأمور إلى الله ثلاثة: العفو عند المقدرة، والقصد في الجدة، والرفق في العَبَدَة»[٥].

«وعن داود بن الزبرقان قال: قال أيوب: لا ينبل الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عنهم»[٦].

---

(١) تمتثله: تحتذيه وتسلك مسلكه.
(٢) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٥٥.
(٣) العزلة للخطابي ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٤) انظر الهداية الإسلامية ص ٨٣.
(٥) روضة العقلاء ص ١٣١.
(٦) روضة العقلاء ص ١٣١.

وقال الشافعي:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من ظلم العداوات
إنـي أحيـي عـدوي عنـد رؤيتـه لأدفـع الشـر عنـي بـالتحيـات
وأظهـر البشـر لـلإنسـان أبغضـه كـأنـه قـد حشـى قلبـي مـودات[(١)]

فإذا كان الأمر كذلك فإنه يجدر بالعاقل ـ كما قال ابن حبان ـ: «توطين نفسه على لزوم العفو عن الناس كافة، وترك الخروج لمجازاة الإساءة؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من الاستعمال بمثلها»[(٢)].

وقد يظن ظانٌّ أن العفو والحلم عن المسيئين مع القدرة موجب للذلة والمهانة، وقد يجر إلى تطاول السفهاء.

وهذا خطأ؛ ذلك أن العفو والحلم لا يشتبه بالذلة في حال؛ فإن الذلة احتمال الأذى على وجه يذهب بالكرامة.

أما الحلم فهو إغضاء الرجل عن المكروه، حيث يزيده الإغضاء في أعين الناس رفعة ومهابة.

سيـاسـة الحلـم لا بطـش يكـدرهـا فهو المهيب ولا تخشى بوادره[(٣)]

وقال كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبا المغوار:

هو العسل الماذيُّ[(٤)] حلماً ونائلاً وليـثٌ إذا يلقـى العـدوَّ غضـوب
لقـد كـان أمـا حلمـه فَمُـروَّحٌ علينـا وأمـا جهلـه فعـزيـب[(٥)]

---

(١) ديوان الشافعي ص ٨٢.
(٢) روضة العقلاء ص ١٣١.
(٣) انظر رسائل الإصلاح ١/١٨٦.
(٤) العسل الماذي: العسل الأبيض اللين.
(٥) مروَّح: من الرواح، وعزيب: بعيد.

حليم إذا ما سورة[١] الجهل أطلقت حُبى[٢] الشِّيب للنفس اللجوج غلوب[٣]

وقال فيه:

حليم إذا ما الحلم زيَّن أهله مع الحلم في عين العدو مهيب[٤]

ولهذا قال النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «**وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً**»[٥].

فالعفو إسقاط حقِّك جوداً، وكرماً، وإحساناً مع قدرتك على الانتقام، فَتُؤْثِر الترك؛ رغبة في الإحسان، ومكارم الأخلاق.

بخلاف الذل؛ فإن صاحبه يترك الانتقام عجزاً، وخوفاً، ومهانة نفسٍ؛ فهذا غير محمود؛ بل لعل المنتقم بالحق أحسن حالاً منه.[٦]

٢٦ ـ التواضع:

فالتواضع ـ في حقيقته ـ هو بذل الاحترام والعطف والتقدير لمن يستحقه[٧].

والتواضع دليل على كبر النفس، وعلو الهمة، وهو ـ في الوقت نفسه ـ سبيل لاكتساب المعالي، والترقي في الكمالات.

فهو خلق يرفع من قدر صاحبه، ويكسبه رضا أهل الفضل ومودتهم،

---

(١) سورة الجهل: حِدَّتُه.

(٢) حبى الشِّيب: الحبي جمع حُبْوَة، وهي الثوب الذي يحتبى به، وسيأتي مزيد بيان لها فيما بعد، وإنما خص الشِّيب؛ لأنهم أكثر وقاراً من غيرهم، فالممدوح يكبح جماح غضبه في الوقت الذي تثور فيه ثائرة أهل الوقار.

(٣) الأصمعيات ص ٩٥.

(٤) الأصمعيات ص ١٠٠.

(٥) رواه مسلم ٤/٢٠٠١.

(٦) انظر الروح لابن القيم ص ٣٥٩، وانظر تفصيل الحديث عن ما مضى في كتاب: سوء الخلق ـ مظاهره ـ أسبابه ـ علاجه للكاتب ص ١١٠ ـ ١١٣.

(٧) انظر رسائل الإصلاح ١/١٢٧.

ويبعثه على الاستفادة من كل أحد، وينأى به عن الكبر، والاستنكاف من قبول الحق والأخذ به.

ومن هنا يكمل السؤدد، ويعلو القدر، ويتناهى الفضل.

ثم إن التواضع يغري باكتساب المعالي من جهة أن الناس يعجبون بالأكابر والعظماء إذا تواضعوا، فيقودهم ذلك إلى محبتهم، والاقتداء بهم، والسير على منوالهم.

قال ابن المبارك ـ رحمه الله ـ: «كان يقال: الغنى في النفس، والكرم في التقوى، والشرف في التواضع»[١].

وكان يقال: «ثمرة القناعة الراحة، وثمرة التواضع المحبة»[٢].

ثم إن المتواضع يرفع من أقدار الناس، وينزلهم منازلهم، ويشعر النوابغ بقيمتهم، واستعدادهم كي يكونوا من ذوي الشرف والمروءات.

ثم إن من تواضع لله رفعه، فإذا رفع الله أحداً فمن ذا الذي سيخفضه ويضعه؟

وأحسن أخلاق الفتى وأتمُّها ... تواضعه للناس وهو رفيع[٣]

٢٧ ـ لزوم الإنصاف:

فالإنصاف خلق رفيع، وأدب سام، يدل على كرم النفس، وصفاء السريرة، والبعد عن الأثرة، وهو من الخصال التي لا تنبت إلا في نفس زكية كريمة، نبتت في بيئة صالحة.

فبالإنصاف يقوى الفهم، ويتسع الأفق، ويعلو القدر، ويسود الود، وتقوى الصلات.

---

(١) غذاء الألباب ٢/ ٢٣١.
(٢) غذاء الألباب ٢/ ٢٣٢.
(٣) غذاء الألباب ٢/ ٢٣٣.

فيا من يروم المعالي، ويتطلب الكمالات عليك بلزوم الإنصاف، وتحري العدل.

وإذا لم ينصفك الرجل فرد عليك الحق بالشمال واليمين، أو جحد جانباً من فضلك وهو يراه رأي العين ـ فلا تكن قلة إنصافه حاملة لك على أن تقابله بالعناد، فتردَّ عليه حقّاً، أو تجحد له فضلاً، واحترس من أن تسري لك من خصومك عدوى هذا الخلق الممقوت، فَيَلِجَ في نفسك، وينشط له لسانك أو قلمك، وأنت تحسبه من محاربة الخصوم بمثل سلاحهم.

كلا، لا يحارب الرجل خصومه بمثل الاعتصام بالفضيلة، ولا سيما فضيلة كفضيلة الإنصاف؛ فهي تدل على نفس مطمئنة، وهمة عالية، ونظر في العواقب بعيد.

ولئن كان الإنصاف جميلاً فلهو مع الأقران أجمل وأجمل؛ ذلك أن الرجل يسهل عليه أن ينصف من هو أكبر منه سنّاً أكثر مما يسهل عليه أن ينصف أقرانه؛ ذلك لأن أكبر عائق عن الإنصافِ التحاسدُ؛ فحسد الإنسان لأقرانه أكبر وأشد من حسده للمتقدمين عليه في السن.

بل يسهل عليه أن ينصف أقرانه أكثر مما يسهل عليه أن ينصف من هو أحدث سنّاً منه؛ إذ يسبق إلى ظنه أن ظهور مَزِيَّةٍ لمن هو أحدث عهداً منه قد تُفضي إلى أن يكون ذِكْرُه أرفع.

وفضل القرين على بعض أقرانه شائع أكثر من فضل المتأخر على المتقدم؛ وشيوع الشيء يجعله أهون على النفس مما هو أقل شيوعاً منه؛ فإذا أنصف المرء من هو أحدث سناً منه دل ذلك على كرم نفسه، وشرف همته، وتناهي فضله.

أخرج ابن الجوزي عن عمر بن سعيد عن أمه قالت: «قدم ابن عمر

مكة، فسألوه، فقال: أتجمعون لي يا أهل مكة المسائل وفيكم ابن رباح ـ يعني عطاءَ ـ»[١].

فابن عمر ـ رضي الله عنه ـ كان صحابياً، وعطاء ـ رحمه الله ـ كان تابعياً، ومع ذلك لم يجد ابن عمر غضاضة أو حرجاً من إنصاف عطاء.

فينبغي للإنسان أن يتيقظ للأحوال التي تتقوّى فيها داعيةُ العناد، ويُعِدَّ للوقوف عند حدود الإنصاف، ومقاومة تلك الداعية ـ ما استطاع من قوة.

كذلك لا يصعب على الرجل أن ينصف قريباً أو صديقاً، بل لا يصعب عليه أن ينصف من لا تربطه به قرابة، أو صداقة، ولا تبعده منه عداوة.

والإنصاف الذي قد يحتاج فيه إلى مراوضة النفس كثيراً أو قليلاً ـ هو أن يبدي بعض أعدائه رأياً سديداً، أو يناقشه في رأي مناقشةً صائبة؛ فهذا موطن تذكير النفس بأدب الإنصاف، وإنذارها ما يترتب على العناد من إثم وفساد.

قال ـ تعالى ـ ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

ومن الإنصاف الذي يدل على الرسوخ في الفضيلة أن يتحدث الرجل عن خصمه، فينسب إليه ما يعرفه من فضل.

أنشد رجل في مجلس أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قول الشاعر:

فتىً كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ويبعده الفقرُ
كأن الثريّا عُلِّقت بجبينه ... وفي خده الشِّعرى وفي الآخر البدر

فلما سمعها علي ـ رضي الله عنه ـ قال: هذا طلحة بن عبيد الله، وكان السيف ليلتئذ مجرداً بينهما![٢].

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي ٢/ ١٤٣.
(٢) انظر رسائل الإصلاح ١/ ٤٣.

كذلك قد تقول قولاً تراه صواباً، وقد تعمل عملاً تحسبه حسناً، فينقده آخرُ بميزان العلم الصحيح، ويريك أنك قد قلتَ خطأً، أو عملت سيئاً.

ففي مثل هذا المقام قد تجد في نفسك كراهةً للاعتراف بالخطأ في القول، أو الإساءة بالعمل.

فإن كنت على ذكر في فضيلة الإنصاف والرجوع إلى الحق، وعلى بيِّنةٍ من قبح الإصرار على الباطل ـ لم تلبث أن تكظم الكراهة، ولم تجد في نفسك حرجاً من أن تقول للناس: إني أخطأت في قولي، أو أسأت في عملي.

ولهذا فالأكابر لا يأنفون من الإعتراف بالخطأ إذا أخطأوا، ولا يَتَلَبَّثُوْنَ في الرجوع إلى الحق ولوعظمت مناصبهم، وعلت أقدارُهم.

والراسخون في الفضيلة لا يبالون أن يكون رجوعهم عن الخطأ أمام من خالفهم وحده، أو بمحضر جمع كبير.

«وقد ينقل التاريخُ شذراتٍ من حوادث المنصفين لمن خالفهم في أمر، أو المعترفين لبعض خصومهم بفضيلة، فتهتز في نفوس قرائها عاطفةُ احترام لمن أقر بالخطأ، أو اعترف لخصمه بخصلة حمد.

وربما كان إكبارهم لمن أقر بالخطأ فوق إكبارهم لمن خالفه في الرأي فأصاب.

وربما كان إكبارهم لمن شهد لخصمه بمكرمة فوق إكبارهم للشخص المشهود له بتلك المكرمة.

وسبب هذا الإكبار عظمةُ الإنصاف، وعزةُ من يأخذ بها في كل حال»[(١)].

ولو أخذت هذه الخصلة حظها من النفوس لعمَّ الائتلاف، ولقلَّ الاختلاف.

---

(١) رسائل الإصلاح ١/ ٤٦.

عن الربيع بن سليمان قال: «سمعت الشافعيَّ يقول: ما أوردت الحقَّ والحجة على أحد فقبلها مني إلا هِبْتُهُ، واعتقدت مودته.

ولا كابرني على الحق أحدٌ، ودافع الحجة إلا سقط من عيني»(١).

«ونقرأ في تاريخ العلاَّمة محمد بن عبدالسلام أن ابن الصباغ اعترض عليه في أربع عشرة مسألة، فلم يدافع عن واحدة منها، بل أقر بالخطأ فيها جميعاً»(٢).

فإذا كان الإنصاف بتلك المثابة ـ كان واجباً على أولياء الأطفال، وأساتذة الأخلاق، ودعاة الإصلاح ـ أن يجعلوا له من تربيتهم، وتعليمهم، ودعوتهم نصيباً يكفي لأن نرى كتاباتنا وأقوالنا نقية من جحود الحق، ومن جحود الفضل.

هذا ومما يعين على اكتساب خلق الإنصاف زيادة على ما مضى ما يلي:

أ ـ **استحضار فضيلة الإنصاف**: وقد مر بنا شيء من ذلك في بداية الحديث عن الإنصاف؛ فإذا استحضر المرء فضيلة الإنصاف وجد ما يبعثه إلى الأخذ به، ولزومه، ولو لم يأت من فضائله إلا أن الله أمر به، وأنه ـ عز وجل ـ يحب أهله.

قال ـ تعالى ـ ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠].

وقال: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: ٩].

ب ـ **أن يحب المرء لإخوانه ما يحبه لنفسه**: فذلك أقرب للتقوى، وأنفى للوحشة والبغضاء، وأدعى للعدل والرحمة، والمودة والقربى؛ «فأعدل السِّيَر أن تقيس الناس بنفسك، فلا تأتي إليهم إلا ما ترضى أن يؤتى إليك»(٣).

---

(١) صفة الصفوة ٢/١٦٧.

(٢) رسائل الإصلاح ١/٤٢.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ٧٣.

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»**[١].

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ «ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطىء»[٢].

وقال: «ما ناظرت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق، ويسدد، ويعان، ويكون عليه رعاية من الله، وحفظ»[٣].

وقال الخطابي ـ رحمه الله ـ:

ارْضَ للناس جميعاً مثل ما ترضى لنفسكْ
إنما الناس جميعاً كلهم أبناءُ جنسكْ
فلهم نفسٌ كنفسك ولهم حسٌّ كَحسِّكْ[٤]

ج ـ أن يضع المرء نفسه موضع خصمه: فذلك مما يدعو لالتماس المعاذير، والبعد عن إساءة الظن، والحذر من مواطن الظلم والاعتساف.

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ «من أراد الإنصاف فَلْيَتَوهَّمْ نفسه مكان خصمه؛ فإنه يلوح له وَجْهُ تعسُّفه»[٥].

د ـ التجرد للحق: فإذا تجرد المرء للحق، وآثره، وحرص على طلبه ـ وفق له، ولم يجد صعوبة في لزوم العدل.

قال الرافعي ـ رحمه الله ـ: «متى ما وقع الخلاف بين اثنين، وكانت النية صادقة مخلصة ـ لم يكن اختلافهما إلا من تَنَوُّع الرأي، وانتهيا إلى الاتفاق بغلبة أقوى الرأيين، ما من ذلك بَدٌّ»[٦].

---

(١) رواه البخاري ١/٩، ومسلم (٤٥).
(٢) صفة الصفوة ٢/١٦٧.
(٣) صفة الصفوة ٢/١٦٧..
(٤) أقوال مأثورة ص ٤٥٦.
(٥) الأخلاق والسير ص ٨٠.
(٦) وحي القلم ٢/٣١٥.

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ: «وما ناظرت أحداً إلا ولم أُبالِ: أبيَّن الله الحق على لساني أو لسانه»[١].

٢٨ ـ لزوم الصدق والصراحة، والترفع عن النفاق والمواربة:

فإن للصدق آثاراً حميدة، وعوائد عديدة؛ فالصدق حسنة تنساق بصاحبها إلى الحسنات؛ ذلك أنه دليل على حسن السيرة، ونقاء السريرة، وسمو الهمة، ورجحان العقل.

فبالصدق يشرف قدر المرء، وتعلو منزلته، ويصفو باله، ويطيب عيشه.

فالصدق ينجي صاحبه من وخز الضمير، وذل الاعتذار، ومن إساءة الناس إليه، ونزع الثقة منه.

ثم إن الصدق يكسب صاحبه عزة وشجاعة، وثقة في النفس، فيظل موفور الكرامة، عزيز النفس، مهيب الجناب.

وهذه الأخلاق تقود إلى تَطَلُّب الكمال، والأنفة من الذل.

ولا يمكن أن يستقيم لأحد سؤدد، ولا تعلو له مكانة، ولا يحرز قبولاً في قلوب الناس ـ مالم يرزق لسان صدق[٢].

«ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره.

وهذا الصدق معنى يلتئم من صحة الإخلاص وصدق التوكل؛ فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله»[٣].

ولهذا فإن من أعظم آداب صاحب المروءة ـ أن يكون صريحاً صادق

---

(١) صفة الصفوة ٢/١٦٧، وانظر تفصيل الحديث عن الإنصاف في رسائل الإصلاح ١/٣٨ـ٤٧، وأخطاء في أدب المحادثة والمجالسة للكاتب ٦٨ـ٨٤.

(٢) انظر رسائل الإصلاح ٢/١٠١ ـ ١٠٢، وانظر الكذب مظاهره- علاجه للكاتب ص ٣٣-٣٨.

(٣) الفوائد لابن القيم ص ٢٦٦.

اللهجة، مترفعاً عن النفاق والموارَبة، فلا يبدي لشخص الصداقة، وهو يحمل العداوة، أو أن يشهد له باستقامة السيرة، وهو يراه منحرفاً عن سواء السبيل.

قال الحكيم العربي:

فَسِرِّي كإعلاني وتلك خليقتي   وظلمةُ ليلي مثلُ ضوءِ نهاريا[١]

والمراد أن صاحب المروءة لا يتخذ الظهور بخلاف ما يضمر عادة له كحال ما يفعله قوم لا تشمئز نفوسهم من الملق والرياء.

أما إذا اقتضت الحكمةُ إخفاءَ بعض ما يضمر من نحو العداوة والصداقة ـ فإن اتباع ما تقتضيه الحكمة من مكملات المروءة[٢].

ثم إن الحكمة قد تقتضي أن يلجأ المرء إلى المعاريض؛ ذلك أن الإنسان في هذه الدنيا معرض للبلاء، ومن أشد البلاء ما يمنعك من أن تقضي حق فضيلة.

فقد يلاقي الإنسان حالاً ترغمه على أن ينطق بما يكره، ويسلك في القول ما لم يألف.

ولو وقف علم الأخلاق أمام هذه الأحوال المرغمة صلباً جامداً ـ لضاقت سبيله، ولوجدت بعض النفوس مناصاً للخروج عليه.

إلا أن علم الأخلاق ـ الذي أرسى الإسلام قواعده، ورفع مناره ـ فسيح الصدر بمقدار ما يسع مقتضيات الحياة الفاضلة.

فصدق اللهجة يعد من الفضائل؛ نظراً إلى ما هو شأنه من حفظ المصالح، ودرء المفاسد.

ولو عَرَضَتْ على وجه الندرة حالٌ يكون حديث الرجل فيها على نحو ما يعلم جالباً عليه أو على غيره ضرراً فاحشاً ـ لوجد في نظام الأخلاق مرونةً

---

(١) عيون الأخبار ١/٢٩٦.

(٢) انظر رسائل الإصلاح ١/٢١١.

تسمح له بأن يصوغ حديثه في أسلوب لا يجلب ضرراً.

فإذا وقع الإنسان في حال لا يليق معه التصريح بأمر واقع، ولم يكن بد من أن يقول في شأنه شيئاً ـ فهٰهنا يُفْسَح له أن يأخذ بالمعاريض، وهي ألفاظ محتملة لمعنيين؛ يفهم السامع منها معنى، ويريد المتكلم منها معنى آخر.

وإن شئت فقل: هي ألفاظ ذات وجهين: أحدهما غير حقيقة، وهو ما يسبق إلى فهم المخاطب، وثانيهما حقيقة وهو ما يقصده المتكلم.

فهذه الحالة لا تخرج المرء من أهل الصدق، ولا تلحقه بزمرة الكذابين.

وهذا ما يفعله الذين أشربوا صدق اللهجة متى عرفوا أن في القول الصريح حرجاً أو خطراً [(١)].

وإذا كان الصدق بهذه المثابة فالواجب علينا ـ معاشر المسلمين ـ أن نلزم الصدق ونتحراه، وأن نوطن أنفسنا على الأخذ به، وأن يكون هيئة راسخة يعتمده الواحد منا في جميع أحواله، لا أن يكون موسمياً، أو مرتبطاً بحالة معينة.

قال ربنا ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٩].

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صِدِّيقاً**»[(٢)].

قال ابن السمَّاك: «ما أحسبني أؤجر على ترك الكذب؛ لأني أتركه أنفة»[(٣)].

---

(١) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/١٥٧-١٥٨ ورسائل الإصلاح ٢/١٠٠ والكذب للكاتب ص ١٩-٢٣.

(٢) رواه البخاري ١٠/٤٢٢ ومسلم (٢٦٠٧).

(٣) المحاسن والمساوىء ص ٤٣٣.

وقال بعض الحكماء: «الصدق عز، والكذب خضوع»[١].

وقال آخر: «لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة لقد كان حقيقاً بذلك، فكيف وفيه المأثم والمغرم؟»[٢].

٢٩ ـ إباءة الضيم:

الضيم: الظلم والاضطهاد، وإباءته: كراهته والنفور منه.

والنفور الصادق من الضيم يستلزم الغضب عند وقوعه.

ولهذا الخلق صلة محكمة بخلقين عظيمين، هما: عزة النفس، والبطولة؛ فمن لم يكن عزيز النفس لم يتألم من أن يضام، ومن لم يكن بطلاً احتمل الضيم؛ رهبة أو حرصاً على الحياة.

قال أبو النشناش النهشلي:

فمت معدماً أو عشْ كريماً؛ فإنني ... أرى الموتَ لا ينجو من الموتِ هاربه[٣]

وقال عَدِيُّ بن رعلاء الغساني:

ليس من مات فاستراح بميْتٍ ... إنمـا الميْـتُ مَيِّـتُ الأحيـاء

إنمـا الميْـتُ مـن يعيـش ذليـلاً ... سَيِّئـاً بـالـهُ قليـلُ الـرجـاءِ[٤]

وقال سويد ابن أبي كاهل يمدح قومه:

وإبـــاءٌ للـــدَّنِيَّـــات إذا ... أعطي المكثور[٥] ضَيماً فكنع[٦][٧]

فإباءة الضيم من علامات الهمة العالية، ومن مقوماتها الأساسية.

---

(١) المحاسن والمساوئ ص ٤٣٣.

(٢) المحاسن والمساوئ ص ٤٣٣.

(٣) الأصمعيات ص ١٩٩.

(٤) الأصمعيات ص ١٥٢.

(٥) المكثور: المغلوب.

(٦) كنع: خضع.

(٧) الأصمعيات ص ١٩٧.

ولهذا فإن الرجل الذي يغار على ذوي القرابة والصداقة والجوار، ويبذل في إنقاذهم من الضيم دمه، أو ماله، أو جاهه ـ يعظم بهذه المزية في أعين من يقدرون المكارم قدرها.

وأكبرُ أباةِ الضيم همةً، وأرقاهم في سماء السيادة مقاماً ـ هو من يغار على الأمة في دينها، ويأبى أن تمسها لفحةٌ من ضيم، فيجاهد في سبيل سلامتها من أن يهضم حق من حقوقها، أو يغتصب شبر من أوطانها[١].

ويصور لك إباء الرجل لأن يضام قول عتبان الشيباني حين نزلت ثقيف متقلبة على أرض قومه:

فلا صُلْحَ ما دامت منابرُ أرضنا يقوم عليها من ثقيفَ خطيبُ[٢]

٣٠ ـ الغيرة الصادقة:

فالغيرة الصادقة هي التي تنهض بصاحبها إلى مكافحة المبطل أو المفسد، وتقويم عوجه في تثبت وحزم، وهي التي تبعث الرجل على الجهاد في الحق بأي وسيلة استطاعها[٣].

«فالرئيس الغيور يذود عن الحق بما تحت يده من قوة، متى كان الهاجم عليه في غشاوة تمنعه من أن يفقه الحجة.

والعالم الغيور لا يفتأ يذب عن الحق بلسانه أو قلمه، ولا يسوقه طمع أو رهبة إلى الخمول أو الصمت.

وما خمول العالم وصمته سوى قلة الثقة بما وعد الله به أنصار الحق من فوز وحياة طيبة.

والمنفق الغيور ينفق في سبيل الإصلاح باليمين واليسار»[٤].

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ٢/ ٧٢.

(٢) العفو والاعتذار للرقام البصري ١/ ١٨٦.

(٣) انظر رسائل الإصلاح ١/ ٧٣.

(٤) رسائل الإصلاح ١/ ٧٣.

«وفصل القول في هذا أن الغيرة على الحق والمصلحة ما غلبت على نفوس الأمة إلا استقامت سيرتها، وعلت في الأمم سمعتها، وحسنت في كلا الحياتين عاقبتها»(١).

٣١ ـ قصر الأمل، وتذكر الآخرة:

فهذا من أعظم الموقظات للهمة، ومن أكبر البواعث على الجد والاجتهاد؛ ذلك أن المرء إذا تذكر قصر الدنيا وسرعة زوالها، وأدرك أنها مزرعة للآخرة، وأنها فرصة لكسب الأعمال الصالحة، وتذكر ما في الجنة من النعيم المقيم، وما في النار من العذاب الأليم ـ زهد في متع الدنيا، وأقصر عن الاسترسال في الشهوات، وانبعثت همته للأعمال الصالحات.

قَصِّر الآمال في الدنيا تَفُزْ   فدليل العقل تقصير الأمل(٢)

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما قال: «أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمنكبي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»(٣).

قال الإمام ابن رجب ـ رحمه الله ـ تعليقاً على هذا الحديث: «وهذا الحديث أصل في قصر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطناً ومسكناً، فيطمئن فيها.

ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر يُهَيِّىء جهازه للرحيل.

---

(١) رسائل الإصلاح ١/ ٧٦.
(٢) لامية ابن الوردي ص ١٥.
(٣) أخرجه البخاري ٧/ ١٧٠، والبيهقي ٣/ ٣٦٩، وابن المبارك في الزهد (١٣) وابن حبان (٦٩٨).

وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم.

قال ـ تعالى ـ حاكياً عن مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝٣٩﴾ [غافر: ٣٩].»[١]

قال ابن عقيل ـ رحمه الله ـ: «ما تصفو الأعمال والأحوال إلا بتقصير الآمال؛ فإن كل من عدَّ ساعته التي هو فيها كمرض الموت حسنت أعماله، فصار عمره كلُّه صافياً»[٢].

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ «من تَفكَّر في عواقب الدنيا أخذ الحذر، ومن أيقن بطول الطريق تأهب للسفر»[٣].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «صدق التأهب للقاء الله من أنفع ما للعبد وأبلغه في حصول استقامته؛ فإن من استعد للقاء الله انقطع قلبه عن الدنيا وما فيها ومطالبها، وخمدت من نفسه نيران الشهوات، وأخبت قلبه إلى الله، وعكفت همته على الله، وعلى محبته، وإيثار مرضاته، واستحدثت همة أخرى، وعلوماً أخر، وولد ولادة أخرى تكون نسبة قلبه فيها إلى الدار الآخرة كنسبة جسمه إلى هذه الدار بعد أن كان في بطن أمه، فيولد قلبه ولادة حقيقية كما ولد جسمه حقيقة. وكما كان بطن أمه حجاباً لجسمه عن هذه الدار-فهكذا نفسه وهو حجاب لقلبه عن الدار الآخرة؛ فخروج قلبه عن نفسه بارزاً إلى الدار الآخرة كخروج جسمه عن بطن أمه بارزاً إلى هذه الدار»[٤].

وقال ـ رحمه الله ـ: «والمقصود أن صدق التأهب هو مفتاح جميع الأعمال الصالحة، والأحوال الإيمانية، ومقامات السالكين إلى الله،

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢/٣٧٧.

(٢) كتاب الفنون لابن عقيل ٢/٥٤٦.

(٣) صيد الخاطر ١/٣٦.

(٤) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ص ٢٩٧.

ومنازل السائرين إليه من اليقظة، والتوبة، والإنابة، والمحبة، والرجاء، والخشية، والتفويض، والتسليم، وسائر أعمال القلوب والجوارح؛ فمفتاح ذلك كله صدق التأهب، والاستعداد للقاء الله، والمفتاح بيد الفتاح العليم، لا إله غيره، ولا رب سواه»[١].

٣٢ ـ النظر إلى من هو أعلى في الفضائل وإلى من هو أدنى في أمور الدنيا:

فهذا من مقومات الهمم، ومن أسباب النهوض للمعالي؛ فينبغي لمتطلب الكمالات أن ينظر إلى من فوقه في أمور الدين، والتقوى، والصلاح، والعلم، والعبادة، والكرم، ومحاسن الأخلاق، وسائر الفضائل.

وأن ينظر إلى من دونه في أمور الدنيا من منصب، أو جاه، أو مال، أو صحة، أو بناء، أو مركب أو نحو ذلك...

قيل في منثور الحكم: «وإذا علمت فلا تفكر في كثرة من دونك من الجهال، ولكن انظر إلى من فوقك من العلماء»[٢].

وقال ابن العميد:

من شاء عيشاً هنيئاً يستفيد به   في دينه ثم في دنياه إقبالا
فَلْيَنْظرنَّ إلى من فوقه أدباً   ولينظرنَّ إلى من دونه مالا[٣]

فإذا أخذ المرء بهذا الأدب السَّني، وتوفر على اقتناء الفضائل، وألزم نفسه على التخلق بالمحاسن، ولم يرضَ من منقبة إلا بأعلاها، ولم يقف عند فضيلة إلا وطلب الزيادة عليها، واجتهد فيما يحسن سياسة نفسه عاجلاً، ويبقى لها الذكر الجميل آجلاً ـ لم يلبث أن يبلغ

---

(١) طريق الهجرتين ص ٢٩٨.
(٢) أدب الدنيا والدين ص ٧٢.
(٣) أدب الدنيا والدين ص ٧٣.

الغاية من التمام، ويرتقي إلى النهاية في الكمال، فيحوز السعادة الإنسانية، والرئاسة الحقيقية، ويبقى له حسن الثناء مؤبَّداً، وجميل الذكر مخلداً[١].

وإلى هذا المعنى العظيم يشير قول النبي ـ ﷺ ـ فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال: «**إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق ـ فلينظر إلى من هو أسفل ـ منه ممن فُضِّل عليه**» وزاد مسلم «**فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم**»[٢].

قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ: «هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهداً فيها ـ إلا وجد من هو فوقه؛ فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبداً في زيادة تقربه من ربه، ولا يكون على حال خسيسة من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أخس حالاً منه.

فإذا تفكر في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فُضِّل عليه بذلك من غير أمر أوجبه، فيلزم نفسه الشكر، فيعظم اغتباطه بذلك في معاده»[٣].

٣٣ ـ إدامة النظر في السيرة النبوية:

فالسيرة النبوية مليئة بالأحداث العظام، التي تبعث الهمة، وتوقظ العزمة.

فحياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلها مليئة بالجهاد، والصبر، والمصابرة، وصدق العزيمة، وعلو الهمة.

---

(١) انظر تهذيب الأخلاق للجاحظ ص ٦٠- ٦١.

(٢) البخاري مع الفتح (٦٤٩٠) ومسلم ٨/ ٢١٣.

(٣) فتح الباري ١١/ ٣٣٠.

ولا عجب في ذلك فهو سيد البشر، وخيرة الله من خلقه، وهو قدوة الناس أجمعين.

ولذلك لما بعثه الله؛ ليخرج العباد من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد أنشأ ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يؤسس مبادىء العزة والكرامة، فاجتث من الأنفس شجرة الذلة من جذورها، وأعتق رقاب الأمة من الاستكانة؛ مخافة أن تهوي بها إلى أدنى درجات الضعة والدناءة، ولم يألُ جهداً في إجراء دم الشهامة وكبر الهمة في عروقها الميتة، حتى أخرجها في قالب الكمال، لا تتردد إلا على أبواب الفضائل، ولا تبسط ساعديها إلا لمهمات الأمور[1].

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «من أراد خير الآخرة، وحكمة الدنيا، وعدل السيرة، والاحتواء على محاسن الأخلاق كلها، واستحقاق الفضائل بأسرها ـ فلْيقْتَدِ بمحمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليستعمل أخلاقه وسيره ما أمكنه، أعاننا الله على الاتساء به بِمَنِّهِ آمين»[2].

---

(١) انظر حياة الأمة ص ٢٩، ٣٠، والسعادة العظمى ص ٢٠٩ وانظر العظمة ص ٢٤-٢٨ لمحمد الخضر حسين.

(٢) الأخلاق والسير ص ٢٤، وانظر تفصيل ذلك في صيد الخاطر ٢/ ٤١٠- ٤١٣، وانظر الشمائل المحمدية للترمذي ص ١٨٦- ٢١٠ و ٢٦٢- ٢٨٣ تحقيق محمد عفيف الزعبي، وانظر الأنوار في شمائل النبي المختار للبغوي تحقيق الشيخ إبراهيم اليعقوبي ١/ ١٦١-٣٥٨، وأخلاق النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وآدابه لأبي الشيخ الأصبهاني تحقيق عصام الدين الصبابطي ص ١٣-٩٨، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني ص ٥٥١ـ٦٥٦، وإحياء علوم الدين ٢/ ٣٥٧ـ ٣٨٧، وشمائل الرسول ودلائل نبوته لابن كثير ١/ ٧٣ـ١٥٢، ومحمد رسول الله وخاتم النبيين لمحمد الخضر حسين.

٣٤ ـ مطالعة سير الأبطال والمصلحين والنابغين:

فإن مطالعة سيرهم، وقراءة تراجمهم، المحررة بأقلام تشرح نواحي العظمة فيهم، وتصف آثارهم، وتبين ما يخصه بهم عظماء الرجال من تقدير وتمجيد ـ كل ذلك مما يبعث الهمة، ويوقظ العزمة؛ ذلك أن حياة أولئك تتمثل أمام القارىء، وتوحي إليه بالاقتداء بهم، والسير على منوالهم.

ولم تخل أمة من أبطال لا يقرأ القارىء ترجمة حياتهم إلا ويشعر بأن روحاً جديداً دب فيه، وحرَّكه للإتيان بعظائم الأمور، وجلائل الأعمال.

وكثيراً ما دفع الناس إلى العمل الجليل حكاية قرؤوها عن رجل عظيم، أو حادثة رويت عنه[(١)].

وأمتنا الإسلامية ـ بحمد الله ـ غنية بالأبطال في شتى الميادين.

٣٥ ـ الرحلة والتقلب في كثير من البلاد:

ولاسيما التقلب في بلاد تختلف بعاداتها، وأساليب تربيتها، ومناهج حياتها العلمية والسياسية.

«ولعل نبوغ ابن خلدون في شؤون الاجتماع ذلك النبوغ الرائع ـ إنما جاءه من نشأته في تونس، ثم سياحته في بلاد الجزائر، والمغرب الأقصى، والأندلس، ثم مصر ـ سياحة اعتبار، سياحةً اتصل فيها برؤساء حكوماتها، وأكابر علمائها، بل سياحة كان يقبض فيها أحياناً على طرف من سياسة تلك البلاد»[(٢)].

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/٨١، والأخلاق ص ٦٥.

(٢) رسائل الإصلاح ١/١٨١، وانظر حياة ابن خلدون ومُثل من فلسفته الاجتماعية لمحمد الخضر حسين.

وإذا درسنا تاريخ العلماء والأدباء الذين رحلوا عن أوطانهم، ووجهنا النظر إلى ما نتج عن رحلاتهم من فوائد تعود عليهم أنفسهم وعلى قومهم، أو على الأوطان التي حلوا بها ـ وقفنا على فوائد عديدة، وعوائد حميدة، يقدرها الباحثون عن وسائل رقي الأفراد والجماعات.

فمن أنفس ما يكتسبه الرجل في رحلته أن يعلم أشياء لم يكن يعلمها من قبل؛ فكم من عالم لم يبلغ المقام الذي يشار إليه بالبنان إلا بالرحلة.

كما أن في الرحلة عوناً على التمكن من بعض الأخلاق السامية، مثل خلق الصبر؛ لكثرة ما يلاقيه الراحل من متاعب بدنية، وآلام نفسية.

ومثل أدب المدارة؛ فإن البعيد عن وطنه أشد شعوراً بالحاجة إلى الأدب ممن يعيش بين قوم يعرفون من حسبه ومكانة بيته ما يجعل صراحته خفيفة على أسماعهم.

كما أن الراحل لا يخلو من أن يلاقي في رحلته رجالاً صاروا مُثُلاً عالية في مكارم الأخلاق، فيزداد بالاقتداء بهم كمالاً على كمال.

ثم إن الألمعي قد ينشأ في نبوغ، فيضيق بلده عن أنظاره الواسعة، وتطلعاته البعيدة، فيرحل إلى مدينة تكون أوسع مجالاً للآراء والأخذ والرد، فتعظم مكانته، ويكثر الانتفاع بحكمته.

ولولا الرحلة لما عظم شأنه، ولما كثرت ثمرات نبوغه.

ومما يذكر في هذا الصدد «أن القاضي يوسف بن أحمد بن كج الدِّيْنَوَري قد بلغ في العلم مرتبة كبيرة، وقال له بعض من لقيه: يا أستاذ، الاسم لأبي حامد الغزالي، والعلم لك؟!

فقال القاضي: ذاك رفعته بغداد، وأنا حطتني الدِّيْنَوَرُ!»[(١)]

وربما أدرك الرجل في وطنه ضيق عيش يخشى أن يعوقه عن

---

(١) رسائل الإصلاح ٢/ ٧٩.

الازدياد في العلم، أو التفرغ لنشره بالتدريس والمذاكرة، فيرحل حيث يلقى كفافاً أو يساراً يساعده على أن يقبل على الدرس والبحث بنفس مطمئنة.

أما البلاد التي يُرتَحل منها فإنها تستفيد من جهة أن العالم يرحل من وطنه وهو يحمل علماً غزيراً، أو يتحلى بأدب سنيٍّ، ثم ينزل بين جماعات مختلفة، فيرونه مثالاً لأهل العلم والأدب من قومه، فيرتفع شأن قومه في أنظارهم.

ثم إن البلاد التي يُرحل منها قد تحظى بالعلم بعد انقطاعه عنها، أو تقوم سوقه فيها بعد خمولها، والفضل في ذلك لرجال يرحلون إلى الحواضر التي هي منبع العلوم، ثم يعودون وقد امتلأوا مما اغترفوا من العلوم والفنون(١).

أما البلاد التي يُرحل إليها فإنها تُفيد أيما فائدة ممن يفد إليها من العلماء والأدباء وأهل الفضل.

فرحلات العلماء والأدباء تنقل العلم والأدب من بلد إلى آخر على وجه أثبت وأنفع مما تنقله المؤلفات وحدها.

والأمثلة والشواهد على ما مضى كثيرة جدّاً، ولا أدل على ذلك في العصور الحديثة من رحلة العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي ـ عليه رحمة الله ـ فلقد رحل من بلاده شنقيط إلى الديار السعودية، فأفاد واستفاد، وارتفع شأنه، وعلت مكانته؛ حتى أصبح في مقدمة أهل زمانه في العلم والفضل(٢).

وقل مثل ذلك في شأن الشيخ الداعية عبدالله القرعاوي ـ عليه رحمة الله ـ الذي رحل إلى جنوب المملكة العربية السعودية، فدعا إلى الله، وحرص على نشر العلم، فنفع الله به نفعاً عظيماً تُرى آثاره إلى يومنا الحاضر(٣).

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ٢/ ٧٥ ـ ٨٥، والرحلات لمحمد الخضر حسين.

(٢) انظر رحلة الحج إلى بيت الله الحرام، للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وترجمة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، للشيخ عبدالرحمن السديس.

(٣) انظر الشيخ عبدالله بن محمد القرعاوي ودعوته في جنوب المملكة العربية السعودية تأليف موسى السهلي.

هذا وإن مما ينبغي التنبيه عليه أن السفر لا يذكي همة صاحبه، ولا يربي له ملكة الأدب ـ إلا إذا قارنته فِطْنةٌ مستيقظة، تبحث عن أسرار الاجتماع، وتدقق النظر في تمييز الحسن من المعيب؛ لأن من الناس من لا يزيدهم الاغتراب إلا خوراً في طباعهم، وانحلالاً في أخلاقهم، وعقائدهم.

قد غمسوا وجوههم في الخبائث، حتى نضب منها ماء الحياء، وانسدل عليها من السماجة قناعٌ كثيف.

بل إن منهم من تتمادى به القحة، فَيُغِيْرُ على العقائد تسفيهاً وتضليلاً خصوصاً ممن ارتمى في أحضان أعداء الله، فسافر إلى بلادهم بلا عقيدة تردعه، ولا إيمان يزمُّه.

ولو انزوت هذه الفئة في حنايا بيوتهم لكان خيراً لهم، وأخفَّ فتنة على السماعين لهم؛ فالسفر النافع ـ إذاً ـ ليس هو مبارحة الأوطان كيفما اتفق، ولا الجولان بالبلدان كيفما كان الحال.[١]

٣٦ ـ استشعار المسؤولية:

وذلك بأن يستشعر الإنسان مسؤوليته، ويعمل ما في وسعه ومقدوره، ويحذر كل الحذر من التهرب من المسؤولية، والإلقاء باللائمة والتبعة على غيره؛ فذو الهمة العالية يخوض معركة الحياة بعزم وإيمان؛ فلا ينتحل الأعذار للتخلص من الواجب، ولا يختلق الأسباب للتنصل من المسؤولية، بل لقد روَّض نفسه على تحمل المسؤوليات، والنهوض بالواجبات من غير ما ترددٍ أو إحجام؛ ذلك أن المسؤولية في الإسلام عامة، تشمل كل فرد من المسلمين؛ فهم جميعاً داخلون في عموم قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»[٢].

فالمسؤولية مشتركة، كل امرئ بحسبه، هذا بتعليمه وكلامه، وهذا

(١) انظر السعادة العظمى ص ١٢٩ ـ ١٣٢.
(٢) رواه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩).

بوعظه وإرشاده، وهذا بقوّته وماله، وهذا بجاهه وتوجيهه إلى السبيل النافع وهكذا.

فاستشعار المسئولية مما يبعث الهمة، ويقود إلى التنافس في الخير، وبه تستجلب الخيرات، وتنال الهداية والبركات.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾. [النساء: ٦٦ ـ ٦٨].

٣٧ ـ مصاحبة الأخيار وأهل الهمم العلية:

فهذا الأمر من أعظم ما يبعث الهمة، ويربي الأخلاق الرفيعة في النفس؛ فالإنسان مولع بمحاكاة من حوله، شديد التأثر بمن يصاحبه.

والصداقة الشريفة ـ لا صداقة المنفعة ـ تشبه سائر الفضائل من حيث رسوخُها في النفس، وإيتاؤها ثمراً طيباً في كل حين؛ فهي تُوجِد من الجبان شجاعة، ومن البخيل سخاء؛ فالجبان قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يخوض في خطر؛ ليحمي صديقه من نكبة.

والبخيل قد تدفعه قوة الصداقة إلى أن يبذل جانباً من ماله؛ لإنقاذ صديقه من شدة.

فالصداقة المتينة لا تحل في نفس إلا هذبت أخلاقها الذميمة.

فالمتكبر تنزل به الصداقة إلى أن يتواضع لأصدقائه، وسريع الغضب تضع الصداقة في نفسه شيئاً من كظم الغيظ، فيجلس إلى أصدقائه في حلم وأناة، وربما اعتاد التواضع والحلم، فيصير بعد ذلك متواضعاً حليماً[١].

بل إن كثيراً من النابغين يَعْزُون نبوغهم إلى أنهم وفقوا لاختيار صاحب أو أصحاب أثَّروا فيهم أثراً صالحاً، ونَبَّهوا فيهم قوى كانت خاملة[٢].

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ٢/٨.
(٢) انظر الأخلاق ص ٦٥.

فإذا ما وفق المرء لصحبة الأجلاء العقلاء من ذوي الدين والمروءة - فإن ذلك من علامات توفيقه، ومن مهيئات نبوغه.

فإذا كان الأمر كذلك فما أجدر المرء أن يبحث عن إخوان الثقات؛ حتى يعينوه على كل خير، ويقصروه عن كل شر.

قال ابن حزم - رحمه الله -: «من طلب الفضائل لم يساير إلا أهلها، ولم يرافق في تلك الطريق إلا أكرم صديق من أهل المواساة، والبر، والصدق، وكرم العشيرة، والصبر، والوفاء، والأمانة، والحلم، وصفاء الضمائر، وصحة المودة.

ومن طلب الجاهَ، والمالَ، واللذاتِ - لم يساير إلا أمثال الكلاب الكَلِبَة[1]، والثعالب الخَلِبة[2]، ولم يرافق في تلك الطريق إلا كل عدو المعتقد، خبيث الطبيعة»[3].

٣٨ - التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب:

فالتوكل في لسان الشرع إنما يراد به توجه القلب إلى الله حال العمل، واستمداد المعونة منه، والاعتماد عليه وحده؛ فذلك سر التوكل وحقيقته.

فالشريعة أمرت العامل بأن يكون قلبه منطوياً على سراج من التوكل والتفويض.

والذي يحقق التوكل هو القيامُ بالأسباب المأمور بها؛ فمن عطلها لم يصحَّ توكلُه؛ فلم يكن التوكل داعيةً إلى البطالة، أو الإقلال من العمل البتة.

بل كان له الأثر العظيم في إقدام عظماء الرجال على جلائل الأعمال، التي يسبق إلى ظنونهم أن استطاعتهم، وما لديهم من الأسباب الحاضرة

---

(١) الكلاب الكلبة: هي التي أصيبت بداء الكلب وهو السعار.

(٢) الخلبة: الخادعة.

(٣) الأخلاق والسير ص ٢٤ - ٢٥، وانظر كلاماً جميلاً في هذا المعنى في تذكرة السامع والمتكلم ص ٨٣ - ٨٥.

يَقْصُرَان عن إدراكها؛ ذلك أن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المراد ودفع المكروه، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق؛ فاعتماد القلب على قدرة الله، وكرمه، ولطفه يستأصل جراثيم اليأس، ومنابت الكسل، ويشد ظهر الأمل الذي يلج به الساعي أغوار البحار العميقة، ويقارع به السباع الضارية في فلواتها.

وأعظم التوكل على الله التوكلُ عليه ـ عز وجل ـ في الهداية، وتجريد التوحيد، ومتابعة الرسول، وجهاد أهل الباطل، وحصول ما يحبه الله ويرضاه من الإيمان، واليقين، والعلم، والدعوة، فهذا توكل الرسل وخاصة أتباعهم، لا توكل المغبونين من العاجزين وقاصري الهمم؛ لأن كثيراً من المتوكلين يكون مغبوناً في توكله، مع أنه قد توكل حقيقة التوكل.

وذلك كحال من صرف توكله إلى حاجة جزئية استفرغ فيها قوة توكله، مع أنه يمكنه نيلُها بأيسر شيء، وتفريغُ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان، والعلم، ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيراً؛ «فهذا توكل العاجز القاصر الهمة، كما يصرف بعضهم همته وتوكله، ودعاءه إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المعتدين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين»(١).

هذا هو التوكل في الحقيقة، فإذا فُسِّر بأنه قَبْضُ اليد عن العمل، وطرح الأسباب جملة ـ فذلك تفسير لا يُقرُّه الشرع الذي يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ويقول: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥].

ويقول: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠].

---

(١) مدارج السالكين ٢/ ١٢٥.

ويقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

ويقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

وما اقترن العزم الصحيح بالتوكل على من بيده ملكوت كل شيء إلا كانت العاقبة رشداً ونجاحاً ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وما جمع قوم بين الأخذ بالأسباب، وقوة التوكل على الله إلا أحرزوا الكفاية لأن يعيشوا أعزة سعداء(١).

وما بذل أحد جهده، وسعى في الأمور النافعة سعيه، واستعان بالله عليها، وأتاها من أبوابها ومسالكها ـ إلا وأدرك مقصوده، فإن لم يدركه كلَّه أدرك بعضه، وإن لم يدرك منه شيئاً لم يلم نفسه، ولم يذهب عمله سُدىً خصوصاً إذا ثابر ولم يتضجر.(٢)

ولعظم شأن التوكل أكثر الله من ذكره في القرآن العظيم، وبين حسن العاقبة للمتوكلين.

قال ـ تعالى ـ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٠].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٤].

وقال: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

وقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٩].

---

(١) انظر الفوائد لابن القيم ص ١٢٩-١٣٠ ومدارج السالكين ٢/ ١١٢ ـ ١٣٧، ورسائل الإصلاح ١/٥٨-٥٩ و ١/ ٧٠، والحرية في الإسلام ص ٣٣.

(٢) انظر الرياض الناضرة ص ٢١١.

وقال: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [يوسف: ٦٧].

وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨].

٣٩ ـ التفاؤل:

فإن ذلك مما يبعث الهمة، ويدعو إلى اطراح الكسل، وإلى الإقبال على الجد والعمل.

فإذا عمل المرء ما في وسعه، واستنفذ جهده وطاقته ـ فليثق بأن ربه لن يخذله، ولن يضيع عمله، وليحذر من اليأس والقنوط والتشاؤم؛ فإنها من أشد المثبطات، وأكبر المعوقات.

وهذا المذهب المهين ـ وهو اليأس والقنوط والتشاؤم ـ لا يعرفه الإسلام، ولا يرتضيه لأهله، بل يحذر منه أشد التحذير، ويُبَيِّن أن النجاح مأمول، وأن مع العسر يسراً.

ثم إن المتفاؤل واسع النظرة، فسيح الصدر، عالي الهمة، موفور النشاط.

بخلاف المتشائم؛ فهو فاتر الهمة، ثقيل الظل، متبلد كسول، لا تحدوه غاية، ولا يدفعه هدف، بل يعيش في عالم الأحلام والأوهام والخيال، ويشعر دائماً بالخيبة والخذلان، ويسيء ظنه بالآخرين، ولا ينظر إليهم إلا بعين الشك والريبة؛ فهو مغلق النفس، ضيق الصدر، يَتَّقِدُ حسداً، ويحترق غيرةً وكمداً؛ لعجزه عن الرقي في المكارم، ولقلة بحثه عن العوامل التي سببت له هذا المزاج الأسود، ولقلة سعيه في علاج ذلك المرض العضال، الذي قعد به وحط من قدره، فعاش على هامش الحياة صغير الشأن، خامل الذكر[1].

---

(١) انظر تكوين الشخصية د. نوري الحافظ ص ١١٤ ـ ١١٦.

٤٠ ـ القدرة على السرور والابتهاج بالحياة:

فهذا الأمر قريب من سابقه، أو هو إكمال له؛ فهو مما يبعث الروح، ويحيي الهمة، فالرجل المبتهج بالحياة يزيده ابتهاجه قوة إلى قوته، فيكون أقدر على الجد، وحسن الإنتاج، ومقابلة الصعاب من الرجل المنقبض الصدر، الممتلىء بالهم والغم.

والتجربة شاهد على أن المستبشرين الباسمين للحياة خير الناس صحةً، وأقدرهم على الجد والنشاط، وأقربهم إلى النجاح والفلاح، وأكثرهم سعادة واستفادة مما في أيديهم ولو كان قليلاً.

فالابتسام للحياة يضيئها، ويعين على احتمال متاعبها؛ فالعمل الشاق العسير يخف حمله بالنفس المشرقة المتفائلة.

فمن النعم الكبرى على الإنسان أن يعتاد النظر إلى الجانب المشرق في الحياة لا المظلم منها، وأن يُمنح القدرة على السرور يستمتع به إن كانت أسبابه، ويوجدها قدر المستطاع إن لم تكن.

ويخطىء كثير من الناس حين يظن أن أسباب السرور كلها في الظروف الخارجية، فيشترط؛ ليُسَرَّ مالاً، وبنين، وصحةً ونحوَ ذلك؛ فالسرور يعتمد على النفس أكثر مما يعتمد على الظروف الخارجية، وفي الناس من يشقى في النعيم، وفيهم من ينعم في الشقاء، وفيهم من لا يستطيع التبسم بكل ماله، وفيهم من يتبسم دائماً من أعماقه بأتفه ثمن وبلا ثمن.

وهناك نفوس تستطيع أن تخلق من كل شيء شقاءً ونكداً، وهناك نفوس تستطيع أن تخلق من كل شيء سعادة وأنساً.

وهناك مَنْ ينغص على نفسه وعلى من حوله من كلمة يسمعها، أو يؤولها تأويلاً سيئاً، أو من عمل تافه حدث له أو منه، أو من رِبْحٍ خسره، أو من ربح كان ينتظره فلم يحدث، أو نحو ذلك، فتراه بعد ذلك وقد اسودَّت الدنيا في نظره، ثم هو يُسَوِّدُها على من حوله.

وهؤلاء عندهم قدرة على المبالغة في الشر، فيجعلون من الحبة قبة،

ومن البذرة شجرة، وليس عندهم قدرة على الخير؛ فلا يفرحون بما أوتوا ولو كان كثيراً، ولا ينعمون بما نالوا ولو كان عظيماً.

فالمبتسمون للحياة ليسوا أسعد الناس حالاً لأنفسهم ومن حولهم فحسب، بل هم مع ذلك أقدر على العمل، وأكثر احتمالاً للمسؤولية، وأصلح لمواجهة الشدائد ومعالجة الصعاب، وأجدر بالإتيان بعظائم الأمور التي تنفعهم وتنفع الناس.

ولهذا إذا أراد الأدباء أن يبالغوا في الثناء على الممدوح، ويبينوا عظم همته، واستسهاله للصعاب ـ وصفوه بأنه يبتسم في أحلك المواقف وأشدها خطراً، قال أبوالطيب المتنبي يمدح سيف الدولة:

تَمُرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً ... ووجهك وضَّاحٌ وثغرك باسمُ[1]

فذو النفس الباسمة المشرقة يرى الصعاب، فيلذه التغلب عليها، ينظرها فيبسم، ويعالجها فيبسم، وينجح فيبسم، ويخفق فيبسم.

وذو النفس العابسة المتجهمة لا يرى صعاباً فيوجدها، وإذا رآها أكبرها، واستصغر همته بجانبها، فهرب منها، وطفق يسب الدهر، ويعاتب القدر، ويتعلل بـ (لو وإذا وإن).

هذا ومما يعين على السرور والابتهاج بالحياة أسباب كثيرة، ومن أهمها وأبرزها ما يلي:

أ ـ الإقبال على الله ـ عز وجل ـ: فهو أصل السعادة، وينبوعها الأعظم، وكل سرور بدون الإقبال على الله لا يعد سروراً في الحقيقة؛ فمن أراد السرور فليقبل على الله بكُلِّيته، حُبّاً، وذكراً، وإنابة، وخوفاً، ورجاءً، ونحو ذلك من سائر العبوديات.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه، ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه ـ إلا الله ـ سبحانه ـ ومن عبد

(١) ديوان المتنبي بشرح العكبري ٢/ ٣٨٧.

غير الله ـ وإن أحبه، وحصل به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة ـ فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل الطعام المسموم»[١].

وقال: «فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن بالدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحاً فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذات، أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت، وفي بعض الأحوال، وتارة يكون ذلك الذي يتنعم به والتذ غير منعم ولا ملتذ له، بل قد يؤذيه اتصاله به، ووجوده عنده.

أما إلهه الحق فلابد له منه في كل حال وكل وقت، وأينما كان فهو معه»[٢].

ب ـ طهارة القلب، وسلامة المقاصد: فكل إنسان يرى الدنيا من خلال عمله، وفكره، وبواعثه؛ فإذا كان عمله حسناً، وقلبه طاهراً، ومقاصده سليمة ـ كان منظاره الذي ينظر به إلى الدنيا صافياً نقيّاً، فرأى الدنيا جميلة كما خلقت، فسعد بنفسه، وأسعد غيره، وإلا تَغَبَّش منظاره، وأسود زجاجه، وساء ظنه بنفسه وبغيره، فرأى كل شيء أسود مُغبَّشاً.

ج ـ البعد عن مواطن الإثارة قدر المستطاع: فمن علم أن شيئاً معيناً يهيجه فَلْيَنْأَ عنه، وليبتعد عن الأوساط التي تسببه؛ فإذا تمت راحته تم فرحه وسروره.

ومما يحسن في هذا الصدد أن يحمي المرء نفسه من مؤثرات الخوف، سواء ما يثيره في نفسه، أو ما يثيره من حوله؛ فإن الخوف من الأمراض التي تنغص الحياة، وتذهب بالسعادة، فهو مرض خطير قلَّ أن يسلم منه

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٢٤.
(٢) مجموع الفتاوى ١/ ٢٤ ـ ٢٥.

إنسان، وهو أشكال وألوان، وهو مما يوجه أعمال الإنسان طوع إشارته وحسب إيحائه، وهو في كثير من الأحيان يصد عن العمل، ويشل قوة التفكير، ويسبب اليأس ويفقد الأمل، هذا وسيأتي مزيد بيان عن الخوف فيما بعد.

د ـ **قوة الاحتمال**: ذلك أن من أكبرِ أسبابِ الشقاء رخاوةَ النفس، وانزعاجَها العظيمَ للشيء الحقير؛ فما أن يصاب المرء بالتافه من الأمر حتى تراه حرج الصدر، لهيف القلب، كاسف الوجه، ناكس البصر، تتناجى الهموم في صدره، فَتُقِضُ مضجعه، وتؤرق جفنه، وهي وأكثر منها لو حدثت لمن هو أقوى منه احتمالاً لم يلق لها بالاً، ولم تحرك منه نفساً، ونام ملء جفونه رضيَّ البال، قرير العين.

هـ ـ **التمرين**: فالصانع يكتسب صناعته بالتمرين، والموظف يتقن عمله بالتمرين، والأخلاق الفاضلة أو الرذيلة حسب الاستعداد والتمرين.

وكذلك الشأن في مقابلة الحياة بالحزن والألم، أو الابتهاج والسرور.

و ـ **سلامة الذوق**: فمن أهم أسباب السرور والابتهاج بالحياة أن يكون للمرء ذوق سليم مهذب، يعرف كيف يستمتع بالحياة، ويحترم شعور الناس، ولا ينغص عليهم، بل ويدخل السرور على أنفسهم؛ فالذوق السليم يستجلب القلوب، ويدخل السرور على نفس صاحبه ومن حوله.

بل إن رقي الذوق قد يكون أكثر أثراً في سعادة الأمم من رقي العقل؛ ذلك أن الذوق إذا رقى أَنِفَ من الأعمال الخسيسة، والأقوال النابية، والأفعال السخيفة.

والذوق السليم إذا رقى في الأمة رقَّى أخلاقها، وسما بهممها.

ز ـ **محاربة اليأس**: فليس يُعَبِّسُ الوجه والنفس كاليأس؛ فاعتقادك أن لا مستقبل لك، ولا أمل في حياتك، ولا خير ينتظرك ـ سُمٌّ قاتل، وسجن مظلم، يصد النفس ويقمعها، ولا يزال بالإنسان حتى يهلكه.

وعلى العكس من ذلك فإن توقُّعَه الخيرَ، وأمله في الحياة يحمله على

أن يوسع معارفه في الحياة، وعلى الجد فيما اختاره من صنوف العيش، وعلى استعمال ما وهبه الله خير استعمال.

فإذا أردت السرور فحارب اليأس، واقطع أسبابه، وعود نفسك الأمل، وتوقُّع الخير في المستقبل.

ح ـ طرد الهم ومحاربة الكآبة: فالاستسلام للحزن، والإغراق في التشاؤم، والاسترسال مع الهم، والخوف من توقُّع المكروه، والإفراط في تقدير الآلام ـ مما يضعف الحياة، ويقلل الإنتاج، ويزيد الآلام، ويضاعف البؤس والشقاء؛ فحارب الكآبة من نفسك، وادرأ الهم ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وابتسم للحياة، وابتهج بها من غير إسراف ـ تزددْ حياتك قوة، وتشعر بالسرور والسعادة.

قال الشافعي ـ رحمه الله ـ :

سهـرت أعيـنٌ ونـامـت عيـونٌ ... فـي أمـور تكـون أو لاتكـونُ

فادرإ الهم ما استطعت عن النفـ ... ـس فحمـلانُـك الهمـومَ جنـونُ

إن ربّـاً كفـاك بـالأمـس مـا كـا ... ن سيكفيك في غدٍ ما يكونُ[1]

ط ـ سعة الأفق: لأن من أهم أسباب الحزن ضيقَ الأفق، وكثرة تفكير الإنسان في نفسه، حتى كأنها مركز العالم، وكأن الشمس، والقمر، والنجوم، والسعادة، والرخاء كلها خلقت لشخصه؛ فهو يقيس كل المسائل بمقياس نفسه، ويديم الفكر فيها، وفي علاقة العالم بها.

وهذا ـ من غير ريب ـ يوجد البؤس والشقاء والحزن؛ فمحال أن يجري العالم على وَفْق ما تريده نفسه؛ لأن نفسه ليست هي المركز، وإنما هي نقطة صغيرة على المحيط العظيم.

فإنْ هو وسَّع أفقه، ونظر إلى العالم الفسيح من حوله، ونسي نفسه أحياناً، ونسي نفسه كثيراً في سبيل مصلحة عامة أو نحو ذلك ـ شعر بأن

---

(١) ديوان الشافعي جمع الزعبي ص ٨٥.

الأعباء التي ترزح تحتها نفسه، والقيود الثقيلة التي ينوء بها كاهله ـ قد خفَّت كثيراً، وتحللت شيئاً فشيئاً.

وهذا هو السبب في أن أكثر الناس فراغاً هو أشدهم ضيقاً بنفسه؛ لأنه يجد من زمنه ما يطيل التفكير فيها، فإنْ هو استغرق في عمله، وفكر في أمته كان له من ذلك لذة مزدوجة: لذة الفكر والعمل، ولذة نسيان الهموم.

قال الرافعي ـ رحمه الله ـ «إذا استقبلت العالم بالنفس الواسعة رأيت حقائق السرور تزيد وتتسع، وحقائق الهموم تصغر وتضيق، وأدركت أن دنياك إن ضاقت فأنت الضيِّق لا هي»[1]

ي ـ **التضحية**: فالتضحية أفق واسع، وظلال وارف، تنعم فيه النفس بجمال السعة، وبُعد المدى.

بخلاف الأنانية والأثرة؛ فهي أفق ضيِّق، تألم فيه النفس بضيق المكان، وتنقبض من كثرة السدود والحدود؛ فالتضحية من أجمل ما وصل إليه الإنسان، ومنظرها أجمل منظر وأروعه، ولا تكون التضحية حتى يتعود القلب لذة العطاء كما يتعود لذة الأخذ، وأن يحسن المرء للآخرين وأن يحب لهم ما يحبه لنفسه.

ك ـ **القناعة**: لأن الشَّرِهَ سجينٌ للمطالب، أسير للشهوات، فكلما نالت نفسه شهوة من شهوات الدنيا تاقت إلى غيرها، فإذا لم يتحقق له مراده تنغصت حياته، وزادت آلامه وحسراته.

وعيبه ليس في ظروفه المحيطة به، ولكن في نفسه الجشعة، ولو مستها القناعة لقلت آلامها.

ل ـ **وبالجملة**: فأكثر ما مضى وما سيأتي ذكره من أسباب اكتساب الهمة العالية يعد من أسباب السرور والسعادة؛ فابتهج بالحياة تصفُ لك الحياة،

---

(١) وحي القلم ١/ ٥٠.

وتفاءل تعش في زمرة السعداء، وابتسم للصعوبة إذا اعترضتك، وابتسم إذا نجحت، وابتسم إذا أخفقت[١].

على ألا يكون سرورك وابتهاجك بالحياة موصلاً للأشر والبطر؛ فإن ذلك منقصة ومَذَمَّة.

٤١ ـ الصبر والمصابرة، والجد والمثابرة:

فالصبر خصلة محمودة، وخلة مرغوبة، وعلاج ناجع، ودواء نافع، عواقبه جميلة، وآثاره حميدة، وفوائده جمة، وعوائده كريمة.

ولهذا أكثر الله من ذكره في كتابه، وأعلى منزلته، وأثنى على أهله.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾. [الزمر: ١٠].

وقال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾. [الشورى: ٤٣].

وقال: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾. [النحل: ١٢٧].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ ﴾. [آل عمران: ٢٠٠].

وقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ﴾. [البقرة: ١٥٥].

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: «**ومن يتصبر يصبره الله**»[٢].

فمن أراد أن يكون متناهياً في الفضل، عالياً في ذرى المجد، حاوياً قصب السبق، مستولياً على أمده، فائزاً بخيري الدارين ـ فعليه أن يتدرع بالصبر ويتذرع به، وأن يتكلفه ويوطن نفسه عليه، وأن يتجرع مرارته؛ ليذوق حلاوته.

والصبر مثل اسمه مرٌّ مذاقته ... لكن عواقبه أحلى من العسل

---

(١) انظر تفصيل الحديث عن هذا في فيض الخاطر ٢/١٩٧ـ ٢٠٥ و ٤/ ٢٠٣ و ٦/١٢٦ ـ ١٢٩ و ٢٤٤ و١٠/٢٠٦ ـ ٢٠٩ و٢٢٣. وانظر الوسائل المفيدة للحياة السعيدة لابن سعدي.

(٢) رواه البخاري ٣/ ٢٦٥ ومسلم (١٠٥٣).

فإذا تحلى بالصبر، وأصبح سجية له وطبعاً ـ نال مطلوبه، وأدرك مراده.

وقـل مـن جـد فـي أمـر تطلبـه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر

فمن كان محبًّاً للعلم، راغباً في تحصيله، وكان ذا قريحة صافية، وذكاء مفرط ـ لم يَكْفِهِ ذلك ما لم يصحبه حرص وجد، وصبر ومصابرة.

قال الإمام الشافعي ـ رحمه الله ـ:

اصبر على مرِّ الجفا من معلم فـإن رسـوبَ العلـم فـي نفـراتـه
ومن لم يَذُقْ مُرَّ التعلم ساعة تجرَّع مُرَّ الجهل طول حياته
ومن فاته التعليمُ وقتَ شبابه فَكَبِّـرْ عليـه أربعـاً لـوفـاتـه[1]

«وعن بعض السلف: من لم يصبر على ذل التعليم بقي عمره في عماية الجهل، ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الدنيا والآخرة»[2].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وأما سعادة العلم فلا يورثك إياها إلا بذل الوسع، وصدق الطلب، وصحة النية»[3].

ومن كان متصدياً للدعوة إلى الإصلاح، منبرياً للدفاع عن الحق ـ فما أشد حاجته للصبر، وتوطين نفسه على المكاره؛ فإن في ذلك السبيل عقبةً لا يقتحمها إلا ذوو الهمم الكبيرة؛ فإن في طوائف المبطلين أو المفسدين نفوساً طاغية، وأحلاماً طائشة، وألسنة مقذعة، وربما كانت فيه أيدٍ باطشة، وأرجلٌ إلى غير الحق ساعية.

وإنما تعظم هممهم بقدر صبرهم، وبقدر ما يتوقعونه من فقد محبوب، أو لقاء مكروه[4].

---

(١) ديوان الشافعي تحقيق خفاجي ص ٨٣.
(٢) تذكرة السامع والمتكلم ص ٩١.
(٣) مفتاح دار السعادة ١/١٠٨.
(٤) انظر رسائل الإصلاح ٢/٩٢.

فلابدَّ لهم من الصبر على دعوة الناس، ولابد لهم من الصبر على انتظار النتائج؛ لأن استعجال الثمرة قد يؤدي إلى نتائج عكسية تضر أكثر مما تنفع؛ فالصبر إذا اقترن بالأمر كان عصمةً للداعية من الانقطاع، وتفجرت بسببه ينابيع العزم والثبات.

إنه الصبر المترع بأنواع الأمل العريض، وليس صبرَ اليائسِ الذي لم يجد بدّاً من الصبر فصبر[١].

بل إن كل أحد من الناس لابد له من الصبر على بعض ما يكره؛ إما اختياراً أو إما اضطراراً؛ فالكريم يصبر اختياراً؛ لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يحمد عليه، ويذم على الجزع، وأنه إن لم يصبر لم يردَّ عليه الجزع فائتاً، ولم ينتزع عنه مكروهاً، فمن لم يصبر صبر الكرام سلا سلوَّ البهائم[٢].

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: «وجدنا خير عيشنا بالصبر»[٣].

وقال: «أفضل عيش أدركناه بالصبر، ولو أن الصبر كان من الرجال كان كريماً»[٤].

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: «الصبر مطية لا تكبو»[٥].

وقال الحسن ـ رحمه الله ـ: «الصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عنده»[٦].

---

(١) انظر من صفات الداعية د. محمد الصباغ ص ٥١.
(٢) انظر عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص ٧٤.
(٣) عدة الصابرين ص ١٢٤.
(٤) عدة الصابرين ص ١٢٤.
(٥) عدة الصابرين ص ١٢٤.
(٦) عدة الصابرين ص١٢٤.

هذا وإن أعظم الصبر وأحمده عاقبة ـ الصبر على امتثال ما أمر الله به، والانتهاء عما نهى الله عنه؛ لأن به تَخْلُصُ الطاعة، ويَصِحُّ الدين، وتُؤَدىٰ الفروض، ويُسْتَحَقُّ الثواب؛ فليس لمن قل صبره على طاعة الله حظ من بر، ولا نصيب من صلاح.

ومن الصبر المحمود الصبرُ على ما فات إدراكُه من رغبة مرجوَّة، وأعوز نيلُه من مسرة مأمولة؛ فإن الصبر عنها يعقب السلوَّ منها، والأسف بعد اليأس خرق.

ومن جميل الصبرِ ـ الصبرُ فيما يخشى حدوثه من رهبة يخافها، أو يحذر حلوله من نكبة يخشاها؛ فلا يتعجل همَّ ما لم يأت؛ فإن أكثر الهموم كاذبة، وإن الأغلب من الخوف مدفوع.

ومن ذلك ـ أيضاً ـ الصبر على ما نزل من مكروه، أوحل من أمر مَخُوف؛ فبالصبر في هذا تنفتح وجوهُ الآراء، وتُستدفع مكائد الأعداء؛ فإن من قلَّ صبرهُ عزب رأيه، واشتد جزعه، فصار صريع همومه، وفريسة غمومه.(١)

٤٢ ـ توطين النفس على الاعتدال حال السراء والضراء:

فالإنسان في هذه الحياة الدنيا يتقلب في أحوال عديدة، فقد يبتلى بالفقر وقلة ذات اليد، وقد ينال نصيباً وافراً من عرض الدنيا، وقد يصاب بالمرض، وقد تدركه الشيخوخة ويضعفه كبر السن، وقد ينال ولاية وشهرة وبُعْدَ صيتٍ، وقد يَعْقُبُ ذلك عزلٌ، وذلٌّ وخمولُ ذكر.

ولهذه الأمور وغيرها أثر بالغ في النفس؛ فالفقر قد يقود إلى الذلة، ويدعو إلى الخنوع.

---

(١) انظر أدب الدنيا والدين ص ٢٨٧ـ٢٩٠.

والغنى قد تتغير به أخلاق اللئيم بطراً، وتسوء طرائقه أشراً، وقد قيل: من نال استطال[١].

وقال بعضهم:

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروةً فأصبحت ذا يسرٍ وقد كنت ذا عسر
لقد كشف الإثراءُ منك خلائقاً من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر[٢]

ثم إن المرض قد يتغير به الطبع، فلا تبقى الأخلاق على اعتدال، ولا يقدر معها المرء على احتمال.

كذلك كِبَر السن قد يُضعف النفس كما يضعف الجسم، فتعجز النفس عن أثقال ما كانت تصبر عليه من مخالفة الهوى، والصبر على الأذى.

وكذلك الولاية قد تُحدث في الأخلاق تَغَيُّراً، وعلى الخلطاء تنكراً؛ إما من لؤم طبع، وإما من ضيق صدر[٣].

ولهذا قيل: «من تاه في عزله ذل في ولايته»[٤].

قال يحيى بن الحكم: «والله لقد ولي الحجاج وما عربيٌّ أحسن أدباً منه، فطالت ولايته، فكان لا يسمع إلا ما يحب، فمات وإنه لأحمقُ سيِّيء الخلق»[٥].

وفي مقابل ذلك العزلُ؛ فقد يسوء به الخلق، ويضيق به الصدر؛ إما لشدة أسف، أو لقلة صبر.

وكذلك الشهرة وبعد الصيت قد يصحبها تغير في الأخلاق، وترفع على الأقران والأصحاب.

قال البارودي:

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢٤٤.
(٢) أدب الدنيا والدين ص٢٤٤..
(٣) انظر الدنيا والدين ص ٢٤٤.
(٤) أدب الدنيا والدين ص ٢٤٤.
(٥) العزلة للخطابي ص ٢٣٤.

وكـذا اللئيـمُ وإذا أصـاب كـرامـة   عادى الصديق ومال بالإخوان[١]

ولهذا يحسن بذي الهمة والشرف الرفيع - أن يوطن نفسه على لزوم الاعتدال حال السراء والضراء؛ فذلك من مقومات الهمة العالية، ومن مظاهر المروءة الصادقة.

قال الله ـ تعالى ـ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

وقال ـ عز وجل ـ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦].

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «فمن تَلَمَّحَ بحر الدنيا، وعلم كيف تُتَلقى الأمواج، وكيف يصبر على مدافعة الأيام ـ لم يستهولْ نزول بلاء، ولم يفرح بعاجل رخاء»[٢]

قال أحدهم:

تجري الأمور على حكم القضاء وفي   طيِّ الحوادث محبوبٌ ومكروهُ
وربما سرني ما كنت أحذره   وربما ساءني ما كنت أرجوه[٣]

وقال الآخر:

ولا خير فيمن لا يُوَطِّنُ نفسه   على نائبات الدهر حين تنوب[٤]

ومن هنا فذو الهمة والمروءة لا تبطره النعمة، ولا تُقَنِّطُهُ المصيبة، ولا تطيش به الولاية في زهو، ولا ينزل به العزل في حسرة، ولا يحمله الغنى

---

(١) ديوان البارودي ٤/ ٥٣.
(٢) صيد الخاطر ٢/ ٢٤٣.
(٣) جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى للغرناطي تحقيق د. صلاح جرار ٣/ ٥٢.
(٤) الأصمعيات ص ١٨٤.

على الأشر والبطر، ولا ينحط به الفقر إلى الذلة والخنوع.

قال كعب بن زهير ـ رضي الله عنه ـ في قصيدته المشهورة- البردة- :

لا يفرحون إذا نالت رماحُهُمُ   قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا(١)

فهو يمدح الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بأنهم لا يفرحون من نيلهم عدواً؛ فتلك عادتهم، ولا يجزعون إذا نالهم العدو؛ لأن عادتهم الصبر والثبات.

وقال عبدالعزيز بن زرارة الكلابي:

كلاً بلوتُ فلا النعماءُ تُبطرني   ولا تَخَشَّعْتُ من لأوائها جزعا(٢)

وقال البعيث:

ولست بمفراحٍ إذا الدهرُ سَرَّني   ولا جازعٍ من صرفه المتقلب(٣)

وقال ذو الخِرَق الطُّهوي:

فيئي إليك فإنا معشر صُبُرٌ   في الجدب لا خِفَّةٌ فينا ولا نزق(٤)

وقال علي بن المقرب العيوني:

فما أنا في السراء يوماً فَرُوحُها   ولا أنا في الضراء يوماً جزوعُها(٥)

وقال سالم بن قتيبة: «ما تكبر في ولايته إلا من كَبُرت عنه، ولا تواضع لها إلا من كبر عنها»(٦).

وقال الإمام ابن قتيبة: «وفي كتاب كليلة ودمنة: ذو العقل لا تبطره المنزلة والعز، كالجبل لا يتزعزع وإن اشتدت به الريح.

والسَّخيف يبطره أدنى منزلة، كالحشيش يحركه أضعف ريح»(٧).

---

(١) ديوان كعب بن زهير، صنعه السكري، شرح ودراسة د. مفيد قميحة ص ١١٦.
(٢) مع الرعيل الأول لمحب الدين الخطيب ص ١٧٤.
(٣) عيون الأخبار ١/ ٢٧٦، وينسب البيت لتأبط شرّاً، انظر عيون الأخبار ١/ ٢٨١.
(٤) الأصمعيات ص ١٢٤.
(٥) علي بن المقرني العيوني حياته ـ شعره ص ٢٢٧.
(٦) بهجة المجالس ٢/ ٤٤٧.
(٧) عيون الأخبار ١/ ٢٨١.

وقال أحد الحكماء:

خلقان لا أرضى اختلافهما ... تيهُ الغنى ومذلةُ الفقرِ
فإذا غنيت فلا تكن بَطِراً ... وإذا افتقرت فَتِهْ على الدهر
واصبر فلست بواجدٍ خُلُقاً ... أدنى إلى فرج من الصبر[(١)]

فإذا لزم المرء هذه الطريقة؛ فلم يَخِفَّ عند السراء، ولم يتضعضع حال الضراء ـ فأحرِ به أن يعلو قدره، ويتناهى سؤدده، وتكمل مروءته.

ولهذا لو أنعمت النظر في تراجم العظماء من الرجال ـ لألفيت أن لهذه الخصلة نصيباً وافراً من سيرهم، ولأدركت أنها كانت سبباً كبيراً في نبوغهم وألمعيتهم.

فهم يتلقون المسارَّ والمحابَّ بقبول لها، وشكر لله عليها، واستعمال لها بما ينفع، واستعانة بها على أمور الدين والدنيا؛ فيحصل لهم من جرَّاء الفرح بها، ورجاء خيرها وبركاتها ـ أمور عظيمة، تتضاعف بها مسراتهم.

ويتلقون المكاره، والمضار، والهموم، والغموم ـ بالرضا، والشجاعة، والاحتساب، وبالمقاومة لما يمكنهم مقاومتُه، وتخفيف ما يستطاع تخفيفه، وبالصبر الجميل لما لابد لهم منه؛ فيحصل لهم من آثار المكاره ـ من الرضا، والصبر، والاحتساب، والتجارب، وصلابة العود ـ أمورٌ عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار، والآمال الطيبة.[(٢)]

فهذا عمر بن عبدالعزيز ـ على سبيل المثال ـ كان يقول: «أصبحت والسراء والضراء مطيَّتان على بابي، لا أبالي على أيهما ركبت»[(٣)].

---

(١) عيون الأخبار ١/٢٣٨.
(٢) انظر الوسائل المفيدة للحياة السعيدة ص ٩ ـ ١٤.
(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبدالعزيز الخليفة الخائف الخاشع لعمر بن محمد الخضر المعروف بالملاء، تحقيق د. محمد صدقي البورنو ٢/٤٣٦.

ويقول: «أصبحت ومالي سرور إلا في انتظار مواقع القدر؛ إن تكن السراء فعندي الشكر، أو تكن الضراء فعندي الصبر»[١].

ولقد صدق - رحمه الله - فيما يقول؛ فقد لزم الاعتدال في جميع الأحوال، فكان شاكراً في سرائه، متجملاً متجلداً في ضرائه، متواضعاً في سيرته، شيمته الحلم، وزينته الصفح والعفو، لم تطِشْ به الولاية في زهو، ولم تنزل به المصائب في حسرة.

«روي أن رجلاً نال من عمر بن عبدالعزيز فلم يجبْه، فقيل له: ما يمنعك منه؟ قال: التَّـقيُّ مُلْجَمٌ»[٢].

وعن عبدالملك، أو قيس بن عبدالملك قال: «قام عمر ابن عبدالعزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار[٣]، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يحبس دونه، فرماه بالطومار، فالتفت عمر، فوقع في وجهه، فشجَّه.

قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم في الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار، وأمر له بحاجته، وخلى سبيله»[٤].

«وروي أن عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة خرج ليلة في السحر إلى المسجد ومعه حَرَسِيٌّ، فمرَّ برجل نائم على الطريق، فعثُر به فقال له: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا.

فهمَّ الحرسيُّ به، فقال له عمر: مهْ؛ فإنه سألني أمجنون أنت؟ فقلت: لا»[٥].

وعن الربيع بن سبرة قال: «لما هلك عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز،

---

(١) الكتاب الجامع ٢/ ٤٣٣-٤٣٣. وانظر سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم ص ٩٧، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ١/ ٢٨٧.
(٢) الكتاب الجامع ٢/ ٤٢٤.
(٣) الطومار: صحيفة مطوية.
(٤) الكتاب الجامع ٢/ ٤٢٣-٤٢٤.
(٥) الكتاب الجامع ٢/ ٤٣٦-٤٣٧.

وسهل بن عبدالعزيز ومزاحم مولى عمر في أيام متتابعة ـ دخلْتُ على عمر فقلت: أعظم الله أجرك يا أمير المؤمنين، والله ما رأيت مثل ابنك ابناً، ولا مثل أخيك أخاً، ولا مثل مولاك مولى قط، فطأطأ عمر رأسه.

فقال لي رجل معي على الوسادة: لقد هَيّجْتَ عليه، قال: ثم رفع عمر رأسه وقال: كيف قلت الآن ياربيع؟ فأعدتُ عليه ما قلت أولاً.

فقال: لا والذي قضى عليهم بالموت ما أحب شيئاً من ذلك لم يكن»[١].

«وروي أن عمر بن عبدالعزيز لما دفن ولده عبدالملك وعاد ـ مرَّ بقوم يرمون، فلما رأوه أمسكوا، فقال: ارموا ووقف، فرمى أحد الرامِيَيْنِ فأخرج[٢]، فقال له عمر: أخرجت فقصِّر، وقال للآخر: ارم، فرمى فقصَّر، فقال له عمر: قصَّرْت؛ فبلِّغ.

فقال له: مسلمة: يا أمير المؤمنين، أَتُفْرِغُ قلبك إلى ما تفرغت له، وإنما نَفَضْتَ يدك الآن من تراب قبر ابنك ولم تصل إلى منزلك؟

فقال له عمر: يا مسلمةُ، إنما الجزع قبل المصيبة، فإذا وقعت المصيبة فالْهُ عما نزل بك»[٣].

«وروي أن عمر بن عبدالعزيز كتب إليه بعض الناس يعزيه بموت ابنه عبدالملك، فقال عمر لكاتبه: اكتب، ودقق القلم: أما بعد فإن هذا أمر كنا وطَّنا نفوسنا عليه، فإذا نزل بنا لم نكرهه والسلام»[٤].

وعن الضحاك بن عثمان قال: «لما انصرف عمر بن عبدالعزيز عن قبر سليمان بن عبدالملك- صُفَّت له مراكب سليمان، فقال:

---

(١) الكتاب الجامع ٢/ ٤٢٧.
(٢) أخرج: أي كانت الرمية أبعد من الهدف، والتقصير بخلافه.
(٣) الكتاب الجامع ٢/ ٤٣٧.
(٤) الكتاب الجامع ٢/ ٤٣٧-٤٣٨.

ولولا التقى ثم النُّهى خشيةَ الردى لعاصيت في حبِّ الصبا كلَّ زاجر
قضى ما قضى فيما قضى ثم لا يرى لـه صبوة أخرى الليـالـي الغـوابـر

ثم قال: إن شاء الله، لا قوة إلا بالله، قدموا إليَّ بغلتي»[١].

ومن أكابر السادات، ومن ذوي الفضل والمروءات قيس بن عاصم المنقري؛ فلقد كان ذا نفس مطمئنة لا تزعزعها الأعاصير؛ فلقد وطَّنها على كل وارد يرد.

«قيل للأحنف بن قيس: ما أحلمك!

قال: تعلمت الحلم من قيس بن عاصم المنقري؛ بينا هو قاعد بفنائه، مُحْتَبٍ[٢] بكسائه أتَتهُ جماعةٌ فيهم مقتول، ومكتوف، وقيل له: هذا ابنك قتله ابن أخيك!

فوالله ما حلَّ حُبْوتَه حتى فرغ من كلامه، ثم التفت إلى ابن له في المجلس، فقال له: قُمْ فأطلقْ عن ابن عمك، ووارِ أخاك، واحمل إلى أمه مائةً من الإبل؛ فإنها غريبة، ثم أنشأ يقول:

إنـي امـرؤ لا شـائـن حسبـي دنَـسٌ يُغيِّـرُه ولا أَفْـنُ[٣]
مـن منقـرٍ فـي بيـت مكـرمـةٍ والغصـن يَنْبُـتُ حـولـه الغُصْـنُ
خطبـاءُ حيـن يقـول قـائلهـم بيـض الـوجـوه أعِفَّـة لُسْـنُ
لا يَفْطَنـون لعيـب جـارِهِـمُ وهـمُ لحفـظ جـواره فُطْـنُ

(١) صفة الصفوة ٢/ ٨٠.

(٢) محتب: من الاحتباء، وهو أن يضم الإنسان رجليه إلى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره، ويشده عليها، وقد يكون الاحتباء بالعمامة أو اليدين عوض الثوب، ويقال: احتبى الرجل وإذا جمع ظهره وساقيه بثوبه، أو يديه، أو عمامته. انظر لسان العرب ١٤/ ١٦١.

(٣) أفن: الأفن النقص.

ثم أقبل على القاتل فقال: قتلت قرابتك، وقطعتَ رحمك، وأقللت عدوك، لا يبعدِ الله غيرك»[١].

وإذا أردت أعظم مثال للاعتدال حال السراء والضراء ـ فالق نظرة عجلى على سيرة نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وأقرب شاهد على ذلك أنه لم يَحِدْ عن سبيل الزهد في هذه الحياة قيد أنملة؛ فَعَيشُه يوم كان يتعبد في غار حراء كعيشه يوم أَظَلَّت رايته البلاد العربية، وأطَلّت على ممالك قيصر من ناحية تبوك.

وكذلك مضاؤه في سبيل الدعوة، فقد قام يدعو إلى الهدى ودين الحق، ويلقى من الطغام والطغاة أذى كثيراً، فيضرب عنه صفحاً أو عفواً، ويمضي في سبيله لا يأخذه يأس، ولا يقعد به ملل، ولا يثنيه جزع.

وقد ظهر دين الله، وعلت كلمته بهذا العزم الذي تخمد النار ولا يخمد، وينام المشرفي ولا ينام[٢].

قال ابن القيم: «فإذا جئت إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتأملت سيرته مع قومه، وصبره في الله، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله، وتلوُّن الأحوال عليه، من سلْمٍ، وخوف، وغنىً، وفقر، وأمن، وإقامة في وطنه، وظعن عنه، وتركه لله، وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول، والفعل، والسحر، والكذب، والافتراء عليه، والبهتان، وهو مع ذلك صابر على أمر الله، يدعو إلى الله. فلم يؤذَ نبي ما أوذي، ولم يحتمل في الله ما احتمله، ولم يعط نبي ما أعطيه، فرفع الله له ذكره، وجعله أقربَ الخلق إليه وسيلةً، وأعظمهم عنده جاهاً، وأسمعهم عنده شفاعةً، وكانت تلك المحن والابتلاء عَيْنَ كرامته، وهي

---

(١) عيون الأخبار ١/٢٨٦.

(٢) انظر العظمة ص٢٥-٢٦ الاستقامة لابن تيمية ٢/٢٧١-٢٨١.

مما زاده الله شرفاً وفضلاً، وساقه بها إلى أعلى المقامات»[١].

٤٣ ـ الحرص على الإفادة من كل أحد ومن كل موقف:

فقد تساعف الإنسانَ الأمورُ، فتسير على نحو ما يريد، وقد تخالفه الأمور، فتجري على خلاف ما يشتهي.

وقد يوفق بمن يعينه ويأخذ بيده، وقد يخذل فلا يجد إلا من يعوقه ويقف في طريقه.

وكثير من الناس يفيد من الأمور التي تجري في صالحه، ولكنه يقف مكتوف الأيدي إذا وقف أمامه أمر، أو حال دون بغيته حائل.

أما العاقل الحازم، ذو الهمة العالية، والبصيرة النافذة ـ فيحرص كل الحرص على أن يوظف الأمور كي تسير في صالحه، وأن يفيد من جميع المواقف التي تمر به مهما اختلفت عليه، فتراه «ينتفع بكل من خالطه وصاحبه، من كامل، وناقص، وسيِّىء الخلق، وحسنه، وعديم المروءة، وغزيرها.

وكثير من الناس يتعلم المروءة ومكارم الأخلاق من الموصوفين بأضدادها، كما روي عن بعض الأكابر أنه كان له مملوك سيِّىء الخلق، فظ، غليظ، لا يناسبه.

فسئل عن ذلك، فقال: إني أدرس عليه مكارم الأخلاق!

وهذا يكون بمعرفة مكارم الأخلاق في ضد أخلاقه، ويكون بتمرين النفس على مصاحبته، ومعاشرته، والصبر عليه»[٢].

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «ولكل شيء فائدة، ولقد انتفعت بمحك أهل الجهل منفعةً عظيمةً، وهي أنه توقد طبعي، واحتدم خاطري، وحمي فكري، وتهيج نشاطي، فكان ذلك سبباً إلى تواليفَ لي عظيمة، ولولا

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٣٠١.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٣٣٥.

استثارتهم نشاطي، واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف»[١].

وهذا الأديب الكبير عباس محمود العقاد يقول في صدد الحديث عن أساتذته، وعن استفادته منهم: «استفدت في مرحلة التعليم الابتدائي من أستاذين اثنين على اختلاف بينهما في طريق الإفادة؛ فإن أولهما قد كان قاصداً، والآخر أفادني على غير قصد منه، فحمدت العاقبة على الحالين.

كان أحد الأستاذين الشيخ فخر الدين محمد الدشناوي، وكان يميل إلى التجديد والابتكار في التعبير، ويمنح أحسن الدرجات للتلميذ المتصرف في مناحي الكلام، وأقلَّها للتلميذ الذي يقتبس من نماذج الكتب.

وكانت دروسه تلتهب حماسةً ووطنيةً، ولها تأثيرها البليغ في نفوس التلاميذ، خصوصاً في زمن كانت تئن فيه البلاد من وطأة الاحتلال.

أما الأستاذ الثاني فمدرس الحساب»[٢].

ثم تحدث عن مدرس الحساب فقال: «كان يؤمن بالخرافات، وشفاعات الأولياء، وكان محدود الفهم في دروسه، ولاسيما المسائل العقلية في دروس الحساب»[٣].

وبعد أن ذكر بعض المواقف مع ذلك الأستاذ قال: «ولكن الدرس الأكبر الذي أحسبه أكبر ما استفدته من جميع الدروس في صباي كان بصدد مسألة حسابية من تلك المسائل العقلية.

كنت شديد الولع بهذه المسائل، لا أدع مسألة منها دون حل مهما يبلغ من إعضالها.

وكان الأستاذ يحفظ منها عدداً كبيراً محلولاً في دفتره يعيده على

---

(١) الأخلاق والسير ص ٤٨.
(٢) ذكرياتي مع عباس العقاد، لطاهر الجبلاوي، إعداد عباس طاهر الجبلاوي ص ٢٥.
(٣) ذكرياتي مع عباس العقاد ص ٢٥.

التلاميذ كل سنة، وقلما يزيد عليه شيئاً من عنده.

وعُرضت في بعض الحصص مسألة ليست في الدفتر، فعالجنا حلها في الحصة على غير جدوى، ووجب في هذه الحالة أن يحلها الأستاذ لتلاميذه فلم يفعل، وقال على سبيل التخلص: إنما عرضتها عليكم؛ امتحاناً لكم؛ لتعرفوا الفرق بين مسائل الحساب، ومسائل الجبر؛ لأنها تشتمل على مجهولين.

لم أصدق صاحبنا، ولم أَكُفَّ عن المحاولة في بيتي، وقضيت ليلةً ليلاءَ حتى الفجر، وأنا أقوم وأقعد عند اللوحة السوداء حتى امتلأت من الجانبين بالأرقام، وجاء الفرج قبل مطلع النهار، فإذا بالمسألة محلولة، وإذا بالمراجعة تثبت لي صحة الحل، فأحفظ سلسلة النتائج وأعيدها؛ لاستطيع بيانها في المدرسة دون ارتباك أو نسيان.

قلت: لقد حللت المسألة.

قال الأستاذ: أية مسألة.

قلت: المسألة التي عجزنا عن حلها في الحصة الماضية.

قال: أو صحيح؟ تفضل، أرنا همتك ياشاطر!

وحاول أن يقاطعني مرة بعد مرة، ولكن سلسلة النتائج كانت قد انطبعت في ذهني؛ لشدة ما شغلتني، وطول ما راجعتها، وكررت مراجعتها، وانتظرت ما يقال.

فإذا الأستاذ ينظر إليَّ شزراً وهو يقول: لقد أضعت وقتك على غير طائل؛ لأنها مسألة لن تعرض لكم في امتحان.

وإذا بالتلاميذ يُعَقِّبون على نفحة الأستاذ قائلين: ضيَّعت وقتنا، ما الفائدة من كل هذا العناء؟»[(١)]

ثم عقب العقاد على هذا الحدث بقوله: «كانت هذه الصدمة خليقة بأن

(١) ذكرياتي مع عباس العقاد ص ٢٧ ـ ٢٨.

تكسرني كسراً لو أن اجتهادي كان محل شك عندي، أو عند الأستاذ، أو عند الزملاء.

أما وهو حقيقة لاشك فيها فإن الصدمة لم تكسرني، بل نفعتني أكبر نفع حمدته في حياتي، وصح قول (نيتشه) :[1] كل ما لم يقتلني يزيدني قوة.

لأني لم أحفل بعدها بإنكار زميل، ولا رئيس، وعلمت أن الفضل قيمته فيه، لا فيما يقال عنه أيّاً كان القائلون»[2].

بل إن كثيراً من العقلاء يتعلم من الحيوانات البهم أموراً تنفعه في معاشه، وأخلاقه، وصناعته، وحربه، وحزمه، وصبره.

قيل لرجل: مَنْ عَلَّمك البكور في حوائجك أوَّل النهار لا تُخِلُّ به؟

قال: مَنْ عَلَّم الطير تغدو خماصاً كل بكرة في طلب أقواتها على قربها وبعدها، لا تسأم ذلك، ولا تخاف ما يعرض لها في الجو والأرض.

وقيل لآخر: منْ علَّمك السكون، والتحفظ، والتماوت حتى تظفر بإربك، فإذا ظفرت به وَثبتَ وثوب الأسد على فريسته؟

قال: الذي علم الهرة أن ترصد حجر الفأرة، فلا تتحرك، ولا تتلوّى، ولا تختلج حتى كأنها ميتة، حتى إذا برزت الفأرة وثبت عليها كالأسد.

وقيل لآخر: من علمك حسن الإيثار والبذل والسماحة؟

قال: من علم الديك يصادف الحبة في الأرض، وهو يحتاج إليها ولا يأكلها، بل يستدعي الدجاج، ويطلبهن طلباً حثيثاً حتي تجيء الواحدة منهن، فتلتقطها وهو مسرور بذلك، طيب النفس به.

فإذا وضعت له الحبَّ الكثير فرَّقه ههنا وههنا، وإن لم يكن له دجاج؛

---

(١) يعني به: فريدريك نيتشه، فيلسوف ألماني. انظر كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، لعبد الرحمن الميداني ص ٥٦٠.

(٢) ذكرياتي مع عباس العقاد ص ٢٨.

لأن طبعه قد أَلِفَ البذل والجودَ، فهو يرى أنه من اللؤم أن يستبد وحده بالطعام.

وكذلك كرام الأسود وأشرافها يُتعلم منها الأنفة وعزة النفس؛ فهي لا تأكل إلا من فريستها، وإذا مرت بفريسة غيرها لم تدن منها ولو جهدها الجوع.(١)

ومن جميل ما ينبغي على المرء في هذا الشأن أن يفيد من تجارب الآخرين؛ فالحياة كلها تجارب، واستفادة من التجارب، وميزة إنسان على إنسان، وأمة على أمة هي القدرة على الاستفادة من التجارب وعدمُها؛ فالحادثة تمر أمام جمع من الناس فيستفيد منها أحدهم بمقدار مائة، وآخر بمقدار خمسين، وثالث تمر منه الحادثة على عين بلهاء، فلا يستفيد منها شيئاً؛ فكم من الناس من لهم أعين ولكن لا يبصرون بها، وآذان ولكن لا يسمعون بها، وقلوب ولكن لا يعقلون بها.

والفرق بين من يستفيد من التجربة ومن لا يستفيد أن الأول يستطيع أن ينتهز الفرص في حينها، وأن يتجنب الخطر قبل وقوعه، على حين أن الثاني لا ينتهز فرصة، ولا يشعر بالخطر إلا بعد وقوعه.

وحينما تقرأ كتب التاريخ تقرؤها؛ لتسفيد من أعمال الناس، وما وقع لهم، وما صدر منهم، وما كان من نتائج أعمالهم، وتقرأ سير العظماء؛ لتتشبه بهم، وتدرك مواضع عظمتهم.(٢)

٤٤ ـ استثارة الهمة، وتحريك الإرادة:

فكثير من الناس تكمن فيه الهمة كمون النار في الزند، وهذه الهمة تحتاج إلى من يوريها، ويقدح زندها.

---

(١) انظر ذلك مفصلاً في شفاء العليل لابن القيم ص ١٤٧ ـ ١٦٤.

(٢) انظر فيض الخاطر ١٠/ ٢١١.

وكـذلك الأمـر بالنسبة للإرادة؛ فـهي قـوة مـن القـوى، كالبـخار، والكهرباء؛ فهي المحرك للإنسان، وعنها تصدر جميع الأعمال الإرادية.

فجميع ملكات الإنسان وقواه تكون في سبات عميق حتى توقظها الإرادة؛ فمهارة الصانع، وقوة عقل المفكر، وذكاء العامل، وقوة العضلات، والشعور بالواجب، ومعرفة ما ينبغي وما لا ينبغي ـ كل هذه لا أثر لها في الحياة ما لم تدفعها قوة الإرادة، وكلها لا قيمة لها ما لم تُحَوِّلْها الإرادة إلى عمل.

هذا وللإرادة نوعان من العمل، فقد تكون دافعة، وقد تكون مانعة.

فتارة تدفع قوى الإنسان إلى عمل كأن تحمله على القراءة، أو التأليف، أو الخطابة، وتارة تمنع القوى عن المسير، وتقصرها عن العمل[1].

٤٥ ـ تقوية الإرادة ومغالبة النفس:

فالإرادة القوية إرادة تُقْدِمُ على ما قَصَدَتْ مهما كلفها من المشاق، ولا تحجم أمام العقبات التي تعترضها، وإنما تبذل ما في وسعها لتذليلها، ولا شيء عندها أصعب من عدولها عن قصدها.

والمقصود بالإرادة ههنا إنما هي الإرادة المتوجهة إلى الخير، فمن أفضل ما يمدح به الرجل أن يتوجه بعزمه القاطع إلى إظهار حق، أو إقامة مصلحة.

هذه الإرادة هي سر النجاح في الحياة، وهي عنوان عظماء الرجال، الذين إذا أزمعوا أمراً لم يثنهم عنه شيء، بل يسلكون إليه كل سبيل، ويركبون له كل صعب وذلول.

فلقوة الإرادة أثر عظيم في انقلاب حال الأفراد والجماعات؛ فكم من فتى يساويه في نباهة الذهن، وسائر الفضائل فتيان كثيرون.

---

(١) انظر الأخلاق لأحمد أمين ص ٥٣، وقوة الإرادة وطرق تنميتها لصلاح مراد ص ٩ ـ ١١.

ولكنه يجد من قوة الإرادة ما لا يجدون، فيكون له شأن غير شأنهم، ويبلغ في المحامد شأواً أبعدَ من شأوهم.

ولو نظرت إلى كثير ممن ظهروا أكثر مما يظهر غيرهم، وأقمت موازنة بينهم وبين كثير من لِداتهم لم تجد في أولئك الظاهرين مزيةً يرجح بها وزنهم غير أنهم يهمون بالأمر فيعملون.

والإرادة قد يعتريها ما يعتريها من الأمراض، فلا تستطيع مقاومة الأهواء، والشهوات، ولا تتحمل المسؤوليات والتبعات، فيستسلم صاحبها لسورة الجهل، أو ثورة الغضب، وينأى بنفسه عن تحمل المسؤوليات التي تناط به.

ومن المظاهر التي تعتري الإرادة ـ أن يرى الإنسان الخير في شيء، ويرى وجوب عمله، ويعزم عليه، ثم تخونه إرادته، فيستسلم للخمول والكسل.

وعلاج هذه الإرادة المريضة يمكن بأنواع من العلاج، ومنها:

أ ـ المجاهدة: وذلك بأن يجاهد المرء نفسه على تقوية إرادته؛ فالمجاهدة تنفع كثيراً في هذا الباب وغيره قال ـ تعالى ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

ومن المجاهدة المفيدة في تقوية الإرادة أن يحرم المرء نفسه من بعض ملذاتها، ورغباتها، وعوائدها.

قال ابن عبدالقوي ـ رحمه الله ـ:

وفي قمع أهواء النفوس اعتزازها وفي نيلها ما تشتهي ذلُّ سرْمدِ[1]

وقال السفاريني ـ رحمه الله ـ: «ينبغي للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب؛ ليتمرن بذلك على ترك ما تؤذي عواقبه.

---

(١) غذاء الألباب ٢/ ٤٥٤.

وليعلم اللبيب أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذون بها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها؛ لأنها صارت عندهم بمنزلة العيش الذي لابد لهم منه»[1].

ومن المجاهدة المفيدة أن يُلزم النفس أعمالاً تتطلب مشقة وجهداً، وأن يعوِّدها على تحمل ذلك شيئاً فشيئاً.

ولا تعني المجاهدة أن يجاهد المرء نفسه مرة أو مرات، وإنما يجاهدها في ذات الله حتى الممات؛ ذلك أن المجاهدة عبادة، والله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر: ٩٩].

قال ابن عقيل الحنبلي ـ رحمه الله ـ: «ولو لم يكن من بركات مجاهدة النفس في حقوق الله، والانتهاء عن محارم الله ـ إلا أنه يعطف عليك، فَيُسَخِّرها لك، ويطوعها لأمرك، حتى تنقاد لك، ويُسقط عنك مؤونة النزاع لها والمجاهدة حتى تصير طوع يدك وأمرك، تعاف المستطاب عندها إذا كان عند الله خبيثاً، وتؤثر العمل لله وإن كان عندها بالأمس كريهاً، وتستخفه وإن كان عليها ثقيلاً، حتى تصير رقّاً لك بعد أن كانت تسترقك.

وكذا كل من حقق العبودية لسيده استعبد له من كان يملكه، وألان له ما كان يعجزه.

قال ـ سبحانه ـ ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦].

بعد إخباره ﴿ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ ﴾ [النساء: ١٢٨].

فقد أبان عن أن أقواماً يوفيهم، ويقيهم ما أُحْضِرَته النفوس.

وقال: ﴿ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وهو الذي قال: ﴿ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ ﴾ [التغابن: ١٤].

---

(١) غذاء الألباب ٢/ ٤٥٦ ـ ٤٥٧.

ما أبرك طاعة الله على المطيع! قوم سخر لهم الرياح والمياه، والحيوانات، وقوم أعاق عليهم الحوائج، وكسَّرها في صدورهم»[1].

ب ـ محاسبة النفس وأخذها بمبدأ الثواب والعقاب: فإذا أجادت وعملت أجمها وأراحها، وأرسلها على سجيتها في المباح بعض الوقت.

وإذا قَصَّرت وتوانت أخذها بالحزم والجد، وحرمها من بعض ما تريد.

على أنه لا ينبغي أن يطيل في محاسبة النفس؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى انقباض النفس وانكماشها.[2]

جـ ـ كثرة التعبد: فالله ـ عز وجل ـ شرع الشعائر للتزكية والتعليم، لا ليضيق بها على المسلم، ولا ليجعل عليه في الدين من حرج.

وإنما يريد ليطهره بها، وينمي ملكات الخير والرحمة فيه، وليقويَّ إرادته وعزيمته في الإقدام على الخير والإقلاع عن الشر، وليروضه على الفضائل الشاقة كالصبر، والثبات، والحزم، والعزم، وليحرره من عبادة الشهوات، وملكِها لعنانه.

ولكل عبادة في الإسلام حكمة يظهر بعضها بالنص عليه، أو بأدنى تدبر، وقد يخفى بعضها إلا على المتأملين الموفقين في الاستجلاء والاستنباط.

والحكمة الجامعة في العبادات هي تزكية النفس، وترويضها، وتطهيرها من النقائص، وتصفيتها من الكدرات، وإعدادها للكمال الإنساني، وتقريبها للمـلأ الأعلى، وتلطيف كثافتـها الحيـوانية، وفي كل فريضة من فرائض الإسلام امتحان لإيمان المسلم، وعقله، وإرادته[3].

فإذا أكثر العبد من القربات وأنواع التعبدات، واستحضر ما فيها من

---

(١) كتاب الفنون لابن عقيل ٢/٤٩٦.

(٢) انظر إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن القيم تحقيق مجدي السيد ص ٨٢-٨٩، ففيه كلام جميل على محاسبة النفس.

(٣) انظر عيون البصائر ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩.

جميل الثمرات ـ زكت نفسه، وقويت إرادته، وزادت مغالبته لنزواته وشهواته.

د ـ الصوم: ويقال عن الصوم ما قيل عن العبادة من حيث كونها سبباً لتقوية الإرادة، غير أن الصوم أعسرها امتحاناً؛ لأنه ينفرد من بين العبادات بأنه مقاومة عنيفة لسلطان الملذات والرغبات، وبأنه قمع للغرائز عن الاسترسال في الشهوات.

فبالصوم تُروض النفوس، وتقوى الإرادات، وتنشأ الأخلاق الرفيعة. فهو تدريب منظم على حمل المكروه، ودرس مفيد في سياسة المرء لنفسه، وتحكمه في أهوائها، وضبطه لنوازع الهزل واللغو والعبث فيها.

ثم إن صيام رمضان يحرك النفوس للخير، ويسكنها عن الشر، ويطلقها من أسر العادات، ويحررها من فساد الطباع، ويجتث منها رعونة الغرائز.

ويطوف عليها في أيامه بمحكمات الصبر، ومثبتات العزيمة، وفي لياليه بأسباب الاتصال بالله والقرب منه[١].

فإذا كان الأمر كذلك فما أجدر المسلم أن يستحضر عظمة الصوم في رمضان، وأن يجعل لنفسه نصيباً من صيام النفل، يتقرب به إلى ربه، وينال الفوائد المتنوعة الحاصلة من جرائه، والتي منها ما نحن بصدده وهو تقوية الإرادة.

هـ ـ التجارب: فمن تعلق همه بأمر كان قد عرف بطريق التجربة أنه ميسور، وأن عاقبته سلامة- انقلب همه في الحال عزماً صادقاً.

أما من لم تسبق له تجربة فقد يتخيل الأمر بمكان لا تناله يده، أو يخشى من أن يلاقي وراء السعي إليه خيبة، فيقف في تردد وإحجام.

ولذلك فذو العمر الطويل من أولي الألباب قد يكون أسرع إلى بعض

---

(١) انظر عيون البصائر ص ٥٣٨ ـ ٥٤٠ و ٥٧٣ ـ ٥٧٤.

الأمور، وأشد عزماً عليها من حديث السن؛ لما تفيده التجارب من إمكانها، ونجاح السعي إليها.

و ـ المبادرة للعمل والتنفيذ لما أردناه: فلا نترك الإرادة تَتَبَخَّر من غير أن ننفذ ما عزمنا عليه من عمل؛ فإن ذلك يضعف الإرادة، ويورثها الفشل والإخفاق، فإذا عزمنا عزمة فَلْنُنَفِّذْها، أو نحاول ذلك ما استطعنا إليه سبيلاً.

قال ابن المقفع: «إذا هممت بخير فبادر هواك؛ لا يغلبك، وإذا هممت بشرٍّ فسوِّف هواك؛ لعلك تظفر؛ فإن ما مضى من الأيام والساعات على ذلك هو الغُنْم»[1].

وقال: «اغتنم من الخير ما تعجَّلت، ومن الأهواء ما سوَّفت، ومن النصب ما عاد[2] عليك، ولا تفرح بالبطالة، ولا تجبن عن العمل»[3].

ز ـ النظر في التاريخ: فالذي يخطر في باله أمر قد قرأ في سيرة شخص أنه قد همَّ بمثله، وعمل لحصوله، فنجح في عمله، وصلحت عاقبته ـ شأنه أن يعزم على ذلك الخاطر، ويجعله بعد العزم عملاً نافذاً.

ح ـ أن نعرِّف النفس طرق الخير والشر: فقد تكون الإرادة قوية، ولكن مرضها في اتجاهها وميلها نحو الجرائم والشرور.

فعلاجها حينئذ أن نعرف النفس طرق الخير والشر، وأن نلزمها سلوك سبيل الخير، وأن نحوطها بكل ما يحببها بالخير، وأن نتذرع بالصبر في مقاومة ميلها إلى الشرور؛ حتى تهتدي إلى الصراط المستقيم، كما نفعل بالشجرة الفتية إذا نحن آنسنا منها اعوجاجاً فإنا نحوطها بكل ما يصلح وجهتها، ونقاوم اعوجاجها مدة حتى تستقيم قناتها، ويصلب عودها، فلا تتأثر بعد ذلك بشيء.

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ٦٨-٦٩.

(٢) ما عاد عليك: أي ما كان نافعاً لك.

(٣) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ٧٩.

وبالجملة فكل مجهود يبذل في مقاومة هوى أو شهوة ثم يؤدي التغلب عليهما لكسب الإرادة ـ يعد قوة وشجاعة[١].

٤٦ ـ انتهاز الفرص:

فإن الفرص ثمينة، وإن فواتها لا يعوض، وإن انتهازها لدليل الحزم، وعنوان العقل والجد.

«ومهما حفظ الإنسان من الحكم، وكانت رغباته صالحة ـ فلن تتحسن أخلاقه وتقوى إلا إذا انتهز كل فرصة تسنح له»[٢].

قال البارودي:

بادر الفرصة واحذر فوتها ... فبلوغ العز في نيل الفرص
فابتدر مسعاك واعلم أن من ... بادر الصيد مع الفجر قنص[٣]

٤٧ ـ اغتنام الأوقات:

فإن الوقت رأس مال الإنسان، وإن ساعات العمر هي أنفس ما عني بحفظه.

فنحن نعيش في زمن محدود، ليل ونهار يتعاقبان بانتظام، ليس يطغى أحدهما على الآخر، وحياة مقسمة تقسيماً محدوداً، صِباً فشباب، فكهولة، فشيخوخة.

ولكل قسم عمل خاص لا يليق أن يعمل في غيره، كالزرع إذا فات أوانه لم يصح أن يزرع في غيره.

ثم إن هذه الحياة محدودة؛ فإذا جاء الأجل فلا مفر من الموت.

وما فات من الزمن لا يعود؛ فالصبا إذا فات فات أبداً، والشباب إذا مَرَّ مَرَّ أبداً، والزمن المفقود لا يعود أبداً.

---

(١) انظر الأخلاق ص ٥٢ ـ ٥٦ و٦٦، وانظر رسائل الإصلاح ١/ ٦٥ ـ ٦٩.

(٢) الأخلاق ص ٣٨.

(٣) ديوان البارودي ص ٢٩٣.

ثم إن الزمن هو المادة الخامة للإنسان كالخشب الخام في يد النجار، والحديد الخام في يد الحداد، فكلٌّ يستطيع أن يصوغ من زمنه ـ بتوفيق الله ـ حياة طيبة مليئة بالجد وجلائل الأعمال، كما أن الإنسان يستطيع أن يصوغ من زمنه حياة سيئة، مليئة بالكسل، والخمول وسيىء الأعمال[(١)].

فكلُّ ساعةٍ من ساعات عمرك قابلة لأن تضع فيه حجراً يزداد به صرح مجدك ارتفاعاً، ويقطع به قومك في السعادة باعاً أو ذراعاً.

فإن كنت حريصاً على أن يكون لك المجد الأسمى، ولقومك السعادة العظمى ـ فدع الراحة جانباً، واجعل بينك وبين اللهو حاجباً؛ فالحكيم الخبير من يَقْدر الوقت حق قدره، ولا يتخذه وعاءً لأبخس الأشياء، وأسخف الكلام، ويعلم أنه من أجلِّ ما يصان عن الإهمال والإضاعة، ويَقْصُرُه على المساعي الحميدة التي ترضي الله، وتنفع الناس.

وإذا أرجعنا البصر في تاريخ النوابغ الذين رفعوا للحكمة لواءً ـ وجدناهم يبخلون بأوقاتهم أن يصرفوا شيئاً منها في غير درس، أو بحث، أو تحرير[(٢)].

قال ابن عقيل الحنبلي ـ رحمه الله ـ: «إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح، فلا أنهض إلا وقد خطر لي ما أسطره»[(٣)].

وقال: «وأنا أقصر بغاية جهدي أوقات أكلي، حتى أختار سَفَّ الكعكِ وتَحسِّيه بالماء على الخبز؛ لأجل ما بينهما من تفاوت المضغ؛ توفراً على

(١) انظر الأخلاق ص ٢٣٤ و٢٣٦.

(٢) انظر رسائل الإصلاح ١/ ٥٨٤، والسعادة العظمى ص ٦٦..

(٣) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ١٤٥ـ١٤٦.

مطالعة، أو تسطير فائدة لم أدركها فيها»[١].

ولهذا خلَّف ـ رحمه الله ـ آثاراً عظيمة؛ فله كتاب الفنون الذي قيل عنه: إنه بلغ ثمانمائة مجلدة.[٢]

فإذا كان الزمن بتلك المكانة والمنزلة ـ فأجدر بالعاقل ألا ينفق ساعات عمره إلا بما يعود عليه وعلى أمته بالنفع، وأن يحذر كل الحذر من إضاعته بما لا ينفع أو بما يضر؛ فإنه إن أخل بذلك، فاشتغل بما لا ينفع عن الذي ينفع ـ فإنه سيندم أيما ندم.

قال الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ: «فإن من أرسل عنان شبابه في البطالات، وحل رباط نفسه فأجراها في ميادين اللذات ـ أدرك من اللذة الجسمانية من ذلك بحسب ما يتفق له منها، ولاسيما إذا كان ذا مال وجمال.

ولكنها تنقضي عنه اللذة، وتفارقه هذه الحلاوة ـ إذا تكامل عقله، ورجح فهمه، وقوي فكره؛ فإنه لا يدري عند ذلك ما يدهمه من المرارات التي منها الندامة على ما اقترفه من معاصي الله، ثم الحسرة على ما فوته من العمر في غير طائل، ثم على ما أنفقه من المال في غير حله، ولم يَفُزْ من الجميع بشيء، ولا ظفر من الكل بطائل.

وتزداد حسرته، وتتعاظم كربته ـ إذا قاس نفسه بنفس من اشتغل بالمعالي من أترابه في مقتبل شبابه؛ فإنه لايزال عند موازنة ذاته بذاته، وصفاته بصفاته ـ في حسرات متجددة، وزفرات متصاعدة، ولاسيما إذا كان بيته في العلم طويل الدعائم، وسلفه من المتأهلين لمعالي المكارم.

فإنه حينئذ تذهب عنه سكرة البطالة، وتنقشع عنه عماية الجهالة ـ بكروب طويلة، وهموم ثقيلة، وقد فات ما فات، وحيل بين العَيْر

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ١/١٤٦.

(٢) انظر ذيل طبقات الحنابلة ١/١٥٦.

والنَزَوَان[١]، وحال الجَرَيْضُ دون القريض[٢] وفي الصيف ضَيَّعتِ اللبن[٣]»[٤].

هذا ومما يعين على اغتنام الأوقات ما يلي:

* **أ ـ أن نستحضر قيمة الزمن، وندرك بانه محدود:** فإذا كان الأمر كذلك، وكان لا يمكن أن يُمَدَّ في الزمن أو يُقْصَرَ، وكانت قيمته في حسن إنفاقه ـ وجب أن نحافظ عليه، وأن نستعمله أحسن استعمال.

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ «ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع لحظة في غير قربة، ويُقَدِّمَ الأفضل فالأفضل من القول والعمل»[٥].

وقال الرافعي: «إن يوماً باقياً من العمر هو للمؤمن عمر ما ينبغي أن يستهان به»[٦].

---

(١) النزوان: الوثبان، ونزوان العير: وثوبه على أتناه، وأول من قاله صخر بن عمرو السلمي أخو الخنساء:
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان
انظر لسان العرب ١٥/٣١٩.

(٢) قولهم حال الجريض دون القريض، قيل: الجريض: الغصَّة، والقريض: الجرَّة. وقيل الجريض: الغصص، والقريض: الشعر، وقال الرياشي: القريض والجريض يَحْدُثَان بالإنسان عند الموت. انظر لسان العرب ٧/ ١٣٠.

(٣) الصيف ضيعت اللبن: هذا مثل مشهور عند العرب، وكذلك قولهم: حيل بين العير والنزوان، وقولهم حال الجريض دون القريض.
وهذه الأمثال الثلاثة تضرب لمن يضيع الأمر، ثم يريد استدراكه بعد فوات الأوان، وتقال: عند كل أمر كان مقدوراً عليه فحيل دونه.

(٤) أدب الطلب ص ١٣٥، وانظر تذكرة السامع والمتكلم ص ٧٠ ـ ٧١ ففيه كلام جميل حول هذا المعنى.

(٥) صيد الخاطر ١/٤٦.

(٦) وحي القلم ١/٢٣٥.

والعرب تقول في أمثالها: «إسْرِ وقمرٌ لك»: أي اغتنم ضوء القمر مادام طالعاً فَسِرْ فيه.[١]

ومما ينسب للشافعي ـ رحمه الله ـ قوله:

إذا هجع النوام أسبلتُ عبرتي ... وأنشدتُ بيتاً وهو من ألطف الشعر
أليس من الخسران أن لياليـاً ... تمرُّ بلا علم وتحسب من عمري[٢]

وقال الإمام الشاطبي ـ رحمه الله ـ:

ولو أن عيناً ساعدت لتوكَّفت ... سحائِبُهَا بالدمع ديماً وهُطَّلا
ولكنها عن قسوة القلب قَحْطُها ... فياضيعةَ الأعمارِ تمشي سبهللا[٣]

* **ب ـ تحديد الهدف:** فما أتعب من يمشي في الطريق بلا هدى، فينتقل من شارع لآخر، ومن حانوت إلى حانوت دون أن يكون له هدف محدد.

وما أضيع زمن قارىء لا يحدد هدفه، ولا يجيد فن القراءة، فتراه يقرأ ما يقع تحت يده؛ لقتل الوقت ليس إلا، دون أن يكون له هدف محدد، أو غرض معين، كدراسة مسألة خاصة، أو بحث موضوع معين، أو نحو ذلك مما يخدم غرضه، وينمي معارفه.

وما حال هؤلاء إلا كحال من يتعاطى المخدر؛ ليغيب به عن الدنيا، أو يسبح في عالم الخيالات والأوهام.

فالقراءة لا توزن بكثرتها، ولا بطول وقتها، وإنما توزن بدقتها وقيمتها.

ومما يؤسف عليه في هذا الصدد أن كثيراً من الناس يقرؤون كل ما تصل إليه أيديهم حسبما اتفق، فيقرؤون الجرائد السيارة، والمجلات الرخيصة، والقصص الخفيفة الماجنة ونحوها، ويعتقدون أنها كافية

---

(١) الأمثال لأبي عبيد ص ٢٥٧.
(٢) غذاء الألباب ص ٢/ ٤٤٤.
(٣) متن الشاطبية، للإمام الشاطبي ص ٧.

لغذاء عقولهم، وهي ليست إلا مخدراً للعقل، ومنبهاً للغرائز الجنسية؛ فتلك القراءة لا تفيد علماً، ولا تجلب متعة.

ولم تخلق القراءة لمثل هذا، وإنما خلقت للدرس المفيد، والاستمتاع الصحيح؛ فالقراءة الصحيحة قراءة حُدِّدَ غرضها وغاياتها، فيعرف القارىء ما يقرأ، ولماذا يقرأ، وكيف يقرأ قراءةً يشعر معها أن موقفه مما يقرأ كموقف الصديق؛ فلينظر إلى من يقرأ كما ينظر إلى من يصادق.[1]

فتحديد الهدف يوفر الشيء الكثير من الزمن، ويجعل الإنسان يسير في هذه الحياة على هدى؛ فكلما صادفته أمور عرف كيف ينتخب منها ما يُغذِّي غرضه، ويتجنب ما لا يتفق مع مراده.

إن الذين لا يحددون أهدافهم، ويدَعون الزمن يمر عليهم كما يمر على الجماد ـ قلما يصدر عنهم خير كبير، أو يأتون بعمل عظيم.

والإنسان بلا هدف كالسفينة التي تسير في البحر بلا مقصد، تتلاعب بها الأمواج، وتتقاذفها الأثباج.

ومما يلاحظ في هذا الشأن أن أكثر الناس عملاً أوسعهم زمناً؛ ذلك لأنهم يحددون أهدافهم، ويوجهون أعمالهم لنيلها، ولا يصرفون أوقاتهم في التردد، والاختيار، والتخبط.

وكلما زادت قيمة الهدف زادت إثارته لطاقة صاحبه، وكلما زاد سمو الهدف زاد سمو صاحبه.[2]

فحدد هدفك، وسر إليه، ولا عليك بعد ذلك مادمت كل يوم تخطو إليه خطواً جديداً؛ فستصل إليه ـ بإذن الله ـ ولو كان صعبَ المنال، بعيدَ المرتقى.

*** ج ـ أن يجدَّ الإنسان ويخلص في سبيل الوصول لهدفه:** فلا يكفي مجرد

---

(١) انظر فيض الخاطر ٣/ ٦٩، ٥/ ١٩٠ـ١٩١.

(٢) انظر قوة الإرادة ص ١٧ ـ ٢٠.

تحديد الهدف، بل لابد معه من الجد والإخلاص حتى يصل إلى ما يريد بأقرب وقت.

* د ـ **الدقة في المواعيد:** فهذا مما يعين على اغتنام الوقت، وإتقان العمل؛ فتأخر دقائق عن موعد البدء المحدد معناه ضياع دقائق من وقت العمل.

وذلك يؤدي إلى إحدى نتيجتين: إما الإسراع في العمل، وعدم الدقة فيه؛ لتعويض الزمن الفائت، وإما التعدي على أوقات خصصت لواجبات أخرى.

* هـ ـ **الحذر من التاجيل:** فالعمل المؤجل قلما يُعمل، وإذا عُمل فقلما يعمل بإتقان كما لو كان في وقته.

قال ابن المقفع: «إذا تراكمت عليك الأعمال فلا تلتمس الروح في مدافعتها بالروغان منها؛ فإنه لا راحة لك إلا في إصدارها، وإن الصبر عليها هو الذي يخففها عنك، والضجر هو الذي يراكمها عليك»(١).

* و ـ **حسن الاستعمال لأوقات الفراغ:** وليس معنى ذلك أن نعمل باستمرار، وألا نترك وقتاً للراحة والاستجمام.

وإنما يعني ذلك أن نستعمل أوقات الراحة والفراغ استعمالاً يجعلنا أقدر على العمل.

فإذا صرفنا وقت الفراغ في كسل وخمول لم ننتفع به، ولم يفدنا في العمل.

وإذا صرفناه فيما يفيد ولو في لعب بريئ وحركة للجسم، وإجمام يبعث على النشاط ـ أفادنا ذلك في عملنا.

فكيف إذا استعمل في قراءة، أو كتابة، أو نحو ذلك مما هو أكثر فائدة؟

إن استعمال أوقات الفراغ استعمالاً حسناً من أهم مسائل الحياة التي يحسن العناية بها، والتفكير في شأنها؛ فإن أكثر أعمارنا تذهب سدى، لا

---

(١) الأدب الصغير والأدب الكبير ص ١٥٢.

في عمل دنيا ولا آخرة؛ لأنا لا نعرف كيف نستعمل أوقات الفراغ كما ينبغي.

فالأطفال يقضونها في اللعب في الشوارع، أو في مشاهدة التلفاز ونحو ذلك.

والشبان والشيوخ يقضونها في منتدياتهم التي يعمرها القيل والقال، وكثرة الجدال، وما أشبه ذلك من الأمور التي لا فائدة منها سوى قتل الوقت.

وبالجملة فالعمل الكثير لا يجهد بقدر ما تجهد الفوضى والسير على غير هدى؛ فاليوم المنظم، والمنهاج المدروس للشواغل المتابعة، والمثابرة دون تباطؤ أو عجلة ـ لا ينتج تعباً مفرطاً.

ولكن الانحطاط في القوى، والخمود والهمود يأتيان ـ في الغالب ـ من الاستعمال الفوضوي لأوقات الفراغ.

ولهذا ينبغي ألا تكون أوقات الفراغ طاغية على أوقات العمل، وألا تكون أوقات الفراغ هي صميم الحياة وأوقات العمل على هامشها.

بل ينبغي أكثر من ذلك: أن تكون أوقات الفراغ خاضعة لحكم العقل كأوقات العمل؛ فإننا في العمل نعمل لغاية؛ فينبغي أن نصرف أوقات الفراغ لغاية كذلك، إما لفائدة دنيوية، أو أخروية.

أما أن تكون الغاية هي قتل الوقت فليست غاية مشروعة؛ لأن الوقت هو الحياة؛ فقتل الوقت قتل للحياة؛ فالذين يصرفون أوقاتهم في نرد أو شطرنج، أو لعب ورق أو نحو ذلك ـ لا يعملون لغاية.

والذين يتسكعون في المقاهي، والطرقات ونحوها لا يطلبون إلا قتل الوقت وكأنه عدو من أعدائهم.

فإذا كان الأمر كذلك فاجعل شعارك دائماً أن تسائل نفسك: ماذا عملت في وقت فراغك؟ هل كسبت علماً، أو صحة، أو مالاً؟ وهل خضع وقت فراغك لحكم عقلك، فكان لك غاية محدودة صرفت فيها زمنك؟

إن كان الأمر كذلك فقد نجحت، وإلا فحاول حتى تنجح؛ فقليل من الزمـن يخصـص كل يـومٍ لشيء معين ـ يغير مجرى الحياة، ويجعلها أقوم مما تتصور، وأرقى مما تتخيل.

* **ز ـ أن نعرف كيف نبتدىء العمل:** وهذه المسألة من أشق المسائل على الإنسان؛ فكم من الزمن ما يذهب سدى في التفكير في ذلك.

فترى الطالب ـ على سبيل المثال ـ يريد مذاكرة دروسه، فيفكر بم يبدأ، فيرى أن يبدأ بالكتاب الفلاني، أو المادة الفلانية، ثم يستصعبها، فيشرع في غيرها وهكذا..

فهو يصرف زمناً طويلاً قبل أن يبدأ بجد.

أضف إلى ذلك أن بدء الشيء صعبٌ عادة؛ لقلة المران والممارسة، أو لأن الإنسان ينتقل بذلك من راحة لذيذة إلى عمل شاق.

وعلاج هذا الأمر بأمور عديدة أهمها أن يستعين بالله ـ جل وعلا ـ وأن يستشير، ويستخير، إن استدعى الأمر ذلك.

ثم يفكر قبل العمل في أَوْلى الأشياء بالبدء، ويدرس وجوه الترجيح، ثم يرتب ما يليه، وهكذا...

ثم بعد ذلك يعزم عزماً قويّاً لا يشوبه تردد، ولا يسمح لنفسه بتغيير ما عزم عليه مهما صادفه من الصعوبات؛ «فمن صرامة العزم أن تفرغ فؤادك من كل داعيةٍ شأنُها أن تلحق بعزمك وهناً، أو تصرف وجهك عنه صفحاً»[1].

أما من يرى أن البدء صعب عليه، ويرى أن نفسه منصرفة عن العمل ـ فمما يفيده في ذلك أن يقرأ فصلاً من كتاب يشجعه على العمل، أو قطعة من الشعر تثير ميله إلى الجد، وتعيد إليه نشاطه، أو أن يستحضر في ذهنه نتائج الجد والكسل، أو أن يتذكر أشخاصاً جدوا فنبغوا في الحياة وهكذا...

---

(١) رسائل الإصلاح ١/٦٩.

فإذا بدأ فإنه قد قطع شوطاً بعيداً للنجاح ؛ لأن هذا البدأ سيحيي روحه، ويبعث همته، ويقوده إلى المزيد من الجد.

ثم بعد ذلك عليه أن يستمر، ويواصل المسيرة؛ فالعمل ـ وإن كان صعباً ـ فإنه يصبح سهلاً مع طول المثابرة والاستمرار؛ فإن استمرارك في تنفيذ عزمك، ومواصلة مسيرتك ـ يكسبك القوة والغلبة على ميولك السابقة، بل سترى أن عادة امتلاك النفس قد تأصلت فيك.

ومما يشجعه على ذلك أن يكون العمل الذي يختاره عملاً يناسبه، ويلائم ميوله؛ حتى يشعر بفائدته منه، وميله إليه، واستعداده له؛ فإن أكثر أسباب الملل ترجع إلى سوء اختيار العمل(١).

ز ـ قَصْرُ النظر على العمل الحاضر: فمما يعين على اغتنام الأوقات وإنجاز الأعمال ـ أن يَقْصُرَ المرء نظره على عمله الحاضر الذي هو بصدده، فيصرف له همته، ويقبل عليه بكل قلبه، ويجمع عليه ظاهره وباطنه، ويتجنب كل ما يشتته ويصده عنه.

فإنْ هو فعل ذلك أدرك بغيته، وتمَّ له مراده.

وإن تشوَّفَتْ نفسه إلى أعمال أخرى لم يَحِنْ بعد وقْتُها ـ شُغِل بها عن عمله الحاضر، ففترت هِمَّتُه، وانحلت عزيمته، وضاع عليه وقته، وقلَّ إتقانُه لعمله، وربما تركه إلى غير رجعة.

فإذا حان وقت العمل الذي يلي عمله السابق لم يكن مستعداً له، ولم يقبل عليه إلا بضعف همة، وقلة نشاط.

وربما كان العمل الثاني متوقفاً على الأول في حصوله أو تكميله، فيفوت الأول والثاني، بسبب تَفَرُّقِ الهمة، وتَشَتُّت الذهن.

---

(١) انظر الأخلاق لأمين ص ٢٣٤ ـ ٢٣٩ ففيه تفصيل رائع ،وفيض الخاطر ٣/ ٦٩ـ٧٠، وانظر طريق النجاح د. بول جاغو، تلخيص بهيج شعبان ص ٥ و ٢٩ـ٣١.

بخلاف ما إذا جمع قلبه على عمله الحاضر، ثم تدرج فيه شيئاً فشيئاً حتى يكمله، فإذا حان وقت العمل الذي يليه أقبل عليه بهمة ونشاط، وتلقاه بشوق وعزيمة، فيكون دائماً متجدداً مستعدّاً.

وهذه القاعدة الجليلة قد أشار إليها القرآن الكريم، ودعا إليها في مواضع متعددة، ومنها قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧].

فلقد كانوا يتمنون القتال مع أنهم مأمورون بكف الأيدي، فلما لم يقبلوا موعظة الله ضعفوا، فلما جاءهم العمل الثاني ضعفوا أشد الضعف[(١)].

ويتجلى هذا المعنى بوضوح في قوله ـ تعالى ـ ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء: ٦٦].

وكذلك قوله ـ تعالى ـ : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢٠ـ٢١].

قال الشيخ عبدالرحمن ابن سعدي ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية: **﴿فأولى لهم طاعة وقول معروف﴾**: أي فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتَّم عليهم، ويجمعوا عليه هممهم، ولا يطلبوا ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله ـ تعالى ـ وعفوه.

﴿فإذا عزم الأمر﴾ أي جاءهم أمر جِدٌّ، وأمر حتم **﴿فلو صدقوا الله﴾**

---

(١) انظر القواعد الحسان لتفسير القرآن للشيخ ابن سعدي، القاعدة الحادية والأربعون ص ١٣٦ـ ١٣٩.

في هذه الحال بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله، ﴿لكان خيراً لهم﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل ضعف عن العمل بوظيفة وقته الحاضر، وبوظيفة المستقبل؛ أما الحال فِلأنَّ الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة.

وأما المستقبل فإنه لا يجيء حتى تفتر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة مع كسله عن عمل الوقت الحاضر ـ شبيه بالمتألِّي الذي يجزم بقدرته على ما يستقبل من أموره؛ فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما همَّ به، وتوعَّد نفسه عليه؛ فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكره ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته.

ثم كلما جاء وقت استقبله بجد ونشاط، وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك؛ فهذا أحرى بالتوفيق والتسديد في جميع أموره»[١].

بل إن هذه القاعدة مما يتفق عليها أهل التجارب والنظر.

يقول الأديب الإنجليزي توماس كارليل: «ليس علينا أن نتطلع إلى هدف يلوح لنا باهتاً على البعد، وإنما علينا أن ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بيِّن»[٢].

ثم إن هذه القاعدة لا تعني أن نَدعَ القيام بالمشروعات، وأن نترك التخطيط للمستقبل، بل إنها من أعظم ما يعين على ذلك؛ فإنجاز العمل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ٥/ ٣٣ـ٣٤.

(٢) دع القلق وابدأ الحياة، ديل كارنيجي، ترجمة عبدالمنعم الزيادي ص٢٤ ـ ٢٥.

الحاضر يؤهلك ويدفعك لإنجاز ما تستقبله كما مر.

يقول الدكتور الكَنَديُّ أوسلر: «إن أفضل الطرق للاستعداد للغد هي أن نركز كل ذكائنا وحماسنا في إنهاء عمل اليوم على أحسن ما يكون؛ هذا هو الطريق الوحيد الذي نستعد به للغد»[١].

ط ـ ألا نحتقر شيئاً ننجزه من العمل: فمما يعين على اغتنام الأوقات أن نعمرها بالعمل النافع ولو كان قليلاً، وألا نحتقر ما نبذله من جهد ولو كان يسيراً.

بخلاف ما يوجد عند بعض الناس؛ فإما أن يقوم بأعمال كبيرة أو أن يدع العمل جملة؛ ذلك أن للنفوس إقبالاً وإدباراً، وكثير من الجادين يغتنم وقته حال الإقبال دون حال الإدبار؛ فإذا أقبلت نفسه، وهبَّتَ رياحُه ـ قام بأعمال جليلة في مدة قصيرة.

وإذا أدبرت نفسه، وسكنت ريحه ـ دبَّ الفتور إليه، وترك العمل بالكلية.

والذي تقتضيه الحكمة أن يغتنم المرء وقته حال إقبال نفسه وحال إدبارها؛ فإذا أقبلت ضاعف جهده، واستفرغ ما في وسعه.

وإذا أدبرت وانقبضت فلا يحسن به أن يدع العمل البتة، بل يحسن به أن ينجز أي عمل ولو كان يسيراً، وألا يحتقر ما يقدم ولو كان قليلاً.

والعرب تقول: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون»[٢].

فالأخذ بهذه الطريقة يفيد كثيراً؛ حيث يبعث المرء لاغتنام وقته، ويهيِّؤه لاستعادة نشاطه وقدرته، ويريحه من تراكم الأعمال عليه.

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «لا تحقر شيئاً من عمل غد أن تحققه بأن تعجله اليوم وإن قلَّ؛ فإن قليل الأعمال يجتمع كثيرها، وربما أعجز أمرها عند ذلك فيبطل الكل»[٣].

---

(١) دع القلق ص ٢٦.
(٢) الأمثال لأبي عبيد ص ٢٣٧.
(٣) الأخلاق والسير ص ٢٧-٢٨.

وقال: «لا تحقر شيئاً مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث أن تعجله الآن وإن قل؛ فإنه يَحُط عنك كثيراً لو اجتمع عليك لقذف بك في النار»[١].

ي ـ اختيار المكان المناسب: فمما يعين على إنجاز الأعمال ـ وخصوصاً ما كان منها يحتاج إلى تركيز ذهني ـ أن يختار المرء مكاناً ملائماً، يسوده الهدوء، ويخلو من كثرة المناظر التي تشغل، والمغريات التي تشتت وتصد عن البغية؛ فذلك أصفى للذهن، وأجمع للفكر، وأشخذ للقريحة، وأحفظ للوقت.

ولا يعني ذلك ألا يعمل الإنسان إلا في مكان هادىء؛ فذلك قد لا يتأتَّى في كل وقت؛ فهل يَدَعُ الإنسان العمل بالكلية، ويترك الوقت يَمُرُّ بلا فائدة؛ بحجة أن المكان غير ملائم؟

لا، بل يحسن بالعاقل إذا لم يتهيأ له المكان المناسب أن يغتنم الوقت بما يعود عليه بالنفع ولو قلَّ، فيغتنمه بقراءة القرآن، أو اللهج بذكر الله، أو باسترجاع بعض المحفوظات، أو بتدوين بعض الخواطر والأفكار، وهكذا. . .

٤٨ ـ السلامة من الغرور ومن المبالغة في احتقار النفس:

فهذان الأمران من أعظم الأسباب لدنو الهمم، والسلامة منهما من أعظم الأسباب لعلوها.

أما الغرور فهو أن يحتقر المرء كل من عداه، وأن يتطاول إلى ما ليس في قدرته، وأن يتدخل فيما ليس من شأنه، وأن يحكم على ما لم يُحِط به علمه.

حتى إن المغرور ليترفع عن الإصغاء إلى نصحية، أوالاستماع لرأي، أو الخضوع لكبير، أو الإجلال لعالم.

---

(١) الأخلاق والسير ص ٢٨.

وهذا المرض تبتلى به الأمم الضعيفة، المنتقلة من طور الخمول إلى دور اليقظة، أو المتردية من شامخ العزة إلى درك الضعف والذلة.

وإنه لمرض يتفشى في أمتنا اليوم، وحسبك أن تستمع إلى أحاديث الناس في المجتمعات العامة؛ لترى كيف يحمل كثير منهم مبضعَ الطبيب، يجرح به هذا، ويقطع به ذلك، وكيف ينطوي على غرور يجعل رأيه فوق الآراء، ونظره فوق الأنظار، وعلمه فوق كل علم.

وهو لا يفتأ في حديثه يصف الناس بالحماقة، وأهل العلم بالجهالة ونحو ذلك..

وحين تبتلى الأمة بهذه البلية فإنها تستعصي على نصح الناصحين، وتنحدر وهي تظن أنها في أعلى عليين، وتتراكم عليها المصائب، وهي تظن أنها أقوى من جميع أعدائها، تهزمهم بصرخة، وتردهم بإشارة، وتدفعهم عنها بالضجة، والثرثرة.

أما المرض الثاني فهو المبالغة في احتقار النفس؛ فتجد من الناس من هو محطم النفس، مسلوب الإرادة، فاقد الأمل، قليل الثقة بنفسه وبأمته، لا يرى أن باستطاعته أن يقوم بشيء في هذه الحياة.

وما أقسى هذا الداء، وما أمرَّه على الأمة؛ إذ يشل حركتها، ويجعلها ذليلة أمام كل جبار، ضعيفة أمام كل قوي.

وهذا المرض متفشٍّ في أمتنا؛ فكم من أمتنا من قضى عليه الخمول والكسل، ولو سألتهم عن ذلك لأجابوك: من نحن؟ وما قيمتنا؟ وماذا نستطيع أن نعمل؟ وهل بإمكاننا أن نوقف الشمس؟ أو أن نؤخر عجلة الزمن؟

كلا يا صاح، إنك شيء عظيم، تستطيع أن تفعل أشياء وأشياء، وما هؤلاء الذين تراهم ممن يملأون التاريخ بجلائل الأعمال إلا أناس مثلك، لهم مثل ما لك في الذكاء والموهبة، ولكنهم وثقوا بأنفسهم، وعرفوا قيمة مواهبهم.

أما أنت فقد قعدت بك همتك، فازدريت نفسك، وانتقصت أمتك، ورضيت لنفسك أن تكون نسياً منسيَّاً.

مثل هؤلاء في أمتنا كثير، وأعجب من ذلك أنك ترى في هؤلاء المصابين بمرض الخمول والاحتقار للنفس من هو مصاب في الوقت نفسه بداء الغرور أيضاً؛ فهو يضع نفسه في أمته موضع المتكبر المتبجح المغرور.

ولكنه يطرق رأسه أمام الأعداء حطة، وذلة، ومهانة.

والسلامة كل السلامة أن يسلمك الله من هذه الأدواء؛ فالإنسان العاقل السوي، الذي ينظر الأمور كما هي ـ هو ذلك الذي يسير على حد الاعتدال، فلا يُغَرُّ بما أوتي من ذكاء، وعلم، وقوة، فيزعم لنفسه كل فضيلة، ويتطاول بغروره إلى كل منزلة.

ولا يركن في الوقت نفسه إلى جوانب الضعف فيه، فيقوده ذلك إلى المبالغة في احتقار نفسه، وازدراء إمكاناته ومواهبه، فيقعد عن كل فضيلة، ويعيش في هذه الحياة كأنه همل مضاع، ولقىً مزدرى[(١)].

٤٩ ـ الشجاعة والإقدام، واطراح المبالغة في تعظيم شأن الخوف:

فالشجاعة فضيلة عظيمة، وخصلة من خصال الخير عالية، فهي من أعظم مقومات الهمة، ومن أهم أسباب اكتسابها.

فالشجاع يخاف من العار الذي يلحقه من احتمال الضيم، أو يرغب في أن يدرك مجداً شامخاً، فيقوده ذلك إلى أن يلقي بنفسه في مواقع الدفاع، لا يلوي جبينه عن طعان أو نضال.

---

(١) انظر أخلاقنا الاجتماعية ص ١٠ ـ ١٢، ولماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ص ١٤١ـ١٥١.

والأمة لا تحوز مكانة يهابها خصومها، وتقرُّ بِها عين حلفائها ـ إلا أن تكون عزيزة الجانب، صلبة القناة.

وعزة الجانب، وصلابة القناة لا ينزلان إلا حيث تكون قوة الجأش، والاستهانة بملاقاة المكاره، وذلك ما نسميه شجاعة[١].

«وحد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين، والحريم، وعن الجار المضطهد، وعن المستجير المظلوم، وعن الهضيمة ظلماً في المال، والعرض، وفي سائر سبل الحق»[٢].

والشجاعة لا تقتصر على الإقدام في ميادين الوغى، بل هي أعم من ذلك، فتشمل الشجاعة الأدبية في التعبير عن الرأي، وبالصدع بالحق، وبالاعتراف بالخطأ، وبالرجوع إلى الصواب إذا تبين، ونحو ذلك مما سيمر بنا.

وليس من شرط الشجاعة ألا يجد الرجل في نفسه الخوف جملةً من الهلاك، أو الإقدام، أو نحو ذلك؛ فذاك شعور يجده كل أحد من نفسه إذا هو همَّ بعمل كبير أو جديد.

«بل يكفي في شجاعة الرجل ألا يعظم الخوف في نفسه حتى يمنعه من الإقدام، أو يرجع به إلى الانهزام.

قال هشام بن عبدالملك لمسلمة: يا أبا سعيد، هل دخلك ذعر قط لحرب أو عدو؟

قال مسلمة: ما سلمت في ذلك من ذعر يُنَبِّه على حيلة، ولم يَغْشَني فيها ذعر سلبني رأيـي.

قال هشام: هذه هي البسالة»[٣].

---

(١) انظر رسائل الإصلاح ١/ ٧٧.

(٢) الأخلاق والسير لابن حزم ص ٣٢.

(٣) رسائل الإصلاح ١/ ٧٨.

بل إن أشجع الشجعان يجدون في أنفسهم ذلك الشعور إذا هم خاضوا المعمعان، وغشوا ساحات الوغى.

لكن ذلك لا يحملهم على الإحجام والانهزام.

فهذا عمرو بن معدي كرب[1] الزبيدي ـ وحسبك به شجاعة وإقداماً ـ يصف نفسه، ويصور حالته في ساحة الوغى، ويبين أن الخوف يداخله، ولكن لا يحمله على الفرار والإحجام، فلا ينقص ذلك من قدره، ولا ينزل من مكانته، حيث يقول:

ولقـد أجْمَـعُ رِجْلَـيَّ بهـا   حَـذَرَ المـوتِ وإنـي لفـرورْ
ولقـد أعْطِفُهـا كـارهـةً   حيـن للنفس مـن المـوت هـريرْ
كـلُّ مـا ذلـك منـي خلـقٌ   وبكـلٍّ أنـا بـالـروع جـديـر[2]

فالشجاعة إذاً هي مواجهة الألم أو الخطر أو نحو ذلك عند الحاجة في ثبات، وليست مرادفة لعدم الخوف كما يظن بعض الناس.

فالذي يرى النتائج، ويخاف وقوعها، ثم يواجهها في ثبات ـ رجل شجاع.

فالقائد الذي يقف على خط النار، فترتعد لذلك فرائصه؛ خشية من نزول الموت به، ثم يضبط نفسه، ويؤدي عمله كما ينبغي ـ هو رجل شجاع.

بل هو شجاع ـ أيضاً ـ إذا رأى أن خيرعمل يعمله أن يتجنب الخطر، وأن الواجب يقضي عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر.

فإن هو أضاع في موقفه رشده، أو ترك موقفاً يجب أن يقفه، أو فر بجنوده من خطر كان عليه أن يقفه ـ فهو جبان.

فالشجاعة لا تعتمد على الإقدام والإحجام فحسب، ولا على الخوف وعدمه، وإنما تعتمد على ضبط النفس، وعمل ما ينبغي في الوقت الذي ينبغي.

---

(١) انظر شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي لمطاع الطرابيشي.
(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٨٢.

قال عمرو بن العاص لمعاوية ـ رضي الله عنهما ـ: «لقد أعياني أن أعلم: أجبان أنت أم شجاع؟ فقال:

شجـاعٌ إذا مـا أمكنتنـي فـرصـةٌ ... وإلا تكـن لـي فـرصـة فجبـان[1]

بل ليس بالمحمود أن يتجرد الإنسان من كل خوف؛ فقد يكون الخوف فضيلة، وعدمه رذيلة؛ فالخوف عند الإقدام على أمر مهم تتعلق به مصالح الأمة، أو يحتاج إلى اتخاذ قرار حاسم ـ فضيلة وأي فضيلة؛ إذ هو يحمل على الرَّويّة، والتأني، والتؤدة، حتى يختمر الرأي، وينضج في الذهن[2]؛ فلا خير في الرأي الفطير، ولا الكلام القضيب[3]، والعرب تقول: «الخطأ زاد العَجُول»[4].

كما أنها تمدح من يتريث ويتأنى، ويقلِّب الأمور ظهراً لبطن، وتقول فيه: «إنه لَحُوَّلٌ قُلَّبٌ»[5].

ولهذا ما زال الحكماء ينصحون الناس ألا يقدموا على مواقع الخطر إلا أن تكون فائدة الإقدام أكبر من خسارته.

قال أبو الطيب المتنبي:

الـرأي قبـل شجـاعـةِ الشجعـانِ ... هـو أول وهـي المحـل الثـانـي
وإذا همـا اجتمعـا لنفـسٍ حُـرَّةٍ ... حازت من العلياء كل مكان[6]

وقال:

---

(١) عيون الأخبار ١/ ١٦٣.
(٢) انظر الأخلاق ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦.
(٣) الرأي الفطير: هو الذي لم ينضج، والكلام القضيب: هو المرتجل. انظر زهر الآداب للحصري القيرواني ١/ ١٥٤.
(٤) مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤٣٢.
(٥) الأمثال لأبي عبيد ص ١٠٠.
(٦) ديوان المتنبي ٤/ ١٧٤.

وكـل شجـاعـة فـي المـرء تغنـي ولا مثل الشجاعة في الحكيم[١]

وإنما الجبن المذموم، والخوف المرذول ـ هو ما بالغ صاحبه فيه مبالغة تخرجه عن طوره، فهذا هو خوف الجبان الرعديد، الذي يغلب جانب الشر، ويخشى سوء عواقبه.

أما الشجاع فلا يفكر كثيراً في احتمال الشر، ثم إذا وقع لم يَطِرْ قلبه شَعَاعاً، بل يصبر، ويتحمله بثبات؛ إن مرض لم يضاعف مرضه بوهمه، وإن نزل به مكروه قابله بجأش رابط فخفف شدته؛ فمن الحكمة والعقل ألا يجمع الإنسان على نفسه بين الألم بتوقع الشر، والألم بحصول الشر؛ فليسعد مادامت أسباب الحزن بعيدة عنه، فإذا حدثت فَلْيقابلْها بشجاعة واعتدال.

قال أبو علي الشبل:

ودع التـوقـع للحـوادث إنـه للحي من قبل الممات ممات[٢]

وبالجملة فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذي لا يخاف مما ينبغي أن يخاف منه، ولا هو بالجبان الرعديد الذي يَفْرَقُ من ظله، ويخاف مما لا يخاف منه[٣].

ثم إن الشجاعة ليست هي قوةَ البدن؛ فقد يكون الرجل قويَّ البدن ضعيف القلب، وإنما هي قوة القلب وثباته.

والمحمود منها ما كان بعلم ومعرفة، دون التهور الذي لا يفكر صاحبه، ولا يميز بين المحمود والمذموم.

ولهذا كان القوي الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح.

---

(١) ديوان المتنبي ٤/ ١٢٠.

(٢) صيد الخاطر ٢/ ٣٣٩.

(٣) انظر الأخلاق ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦، وفيض الخاطر ٢/ ٢٠٥، والمسؤولية ص ٣١ ـ ٣٢.

فأما المغلوب حين غضبه فليس بشجاع ولا شديد[١].

هذا ومما يعين على اكتساب الشجاعة، واطراح المبالغة في تعظيم شأن الخوف ـ زيادة على ما مضى ـ ما يلي:

* **أ ـ الدربة، والمران، والتعود:** فإن قلة الإلف لأمر من الأمور ـ تقود إلى الجبن؛ فالإنسان إذا لم يرَ الشيء ويألفه يجبن أمامه، كالطالب إذا لم يتعود الخطابة، فإنْ هو حاول تهدَّج صوتُه، وجفَّ ريقُه، وارتعشت أطرافه.

وكذلك من لم يتعود غشيان المجالس، ومخالطة الناس ـ فإنه يخاف منهم، ويلجئه الخوف إلى إيثار العزلة.

فإذا هو اضطر يوماً إلى الاجتماع بهم علاه الخجل، وزاد ارتباكه، واضطربت حركاته، وثقل على الناس، وثقلوا عليه.

وعلاج ذلك يكون بالدربة، والمران، والتعود، والممارسة، فلا يزال يتكلف الخطابة حتى يصير خطيباً، والجرأة حتى يصير جريئاً[٢].

قال البارودي:

واعْتَدْ على الخير؛ فالموفق من هـذَّبـه الاعتيـاد والـدَّرَبُ[٣]

* **ب ـ توطين النفس على وقوع المكروه، والحذر من تضخيم النتائج:** فمما يفيد في هذا الباب أن يفرض وقوع المكروه، ثم يُهَوِّنه ويوطن نفسه على احتماله، ثم يشرع في إنقاذ ما يمكنه إنقاذه.

فلو تصور أنه خطب ولم يُجِدْ، وانتقده السامعون، ثم صغَّر النتيجة وهوَّنها، وقال في نفسه: كلُّ خطيبٍ مُعَرَّضٌ لمثل ذلك ـ لتشجع، ولم يجبن.

بل ربما أصبح فيما بعد خطيباً مِصْقَعاً، لا تُقَيِّدُه حُبْسةٌ، ولا يثنيه جماح.

---

(١) انظر الاستقامة لابن تيمية ٢/ ٢٧١.

(٢) انظر الأخلاق ص ٢١٠.

(٣) ديوان البارودي ص ٧٩.

وكذا لو قرر الأطباء أن تعمل له عملية جراحية فَقَدَّرَ الموت، واستصغره ـ لقابل الأمر بثبات وهكذا[١]. . .

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ: «وطِّن نفسك على ما تكره يقلَّ همُّك إذا أتاك، ويعظم سرورك ويتضاعف إذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدَّرْتَه»[٢].

* **ج ـ النظر في العواقب:** وذلك بأن ينظر إلى عواقب كلٍّ من الجبن والشجاعة، فإذا ظهر له أن ما يصل إليه من الخير إنْ هو تشجع أعظمُ مما يصل إليه من الجبن ـ استحثه ذلك على الشجاعة.

فمن جبن عن أن يرحل عن بلده لطلب رزق أو علم ـ فلينظر في الأمر، فسيرى أن من المحتمل أن يصيبه مرض في رحلته، وأنه قد يموت في أرض غربته.

ولكن من المؤكد أنه إذا لم يرحل ضاق رزقه، أو قل علمه، أو كان جباناً، أو جاهلاً حتماً.

فالنظر في العواقب قد يحمل المرء على أن يكون شجاعاً، لاسيماإذا علم أنْ ليست الحياة بنبض القلب، ولا بالأكل والشرب، وإنما هي بالعمل الجاد، والإفادة والاستفادة، وإلا أصبح الإنسان من سقط المتاع لا قيمة له عند أحد.

وما للمرء خير في حياة ... إذا ما عد من سقط المتاع

قال أعرابيٌ من باهلة:

فَلَلْمَوْتُ خيرٌ من حياة يُرى لها ... على الحر بالإقلال وسم هوان[٣]

ولهذا كانت عناية القرآن بخصلة البطولة والإقدام؛ حيث أقبل على

---

(١) انظر الأخلاق ص ٢١١.

(٢) الأخلاق والسير ص ٢٦، وانظر صيد الخاطر ١/ ١١٠-١١١، ودع القلق ص ٣٥-٤٤.

(٣) عيون الأخبار ١/ ٢٣٩.

النفوس، وأخذ ينقيها من رذيلة الجبن والإحجام، ويذكرها بسوء عاقبة الجبناء، كقوله ـ تعالى ـ: ﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ﴾ [التوبة: ٨].

فقد أشارت الآية إلى أن عاقبةَ الجبناءِ أن يبتلوا بذي قوة لا يعرف للعهد حرمة، ولا يقيم للعدل وزناً.

ومن الذي يرتاب أن الموت في مواطن البطولة أشرف من حياة يغمرها الذل والهوان؟[١].

قال أبو الطيب المتنبي:

غير أن الفتى يلاقي المنايا ... كالحاتٍ ولا يلاقي الهوانا
وإذا لم يكن من الموت بدٌّ ... فمن العجز أن تموت جباناً[٢]

* **د ـ اطراح المبالاة بكلام الناس:** فذلك هو باب العقل والراحة كلها، كما قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ[٣].

ولا يعني اطراح المبالاة بكلام الناس أن يتقصد المرء مخالفة الناس، وأن يعمد إلى مخاشنتهم، والإغلاظ عليهم؛ لأن الحكمة تقتضي مداراة الناس، ومعرفة أحوالهم، وإنزالهم منازلهم؛ فالحكيم الحازم العاقل يزن عقول من يلاقونه، ويحس ما تكن صدورهم، وتنزع إليه نفوسهم، فيصاحبهم وهو على بصيرة مما وراء ألسنتهم من عقول، وسرائر، وعواطف، فيتيسر له أن يسايرهم إلا أن ينحرفوا عن الرشد، ويتحامى ما يؤلمهم إلا أن يتألموا من صوت الحق.[٤]

فإذا قام المرء بما تقتضيه الحكمة ـ فَلْيقدِم على ما قصد إليه دونما

---

(١) انظر الهداية الإسلامية ص ٣٩.
(٢) ديوان المتنبي ٤/ ٢٤١.
(٣) انظر الأخلاق والسير ص ١٧.
(٤) انظر رسائل الإصلاح ١/ ٩٥.

التفات أو مبالاة بكلام أحد؛ فلا لوم ولا تثريب عليه حينئذٍ.

* **هـ - أن يستحضر المرء أنْ لا سلامة من الناس:** فالسلامة من الناس عزيزة المنال، خصوصاً إذا كان المرء ممن يتصدر ويقوم بجلائل الأعمال.

قال ابن حزم - رحمه الله -: «من قدَّر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم - فهو مجنون»[1].

فإذا كان الأمر كذلك كان حريَّاً بالمرء ألا يعظم شأن الناس في قلبه، وألا يجعل مراقبتهم والخوف من ثلبهم وعيبهم حائلاً بينه وبين تحقيق مآربه النافعة له، ولأمته، ووطنه.

قال بشار بن برد:

من راقبَ الناسَ لم يظفرْ بحاجته ... وفاز بالطيباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ[2]

وقال سلم الخاسر:

من راقب الناس مات همَّاً ... وفاز باللذةِ الجسور[3]

وبالجملة فاحرص على أن تركز جهدك، وتستفرغ طاقتك في العمل الذي تراه صواباً، ثم بعد ذلك أدِرْ ظهرك، وصمَّ أذنيك عن كل ما ينالك من لوم اللائمين، ونقد الظالمين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

ومما يعينك على ذلك أن تستشعر أن كلام الناس لا يضرك أبداً إلا إذا اشتغلت به، وأن تتذكر جيداً، بأن النقد الظالم إنما هو اعتراف ضمني بقدرتك وعلوِّ كعبك؛ فبقدر ذلك يكون النقد الموجه إليك.

ثم اعلم عِلْمَ اليقين بأن الناس لا يشغلهم أمرك كثيراً؛ فهم مشغولون

---

(١) الأخلاق والسير ص ١٧.
(٢) ديوان بشار بن برد ص ٦٠.
(٣) بهجة المجالس ١/ ١٢٢.

بأنفسهم في غالب أمرهم؛ فأدنى شيء يَحدُثُ لهم ينسيهم ما سمعوه عنك[١].

* **و ـ معرفة قدر النفس:** وذلك بأن يعرف المرء قدر نفسه، فلا يقدم على عمل إلا وهو عالم بقدرته عليه، ولا يكلف نفسه إلا ما تطيقه؛ «فالذي يَقْدُرُ نفسه فوق قدرها إنما يرهقها، والذي يقدر نفسه أقل من قدرها إنما يضيع إمكاناتها سدى.

وأما الذي يقدر نفسه حق قدرها فإنها يضعها في مكانها دون إرهاق لطاقتها، ودون إهدار لمميزاتها»[٢]

قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «ينبغي للعاقل ألا يقدم على العزائم حتى يزن نفسه هل يطيقها، ويجرب ركوب بعضها سرّاً من الخلق؛ فإنه لا يأمن أن يُرى في حالة لا يصبر عليها، فيفتضح»[٣].

* **ز ـ أن يستحضر أن الإخفاق لا يضر:** فإذا أخفق المرء في بداية أمره مرة أو أكثر ـ فلا ينزعج لذلك، وليعد الكرَّة بعد الكرة، وليعلم أن الإخفاق طريق النجاح، وأن الخطأ طريق الصواب؛ فليس الإخفاق عاراً إذا كنت بذلت جهدك بإخلاص، ولا يعد المرء مخفقاً حتى يتقبل الهزيمة كأنها دائمة ويتخلى عن المحاولة؛ فهذا أديسون مخترع المصباح الكهربائي ـ أخفق عشرة آلاف مرة قبل أن يصنع المصباح؛ فلا تقلق إذا أنت أخفقت مرة أو أكثر[٤].

* **ح ـ الثقة بالنفس:** وذلك بألا يقتصر على تذكر جوانب الضعف فيها؛

---

(١) انظر دع القلق ص ٢٢٤ـ٢٣٠.

(٢) أنت وقدراتك تأليف فرجينيا بيلارد، ترجمة د. عطية محمود هنا، إشراف ومراجعة وتقديم د. عبدالعزيز القوصي ص ٧.

(٣) صيد الخاطر ٢/ ٢٤٣.

(٤) انظر طاقتك الكامنة، سمير شيخاني ص ٢٧١.

لأن ذلك يقود إلى المبالغة في احتقارها، وبالتالي تحجم ولا تقدم.

بل يتذكر مع ذلك جوانب القوة والإبداع فيها؛ حتى تنبعث إلى الإقدام، وتكتسب شيئاً من الهدوء والثقة.

قال الرافعي ـ رحمه الله ـ: «الذي يحيا بالثقة تحييه الثقة»(١).

* **ط ـ أخذ الأهبة والاستعداد:** فإذا أراد أن يتكلم في مجمع ـ على سبيل المثال ـ فَلْيَقُمْ بأخذ الأهبة والاستعداد؛ حتى لا يُرْتَجَ عليه، خصوصاً إذا كان في بداياته؛ فإن التقصير بالأخذ بالأسباب مما يضعف المرء ويربكه.

ومما ينفع في ذلك إراحة الجسم؛ ذلك أن الخوف يتبع التعب الذي ينال المجموع العصبي، كالذي ينال الشخص عقب مجهود كبير بذله، أو تفكير طويل فكَّره، أو حادثة جليلة هَزَّتْهُ؛ فهذه الأشياء وأمثالها تضعف المجموع العصبي، فإذا أخذ الجسم قسطاً من الراحة استرد الإنسان راحته، وزال خوفه.(٢)

فإذا هو قام بالأسباب فليتوكل على الله، وليفوض الأمر إليه.

* **ي ـ الإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لله في الأمر:** فالإيمان بالقضاء والقدر يقتضي أن يوقن العبد بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه.

وهذا يبعثه إلى أن يقدم غير هياب ولا مبال بما سيناله، فإذا كتب الله له حياة فلن تفوته وإن وقف في جفن الردى، وإن كتب له موتاً فلن يفوته أو يفلت منه ولو كان في بروج مشيدة؛ فما يغني الفرار، وما يضر الإقدام؟

يروى عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ قوله:

أي يومي من الموت أفِر   يوم لا يُقْدَر أو يوم قدر

---

(١) وحي القلم ١/ ٢٣٢، وانظر قوة الإرادة وطرق تنميتها ص ٢٣.

(٢) انظر فيض الخاطر ١٠/ ٢٢٣.

يـــوم مـــا قـــدِّر لا أرهبـــه وإذا قـــدر لا ينجـــي الحـــذر[1]

وكان معاوية ـ رضي الله عنه ـ يتمثل بهذين البيتين:

كـــأن الجبـــان يـــرى أنـــه سيقتـــل قبـــل انقضـــاء الأجـــلْ
وقـد تـدرك الحـادثـاتُ الجبـان ويسلـم منهـا الشجـاع البطـل[2]

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والذي يحسم مادة الخوف هو التسليم لله؛ فمن سلَّم لله، واستسلم له، وعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب له ـ لم يبقَ لخوف المخلوقين في قلبه موضع أيضاً؛ فإن نفسه التي يخاف عليها قد سلَّمها إلى وليها ومولاها، وعلم أنه لا يصيبها إلا ما كتب لها، وأن ما كتب لها ـ لابد أن يصيبها؛ فلا معنى للخوف من غير الله بوجه.

وفي التسليم ـ أيضاً ـ فائدة لطيفة، وهي أنه إذا سلمها لله فقد أودعها عنده، وأحرزها في حرزه، وجعلها تحت كنفه؛ حيث لا تنالها يَدُ عَدُوٍّ عادٍ، ولا بغيُ باغٍ عاتٍ»[3].

* **ك ـ الصبر عند الصدمة الأولى:** فإذا كان الإنسان في أول الطريق للخطابة، أو للحروب أو نحو ذلك ـ فإنه يحتاج إلى الصبر عند الصدمة الأولى؛ لأنه معرض للإخفاق، فإذا صبر في بداية الأمر هان عليه استدراك ما مضى.

وأما إذا أيس وترك الأمر من بدايته فإنه لن ينال مجداً ولا رفعة.

* **ل ـ الخطار بالنفس:** فهذا مما تنال به الشجاعة، ويُطَّرح فيه الجبن، فقد يحتاج إليه الإنسان في بعض الأحايين؛ فالتاجر قد يحتاج إليه، والمتكلم، والمحارب كذلك.

---

(١) ديوان الإمام علي ص ٧٩ ـ ٨٠.
(٢) بهجة المجالس ٢/ ٤٨٠.
(٣) مدارج الساكين ٢/ ٣٢.

قال معاوية لعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ: «من طلب عظيماً خاطر بعظيمة»[١].

وكان عمرو يقول: «عليكم بكل أمر مزلقة مهلكة» أي عليكم بجسام الأمور[٢].

وقال كعب بن زهير ـ رضي الله عنه ـ:

وليس لمن لم يَرْكبِ الهولَ بُغيةٌ ... وليس لرحلٍ حطَّه الله حاملُ
إذا أنت لم تُقْصِرْ عن الجهل والخنا ... أصبت حليماً أو أصابك جاهل[٣]

وقال آخر:

الذلُّ في دعةِ النفوس ولا أرى ... عزَّ المعيشةِ دون أن يسعى لها[٤]

وقال آخر:

لابد أن أركَبَها صعبةً ... وقَّاحةً تحت علام وَقَّاح
أُجْهِدُها أو تنثني دونه ... دون الذي أمَّلت أو بالنجاح
إما فتى نال المنى فاشتفى ... أو بطل ذاق الردى فاستراح[٥]

وقال علي بن المقرب العيوني:

سأمضي على الأيام عزم ابن حُرّةٍ ... يرى العَوْدَ فيما تكره النفس أحمدا
فإما حياة لا تُذمُّ حميدةٌ ... يُحدِّث عنها من أغار وأنجدا
أنال المنى فيها وإما مَنِيَّةٌ ... تريح فؤاداً أحَّ[٦] من غُلَّة الصدى[٧]

* م ـ **التقوى:** فتقوى الله ـ عز وجل ـ هي أعظم باعث على الشجاعة؛ لأن

---

(١) عيون الأخبار ١/ ٢٣١.
(٢) عيون الأخبار ١/ ٢٣١.
(٣) ديوان كعب بن زهير ص ١٣٤.
(٤) عيون الأخبار ١/ ٢٣٢.
(٥) أدب الطلب للشوكاني ص ١٢٩.
(٦) أحَّ: سعل، والصدى: العطش.
(٧) علي بن المقرب العيوني حياته ـ شعره ص ٣٢٢

من عرف ربَّه، وقدره حقَّ قدره، وعظم وقاره وجلاله في قلبه ـ هانت عليه الدنيا، وزال من قلبه مهابة الخلق، وانقلبت في حقه المخاوف أمناً.

فالتقوى هي العدة في الشدائد، والعون في الملمات، وهي متنزل السكينة، ومهبط الرَّوْح والطمأنينة، وهي مبعث القوة واليقين، ومعراج السمو إلى السماء، وهي التي تثبت الأقدام في المزالق، وتربط على القلوب في الفتن[1].

قال الشيخ محمد الخضر حسين ـ رحمه الله ـ: «ومن تفقَّه في التقوى عرف أنها الوسيلة الكبرى للعظمة الصادقة؛ فإنها بذل الإنسان جهده وسعيه في طرق الفلاح.

ومن تَقْوى الرجل الذي رُزِق ألمعيةً متوقِّدةً، وهمةً سامية ـ أن يقتحم الأخطار، ويقذف في نفسه في معالي الأمور، فإذا هو في جلال وعظمة، وإن لم يَجِدِ الزهوُ والكبرُ إلى نفسه منفذاً»[2].

* ن ـ **الإكثار من ذكر الله:** فبذكر الله تطمئن القلوب، وتسكن النفوس. قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وبذكر الله يقوي القلب، ويُغْلَب العدو، وتهون الصعاب.

ولهذا أرشدنا الله ـ تبارك وتعالى ـ إذا لقينا العدو أن نثبت وأن نذكره ـ عز وجل ـ لما في ذكره من الطمأنينة والثبات.

قال ـ تعالى ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في معرض حديثه عن فضائل الذكر: «إن الذكر يعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يظن فعله بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام بن تيمية في سننه، وكلامه، وإقدامه

(١) انظر عيون البصائر ص ٢٩١.
(٢) العظمة ص ١٥- ١٦.

أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً»[١].

وأفضل الذكر بعد القرآن تلك الكلمات الأربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وكذلك: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فلها أثر عظيم في شجاعة القلب وثباته.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن هذه الكلمة العظيمة: «وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال، والدخول على الملوك ومن يُخَافُ، وركوب الأهوال ولها ـ أيضاً ـ تأثير في دفع الفقر»[٢].

٥٠ ـ الإقبال على ما ينفع، والإعراض عن كل ما لا ينفع:

وهذا الأمر جماع لما مضى من الأسباب المعينة على اكتساب الهمة العالية.

فمن شأن متطلب الكمال، والساعي إلى حميد الفعال ـ أن يقبل على كل أمر ينفعه، وأن يسلك السبل المفضية إلى ما رامه وأمَّله، وأن يتجنب كلَّ أمر يعوقه ويقطع سيره، وأن ينأى بنفسه عن كل ما من شأنه أن ينزل قدره، ويدني همته.

وللإمام ابن القيم في هذا الشأن كلام قيم؛ فإليك أيها القارئ هذا الكلام النوراني من ذلك العالم الرباني:

قال ـ رحمه الله تعالى ـ: «طالب النفوذ إلى الله والدار الآخرة، بل وإلى كل علم، وصناعة، ورئاسة بحيث يكون رأساً في ذلك، مقتدى به فيه ـ يحتاج أن يكون شجاعاً مقداماً، حاكماً على وهمه، غير مقهور تحت سلطان تَخَيُّله، زاهداً في كل ما سوى مطلوبه، عاشقاً لما توجه إليه، عارفاً

---

(١) الوابل الصيب لابن القيم ص ١٠٦.
(٢) الوابل الصيب لابن القيم ص ١٠٧.

بطريق الوصول إليه، والطرق القواطع عنه، مقدام الهمة، ثابت الجأش، لا يثنيه عن مطلوبه لوم لائم، ولا عذل عاذل، كثير السكون، دائم الفكر، غير مائل مع لذة المدح ولا ألم الذم، قائماً بما يحتاج إليه من أسباب معونته، لا تستفزه المعارضات، شعاره الصبر، وراحته التعب، مُحبًّا لمكارم الأخلاق، حافظاً لوقته، لا يخالط الناس إلا على حذر كالطائر الذي يلتقط الحب بينهم، قائماً على نفسه بالرغبة والرهبة، طامعاً في نتائج الاختصاص على بني جنسه، غير مرسل شيئاً من حواسه عبثاً، ولا مُسَرِّحاً خواطره في مراتب الكون.

وملاك ذلك هجر العوائد، وقطع العلائق الحائلة بينك وبين المطلوب»[1].

* * *

---

(١) الفوائد لابن القيم ص ٢٧١ ـ ٢٧٢.

الفصل الثالث

نماذج رائعة للهمة العالية

نماذج رائعة للهمة العالية

سـير عظماء الرجـال من علـماء، ومجاهدين، وكرمـاء، وأبطال ـ من أعـظم ما يبعـث الهمـة، ويقـدح زندهـا، ويذكي أوارهـا؛ ذلك أن حيـاة أولئك ـ كما مر ـ تتمثل أمام القارىء، وتوحي إليه بالاقتداء بهم، والسير على منوالهم.

وكثيراً ما دفع الناس إلى العمل الجليل حكاية قرؤوها عن رجل عظيم، أو حادثة رويت عنه.

وأمتنـا الإسلامية على مر عصورها لم تخـلُ من نمـاذج عظيمة، وقمم سامقة؛ سواء في ميادين العلم والعبادة، أو في ميادين الجهاد والدعوة، أو في ميادين البذل والعطاء والتضحية، أو نحو ذلك.

وإليك أيها القارىء هـذه الإشارات العـابرة، والنتف اليسرة، لرجـال أفذاذ أبطـال، ملأوا حياتهم بجلائل الأعـمال، فشـهدت لـهم الأمـة بعلو المنزلة، وسجل لهم التاريخ تلك المآثر.

ولن يكون الحديث ههنا عن سيرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلقد سبقت الإشارة السريعة إلى شيء من ذلك، ولأجـل ألا يقال هذا رسول مؤيد بالوحي من ربه.

بل ولن يكون عن الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ فلقد سبقت الإشارة إليهم بشيء من الإجمال، ولئلا يقال هؤلاء الصحابة قد تربوا على يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشهدوا الوحي وهو يتنزل عليه:

فـ: لا تعرضن بذكرهم مع ذكرنا ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

وإنما سيكون الحديث عن أناس تأخر بهم الزمان عن عهد النبوة

والصحبة، ومع ذلك نالوا ما نالوه من مجد وسؤدد وذلك عندما زكت نفوسهم، وعلت هممهم، وحسن اتباعهم.

وهذه نماذج لبعض هؤلاء تبين بعض ملامح النبوغ والألمعية، وتكشف جوانب الهمة العلية في شخصية أولئك.

١ـ نور الدين محمود ٥١١هـ ـ ٥٦٩:

هو صاحب الشام، الملك العادل، نور الدين ناصر أمير المؤمنين تقي الملوك، ليث الإسلام، أبو القاسم محمود ابن الأتابك قسيم الدولة أبي سعيد عماد الدين زنكي ابن الأمير الكبير آقسنقر التركي السلطاني الملكشاهي [1].

قال عنه ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «ولد وقت طلوع الشمس من يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب، والموصل، وغيرها من البلدان الكثيرة الكبيرة.

تعلم القرآن، والفروسية، والرمي، وكان شهماً، شجاعاً، ذا همة عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة، وديانة بينة»[2].

لقد خرج هذا الرجل في فترة حرجة من تاريخ الأمة الإسلامية؛ فلقد كانت الأمة تعاني من التفكك، والانحلال، وتسلط الأعداء، وانتشار البدع.

فالأمراء والملوك ـ آنذاك ـ كل واحد منهم يقبع في أمارة أو دويلة صغيرة، وبينهم ما بينهم من التفرق والتنافر والخلاف.

والصليبيون يعيثون في بلاد الشام فساداً بعد أن استولوا على كثير من الحصون والقلاع والمدن.

والعبيديون الباطنيون كانوا مستولين على مصر؛ فكانت أعلام البدعة مرفوعة، وأعلام السنة موضوعة، مما جعل الحاجة ـ بل الضرورة ـ ماسة إلى من يوحد كلمة الأمة، ويلم شعثها، ويصد فلول الأعداء عنها.

فكان أن خرج نور الدين الذي كان أبرز أبطال الحروب الصليبية،

---

(١) انظر سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٠/٥٣١.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ١٢/٢٩٩.

والذي كان بروزه نقطة تحول في تاريخ تلك الحروب؛ فإن له ـ رحمه الله ـ من اسمه نصيباً؛ فلقد أوقد في دياجير الظلمة والضعف جذوة الدين، وأنزل الهزائم الساحقة بالصليبيين، وامتشق حسامه منذ نعومة أظفاره، فلم يغمده حتى أتاه اليقين، وبعد أن قرت عينه بتألق نجم تلميذه صلاح الدين، حين قام على تراث الشهيد بالرعاية والصيانة والتمكين[1].

وإن مما يقوي الرغبة في دراسة سيرة هذا الرجل ـ أعني نور الدين ـ هو ذلك التشابه بين الأوضاع القاسية التي مرت بها أمة الإسلام في الماضي، وبين الأوضاع التي نعيشها حالياً؛ فكأن التاريخ يعيد نفسه؛ فكان من مسوغات الحديث عن سيرته ـ الاستفادة من هموم الماضي لعلاج الحاضر[2].

فإلى ما يلي من أسطر تكشف لنا شيئاً من تلك السيرة العطرة لذلك المجاهد العظيم، تلك السيرة التي تُنْبي عن همة عالية ونفس كبيرة، وتبين عن شجاعة متناهية وبطولة وسؤدد.

أولاً: صفاته ومناقبه:

لقد جمع الله لنور الدين الشئ الكثير، ولقد آتاه من مهيئات النبوغ، ومقومات الألمعية ـ ما جعله يتبوأ تلك المكانة العلية من تاريخ الأمة الإسلامية.

فمن تلك الصفات التي اتصف بها نور الدين ما يلي:

* **أ ـ التقوى والصلاح:** فلقد كان نور الدين تقيًّا، صالحاً، ورعاً، زاهداً، يخاف الله ـ تبارك وتعالى ـ.

وكان ذا تأله وعبادة، وأوراد، وقيام بالليل، وكان كثير التضرع،

---

(١) انظر أبطال ومواقف لأحمد فرح عقيلان ص ٤٣١، ونور الدين زنكي في الأدب العربي في عصر الحروب الصليبية لمحمود فايز السرطاوي ص ٩.

(٢) انظر نور الدين زنكي في الأدب العربي ص ١٠.

والدعاء واللجوء إلى الله ـ عز وجل ـ.

قال ابن الأثير ـ رحمه الله ـ متحدثاً عن صفات نور الدين: «فمن ذلك زهده، وعبادته، وعلمه؛ فإنه كان لا يأكل، ولا يلبس، ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من مِلْكٍ كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين.

ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة، فأعطاها ثلاثة دكاكين في حمص، كانت له يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً.

فلما استقلتها قال: ليس لي إلا هذا، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين فيه، ولا أخوض نار جهنم لأجلك.

وكان يصلي كثيراً بالليل، وله أوراد حسنة، وكان كما قيل:

جمع الشجاعةَ والخشوعَ لربه ... ما أحسن المحرابَ في المحراب[1]

وكذلك كانت زوجته عصمت الدين خاتون بنت الأتابك معين ـ تكثر القيام في الليل، فنامت ذات ليلة عن وردها، فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوّت عليها وردها، فأمر نور الدين عند ذلك بضرب طلبخانة[2] في القلعة وقت السحر؛ لتوقظ النائم ذلك الوقت لقيام الليل، وأعطى الضارب على الطلبخانة أجراً جزيلاً، وجراية كثيرة.

فألبس الله هاتيك العظام وإن ... بَلِيْنَ تحت الثرى عفواً وغفرانا

سقى ثرىً أوْدَعُوه رحمة ملأت ... مثوى قبورهم روحاً وريحانا»[3]

---

(١) المحراب الأولى: صيغة مبالغة بمعنى كثير الحرب، والمحراب الثانية قبلة الصلاة، وبين الكلمتين جناس تام كما هو معروف عند البلاغيين في فن البديع.

(٢) الطلبخانة نوع من الطبول، وهي بمثابة المدافع في عصرنا الحاضر.

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٩/ ٢٢٥ وانظر البداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١.

«وقال الفقيه أبو الفتح الأشري معيد النظامية ببغداد ـ وكان قد جمع سيرة مختصرة لنور الدين ـ قال: وكان نور الدين محافظاً على الصلوات في أوقاتها في جماعة بتمام شروطها، والقيام بها بأركانها، والطمأنينة في ركوعها وسجودها.

وكان كثير الصلاة بالليل، كثير الابتهال والتضرع إلى الله ـ عز وجل ـ في أموره كلها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية ممن يعتمد قولهم أنهم دخلوا بلاد القدس للزيارة أيام أَخَذَ القدسَ الفرنجُ، فسمعتهم يقولون: إن القسيم ابن القسيم ـ يعنون نور الدين ـ له مع الله سر؛ فإنه لم يظفر وينصر علينا بكثرة جنده وجيشه، وإنما يظفر علينا، وينصر بالدعاء وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل، ويرفع يده إلى الله، ويدعوه، فإنه يستجيب له، ويعطيه سؤله، فيظفر علينا.

قال: فهذا كلام الكفار في حقه»[1].

وقال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «وقد كان ـ رحمه الله ـ حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية، محافظاً على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، مُحبّاً لفعل الخيرات، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق على نفسه وعياله في المطعم والملبس حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه أعلا نفقةً منه، من غير اكتناز ولا استئثار بالدنيا.

ولم يسمع منه كلمة فُحشٍ قط في غضب ولا رضى، صموتاً وقوراً»[2].

وقال الذهبي ـ رحمه الله ـ: «وكان نور الدين مليح الخط، كثير

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٤.
(٢) البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٠.

المطالعة، يصلي في جماعة، ويصوم، ويتلو، ويسبح، ويتحرى في القوت، ويتجنب الكبر، ويتشبه بالعلماء والأخيار، ذكر هذا ونحوه الحافظ ابن عساكر»[1].

وقال الموفق عبداللطيف: «وكان يأكل من عمل يده، ينسخ تارة، ويعمل أغلافاً تارة، ويلبس الصوف، ويلازم السجادة والمصحف»[2].

وقال سبط بن الجوزي: «كان له عجائز، فكان يخيط الكوافي، ويعمل السكاكر، فيَبِعْنَها سرّاً، ويفطر على ثمنها»[3].

وقال ـ أيضاً ـ: «حكى لي نجم الدين بن سلام عن والده أن الفرنج لما نزلت على دمياط مازال نور الدين عشرين يوماً يصوم ولا يفطر إلا على الماء، فضعف وكاد يتلف، وكان مهيباً ما يجسر أحد أن يخاطبه في ذلك.

فقال إمامه يحيى: إنه رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في النوم يقول: يا يحيى، بَشِّر نور الدين برحيل الفرنج عن دمياط.

فقلت: يا رسول الله، ربما لا يصدقني، فقال: قل له: بعلامة يوم حارم[4].

وانتبه يحيى، فلما صلى نور الدين الصبح، وشرع يدعو هابه يحيى، فقال له: يا يحيى، تحدثني أو أحدثك، فارتعد يحيى، وخرس، فقال: أنا أحدثك: رأيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذه الليلة، وقال لك: كذا وكذا، قال: نعم.

قال: فبالله يا مولانا، ما معنى قوله: بعلامة يوم حارم؟ فقال: لما التقينا العدو خفت على الإسلام فانفردت، ونزلت، ومرغت وجهي على

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٤.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٧.
(٤) أحد المعارك التي خاضها نور الدين.

التراب، وقلت: يا سيدي، من محمود في البين؟ الدين دينك، والجند جندك، وهذا اليوم افعل ما يليق بكرمك.

قال: فنصرنا الله عليهم»[١].

* **ب ـ العدل:** كان نور الدين ـ رحمه الله ـ عادلاً متحرياً للعدل في كافة أموره، حتى إنه أصبح مضرب المثل في العدل، بل إنه يسمى الملك العادل.

قال ابن الأثير: «وقد طبق الأرض بحسن سيرته، وعدله، وقد طالعت سير الملوك المتقدمين فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن من سيرته، ولا أكثر تحرياً منه للعدل»[٢].

وقال ـ أيضاً ـ: «وأما عدله فإنه لم يترك في بلاده على سعتها مَكْساً ولا عُشراً، بل أطلقها جميعاً في مصر، والشام، والجزيرة، والموصل.

وكان يُعظِّم الشريعة، ويقف عند أحكامها.

وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم، فمضى معه إليه، وأرسل إلى القاضي كمال الدين بن الشهرزوري يقول: قد جئت محاكماً؛ فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم، وظهر الحق له، فوهبه الخصم الذي أحضره، وقال: أردت أن أترك له ما يدعيه، إنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة، فحضرت، ثم وَهَبْتُهُ ما يدَّعيه.

وبنى دار العدل في بلاده، وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم ولو أنه يهودي من الظالم ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده»[٣].

وقال ـ أيضاً ـ في كتابه التاريخ الباهر: «كان عارفاً بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب، بل الإنصاف سجيته في كل شيء»[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٨.
(٢) الكامل ٩/ ١٢٥.
(٣) الكامل ٩/ ١٢٥.
(٤) التاريخ الباهر في أخبار الدولة الأتابكية لابن الأثير ص ١٦٥.

وقال الذهبي: «صاحب الشام الملك العادل نور الدين»[١].

وقال: «وكان نور الدين حامل رايتي العدل والجهاد، قلَّ أن ترى العيون مثله»[٢].

وقال ابن كثير: «وكان يقوم بأحكامه بالمعدلة الحسنة، واتباع الشرع المطهر، ويعقد مجالس العدل، ويتولاها بنفسه، ويجتمع إليه في ذلك القاضي، والفقهاء، والمفتيون من سائر المذاهب.

ويجلس يوم الثلاثاء بالمسجد المعلق الذي بالكشك؛ ليصل إليه كل واحد من المسلمين وأهل الذمة حتى يساويهم»[٣].

* **جـ ـ الغيرة الصادقة:** لقد كان ـ رحمه الله ـ ذا غيرة صادقة على دين الله، وعلى محارم المسلمين، فلقد تفتحت عيناه على أحوال المسلمين المتردية، وعلى هزائمهم المتلاحقة، وكان ذلك يؤلمه أشد الألم.

ومما يذكر في هذا الصدد أن نور الدين كان قليل الابتسام جدّاً، فلما وعظه إمامه بأن الابتسام من وصايا النبوة قال له نور الدين: لا تؤاخذني أيها الشيخ، كيف أبتسم وآلاف المسلمات سبايا عند كفار لا يتقون، ولا يرحمون؟ وكيف أبتسم والمسجد الأقصى يدنسه العدو؟!([٤]).

* **د ـ الهمة العالية:** لقد كان ـ رحمه الله ـ ذا همة عالية، ونفس كبيرة طماحة، فمع أنه نشأ وهو يرى ما حل بالمسلمين من ضعف وتفرق ومهانة ـ إلا أن ذلك لم يفتَّ من عضده، ولم يثن من عزمته، بل كان ذلك دافعاً له أن يسعى في رفع البلاء عن الأمة، وفي استعادة ما سلب منها من عز ومجد.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٣١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٣٢.

(٣) البداية والنهاية ١٢/٢٩٩.

(٤) انظر أبطال ومواقف ص ٤٣٤.

ولقد كانت أمنيته، وهاجسه، وشغله الشاعل ـ فتح بيت المقدس، وتطهيره من رجس الصليب.

ومما يدل على علو همته، وكبر نفسه أنه عندما كان في حلب، وقت تسلط الصليبيين وسيطرتهم ـ قام بعمل منبر عظيم، وبالغ في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا عملناه؛ لينصب ببيت المقدس.

وكان الناس ـ أنذاك يسخرون منه، ويستبعدون تحقق أمنيته؛ إلا أنه لم يلتفت إلى ذلك، واستمر في إصلاح ذلك المنبر، وحاله تلك كحال نبي الله نوح ـ عليه السلام ـ عندما كان يصنع الفلك، وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه.

ولقد أراد نور الدين من هذا الصنيع أن يبث الروح، وأن يبعث الهمم، وأن يبدد اليأس الذي خيم على كثير من القلوب.

ولقد حقق الله له أمنيته، ففتحت بيت المقدس، ونصب فيها المنبر على يد تلميذه صلاح الدين، وذلك بعد وفاة نور الدين ـ رحمه الله ـ.

يقول ابن الأثير بعد أن تحدث عن بيت المقدس: «ولما كان الجمعة الأخرى رابع شعبان صلى المسلمون فيه الجمعة، ومعهم صلاح الدين، وصلى في قبة الصخرة، وكان الخطيب والإمام محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق.

ثم رتب صلاح الدين خطيباً وإماماً برسم الصلوات الخمس، وأمر أن يعمل له منبر، فقيل له: إن نور الدين محموداً كان قد عمل بحلب منبراً أمر الصناع بالمبالغة في تحسينه وإتقانه، وقال: هذا عملناه؛ لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون في عدة سنين لم يعمل في الإسلام مثله، فأمر بإحضاره، فحمل من حلب، ونصب بالقدس.

وكان بين عمل المنبر وحمله ما يزيد على عشرين سنة، وكان هذا من

كرامات نور الدين وحسن مقاصده»(١).

* **هـ ـ الشجاعة المتناهية:** قال ابن الأثير؛ «وأما شجاعته فإليها النهاية، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين(٢)؛ ليقاتل بها.

فقال القطب النيسابوري الفقيه: بالله عليك لا تخاطر بنفسك وبالإسلام؛ فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف.

فقال له نور الدين: ومن محمود حتى يقال له هذا؟ من قبلي حفظ الله البلاد والإسلام، ذلك الله الذي لا إله إلا هو»(٣).

وقال ابن قسيم الحموي يصف شجاعته:

تبدو الشجاعةُ في طلاقة وجهه ... كالرمح دل على القساوة لينُه
ووراء يَقْظَتِه أناةُ مجربٍ ... لله سطوةُ بأسِهِ وسكونُه(٤)

وقال الذهبي: «وكان بطلاً شجاعاً، وافر الهيبة، حسن الرمي، مليح الشكل، ذا تعبد وخوف وورع، وكان يتعرض للشهادة.

سمعه كاتبه أبو اليسر يسأل الله أن يحشره من بطون السباع وحواصل الطير»(٥).

وقال: «قال ابن واصل: كان من أقوى الناس قلباً وبدناً، ولم يُرَ على ظهر فرس أحد أشد منه، كأنما خلق عليه لا يتحرك»(٦).

وقال الذهبي: «وكان يقول: طالما تعرضت للشهادة فلم أدركها.

---

(١) الكامل ٩/ ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٢) التركش أو التركاش: كلمة فارسية معربة معناها الجعبة أي جعبة السهام.
(٣) الكامل ٩/ ١٢٥.
(٤) الروضتين ١/ ٥٧، وانظر الأدب العربي ص ٧٠.
(٥) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٢.
(٦) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٧.

قلت ـ أي الذهبي ـ: قد أدركها على فراشه، وعلى ألسنة الناس: نور الدين الشهيد»[١].

وتتجلى شجاعته في كثرة حروبه وفتوحاته التي تنم عن شجاعة نادرة.

وتبدو ـ أيضاً ـ من كثرة تعرضه للشهادة ورغبته فيها.

ومع ذلك مات ـ رحمه الله ـ على فراشه بعلة الخوانيق التي ألمَّت بحلقه وذلك سنة ٥٦٩هـ.

فحبُّ الجبان النفسَ أورده التقى وحبُّ الشجاعِ النفسَ أورده الحربا[٢]

هذا وسيمر قريباً ذكر لشجاعته من خلال وصف الشعراء له.

*** و ـ الهيبة الوافرة، والتواضع الجم:**

كان ـ رحمه الله ـ مهيباً وقوراً، وفي الوقت نفسه كان جمَّ التواضع لطيف المعشر، وتلك هي أخلاق العظماء.

ولقد اشتهر عنه ذلك الأمر، قال ابن الأثير: «وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه.

وبالجملة فحسناته كثيرة، ومناقبه غزيرة لا يحتملها هذا الكتاب»[٣].

وقال الذهبي عن ابن عساكر: «وكان من رآه شاهد من جلال السلطنة وهيبته ما يبهره، فإذا فاوضه رأى من لطافته ما يحيره.

حكى من صَحِبه حضراً وسفراً أنه ما سمع منه كلمة فُحش في رضاه ولا في ضجره»[٤].

وقال ابن كثير: «وقد كان مهيباً وقوراً شديد الهيبة في قلوب الأمراء، لا يتجاسر أحد أن يجلس بين يديه إلا بإذنه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٧.
(٢) ديوان المتنبي ١/ ٦٥.
(٣) الكامل ٩/ ١٢٦.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٣.

ولم يكن أحد من الأمراء يجلس بلا إذن سوى الأمير نجم الدين أيوب .
وأما أسد الدين شيركوه، ومجد الدين بن الداية نائب حلب، وغيرهما من الأكابر ـ فكانوا يقفون بين يديه .
ومع هذا كان إذا دخل عليه أحد من الفقهاء أو الفقراء قام له، ومشى خطوات، وأجلسه معه على سجادته في وقار وسكون .
وإذا أعطى أحداً منهم شيئاً مُسْتَكْثَراً يقول : هؤلاء جند الله، وبدعائهم ننصر على الأعداء، ولهم في بيت المال حق أضعاف ما أعطيهم، فإذا رضوا منا ببعض حقهم فلهم المنة علينا»[(١)] .

* **ز ـ الحرص على اتباع السنة:** كان حريصاً على اتباع السنة ونشرها، والعمل بها، وقد مر بنا أنه كان كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية .

ومما يؤكد ذلك أنه «أظهر ببلاده السنة، وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل؛ لأن شعار الرفض كان ظاهراً بها»[(٢)] .

ومن شدة حرصه على اتباع السنة أنه «قد سُمِّعَ عليه جزء حديث وفيه «فخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ متقلداً السيف» فجعل يتعجب من تغير عادات الناس لما ثبت عنه ـ عليه السلام ـ وكيف كان يربط الأجناد والأمراء على أوساطهم، ولا يفعلون كما فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟

ثم أمر الجند بأن لا يحملوا السيوف إلا متقلديها، ثم خرج هو في اليوم الثاني إلى الموكب، وهو متقلد السيف، وجميع الجيش كذلك؛ يريد

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٢.
(٢) البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٩.

بذلك الاقتداء برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ»[١].

* **ح ـ محبة العلم والعلماء والصالحين:** كان ـ رحمه الله ـ مُحِبّاً للعلم والعلماء والصالحين، وكان حريصاً على التشبه بهم، وتقريبهم، ومؤاخاتهم وزيارتهم[٢].

قال ابن الأثير: «وكان يكرم العلماء، وأهل الدين، ويعظمهم، ويقوم إليهم، ويجلس معهم، وينبسط معهم، ولا يرد لهم قولاً، ويكاتبهم بخط يده»[٣].

وكان يجزل لهم العطايا كما مر، وكان حريصاً على العلم، ويظهر ذلك من كثرة اطلاعه على الكتب، وحرصه على سماع الحديث.

قال ابن عساكر: «روى الحديث، وأسمعه بالإجازة»[٤].

* **ط ـ الرحمة بالمساكين:** مر بنا شيء من ذلك، ومن مظاهر تلك الرحمة أنه إذا احتلم مماليكه أعتقهم وزوجهم بجواريه، ومتى تشكى الناس من ولاته عَزَلَهم[٥].

هذه بعض صفاته ومناقبه، فما أحرى بمن اتصف بها أن ينال كل خير ومجد وسؤدد.

ثانياً: جهاده، وفتوحاته، وإصلاحاته:

لقد أخذ بقلبه، وغدا بلبه حبُّ الجهاد، ولقد كانت نفسه تتوق إلى الشهادة في سبيل الله ـ كما مر ـ.

---

(١) البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣.
(٢) انظر سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٣ ـ ٥٣٤.
(٣) الكامل ٩/ ١٢٥.
(٤) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٣.
(٥) انظر سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٣.

«قال الموفق عبداللطيف: كان نور الدين لم ينشف له لِبَدٌ من الجهاد»[١].

ويشهد لذلك ويصدقه أنه قضى جلَّ عمره في الجهاد في سبيل الله، وفي فتح الحصون، والمدن، والقلاع.

ولقد اتسع ملكه، وكثرت فتوحاته مع أنه لم يكن تحت يده حين قتل والده إلا ملك حلب.

قال ابن الأثير: «وكان قد اتسع ملكه جدًّاً، وخطب له بالحرمين الشريفين، وباليمن»[٢].

وقال ابن الجوزي: «جاهد، وانتزع من الكفار نيفاً وخمسين حصناً»[٣].

وقال ابن كثير: «أقام الحدود، وفتح الحصون، وكسر الفرنج مراراً عديدة، واستنقذ من أيديهم معاقل كثيرة من الحصون المنيعة، التي كانوا قد استحوذوا عليها من معاقل المسلمين»[٤].

وقال الذهبي: «وبنى دار العدل، وأنصف الرعية، ووقف على الضعفاء، والأيتام، والمجاورين، وأمر بتكميل سور المدينة النبوية، واستخراج العين بأحد دفنها السيل، وفتح درب الحجاز، وعمر الخوانق، والرُّبَط، والجسور، والخانات بدمشق وغيرها.

وكذا فعل إذ ملك حران، وسنجار، والرُّها، والرقة، ومنبج، وشيزر، وحمص، وحماة، وصرخد، وبعلبك، وتدمر.

ووقف كتباً كثيرة مثمنَة، وكسر الفرنج، والأرمن على حارم، وكانوا ثلاثين ألفاً، فقلَّ من نجا»[٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٤.
(٢) الكامل ٩/ ١٢٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٤.
(٤) البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٩.
(٥) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣.

وقـال: «وبنـى المـدارس بحلـب، وحمـص، وبعلبـك، والجـوامـع والمساجد»[١].

ثالثاً: نور الدين في الأدب:

لقد كان لنور الدين مكانة وأثر في أدب الحروب الصليبية؛ فلقد اصطبغ أدب تلك الفترة بالصبغة الجهادية، فجاء شعراً حيًّاً، مصوراً مآسي الأمة، خالياً من الملق والرياء.

ولقد وجد الأدباء في شخصية نور الدين مادة عظيمة، ورافداً كبيراً لأدبهم، فانطلقت ألسنتهم بالثناء عليه، وتصوير بطولته، ووصف معاركه وانتصاراته، فأحيوا بذلك مآثره، وخلدوا ذكره.

كل ذلك مع أنه كان لا يأبه بالمديح، ولم يكن يجازي الشعراء على ذلك.

قال الذهبي: «كان تقيّاً لا يرى بذل الأموال إلا في نفع، وما للشعراء عنده من نَفَاق»[٢].

يقول أسامة بن منقذ مبيناً حال نور الدين مع الشعراء:

سلطاننا زاهدٌ والناسُ قد زهدوا ... لـه فكـل علـى الخيـرات منكمـشُ
أيـامُـه مثـل شهـر الصـوم طـاهـرة ... من المعاصي وفيها الجوع والعطش[٣]

وفيما يلي نماذج مما قيل في نور الدين من شعر.

قال ابن القيسراني يصف شجاعة نور الدين وزهده:

يغشـى الـوغـى أفـرس فـرسـانهـا ... وفـي التقـى أزهـد زهـادهـا[٤]

وقال في وصف عِفَّته، وتجافيه عن الدنيا:

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٣٥.
(٤) الأدب العربي في الحروب الصليبية ص ٦٤ عن الروضتين ١/ ٢٠٩.

ثنى يدَه عن الدنيا عفافٌ ... ومال بها عن الأموال زهد[(١)]

وقال مهنئاً له بالظفر في إحدى المعارك:

هذي العزائمُ لا ما تَدَّعي القضبُ ... وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهِمَمُ اللاتي متى خطبت ... تَعَثَّرتْ خلفها الأشعار والخطب
صافحت يا ابن عماد الدين ذروتَها ... براحة للمساعي دونها تعب
ما زال جدُّك يبني كلَّ شاهقةٍ ... حتى بنى قُبّةً أوتادها الشهبُ
أغْرَتْ سيوفُك بالإفرنج راجفةً ... فؤادُ رومية الكبرى لها يَجبُ[(٢)]
ضربت كبشهم[(٣)] منها بقاصمة ... أودى بها الصلب وانحطت بها الصُّلب
طهَّرت أرض الأعادي في دمائهم ... طهارةً كلُّ سيف عندها جنب[(٤)]

وقال بعض الشعراء فيه عندما حاصر قلعة حارم:

ألبست دينَ محمدٍ يا نورَه ... عِزّاً له فوق السُّها آساد
مازلت تشمله بميَّاد القنا ... حتى تثقف عودُه الميادُ
لم يَبْقَ مذ أرهفت عزمك دونه ... عدد يراع به ولا استعداد
إن المنابر لو تطيق تكلماً ... حمدتك عن خطبائها الأعواد[(٥)]

وقال العماد الأصفهاني في مدح نور الدين وذكر محامده ومآثره:

آثاره حميدةٌ وإنما ... للمرء من آثاره حميدُها
إن الورى بحبِّه وبغضه ... يعرف مِن شقيِّها سعيدُها
جلا ظلامَ الظلمِ نورُ الدين عن ... أرض الشآم فله تحميدُها
إن الرعايا منه في رعايةٍ ... ونعمة مستوجبٌ مزيدُها

---

(١) الأدب العربي ص ٦٤ عن الروضتين ١/٤٨.
(٢) يجب: من الوجيب وهوالاضطراب الخوف.
(٣) الكبش: هو رئيس القوم ومقدمهم.
(٤) الكامل لابن الأثير ٩/٢٥ ـ ٢٦.
(٥) الكامل ٩/٤٩.

لِنَومِها يسهر بل لأمنها ... يخاف بل يخصبها بجودها

إلى أن يقول:

يا دولة نورية من الورى ... وخصبها وَجُودها وجُودُها
فابق لنا يا ملكاً بقاؤه ... في كل عام للرعايا عيدها
في نعمة جديدة سعودها ... ودولة سعيدة جدودها[(١)]

وقال ابن منير الطرابلسي في نور الدين:

رآك الصليبُ صليبَ القناة ... أمينَ العثارِ مَتينَ العمدْ
تهم فتسلبه ما اقتنى ... وتدأى فتثكله ما احتشد
زبنتهم أمسِ عن صرخد[(٢)] ... فَفَضُّوا كأن نعاماً شرد[(٣)]

وقال ابن القيسراني فيه بعد هزيمة الفرنج بموقعة بغري، وبغري مكانٌ من أرض الشام، يقول في مطلع القصيدة:

يا ليت أن الصدَّ مصدود ... أوْلا فليت النوم مردودُ

إلى أن قال:

وكيف لا يُثْنَى على عيشنا الـ ... محمودِ والسلطانُ محمودُ
وصارم الإسلام لا ينثني ... إلا وشِلْوُ الكفرِ مقدودُ
مكارمُ لم تكُ موجودةً ... إلا ونور الدين موجود
وكم له من وقفة يومها ... عند الملوك الكفر مشهود[(٤)]

وعندما توفي نور الدين رثاه الشعراء، وبينوا عظم المصيبة التي حلت بالإسلام والمسلمين بسبب فقده.

وممن رثاه العماد الأصفهاني، حيث رثاه بقصيدة طويلة قال فيها:

---

(١) ديوان العماد الأصفهاني ص ١٤٤، وانظر الأدب العربي ص ٩٤ ـ ٩٥.
(٢) صرخد: بلاد ملاصق لبلد حوران من أعمال دمشق.
(٣) ديوان ابن منير ص ٨٨، وانظر الأدب العربي ص ٩٩ ـ ١٠٠.
(٤) الكامل ٩/ ٢٢.

الدين في ظُلَمٍ لغيبة نوره ... والدهر في غمٍّ لفقد أميره
مَنْ ينصر الإسلام في غزواته ... فلقد أصيب بركنه وظهيره
مَنْ للفرنج ومن لأسر ملوكها ... من للهدى يبغي فِكَاكَ أسيره
من للبلاد ومن لنصر جيوشها ... من للجهاد ومن لحفظ أموره
من للفتوح محاولاً أبكارها ... برواحه في غُدْوِهِ وبكوره

ثم قال معدداً مناقب نور الدين:

أنت الذي أحييت شرع محمد ... وقضيت بعد وفاته بنشوره
كم قد أمرت بفتح خندق معقل ... حتى سكنت اللحد في محفوره
كم قيصرٍ للروم رمتَ بقسره ... إرواء بيض الهند من تاموره[1]
أوتيت فتح حصونه وملكت عقـ ... ـر بلاده وسبيت أهل قصوره

ثم قال:

من للكريم ومن لنعش عثاره ... من لليتيم ومن لجبر كسيره
لهفي على تلك الأنامل إنها ... مُذْ غُيِّبت غاضَ الندى ببحوره

إلى أن قال:

يا حاملين سريره مهلاً فَمِنْ ... عجبٍ نهوضكم بحمل ثبيره
نزلت ملائكة السماء لدفنه ... مستجمعين على شفير حفيره
حياك مُعْتَلُّ الصَّبا بنسيمه ... وسقاك مُنْهَلُّ الحيا بدروره
وسكنت عِلِّيينَ في فردوسه ... حلف المسرة ظافراً بأجوره[2]

رحم الله نور الدين، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرما جزى به عباده الصالحين الصادقين.

* * *

---

(١) تاموره: يعني دمه.

(٢) ديوان العماد الأصفهاني ص ٢١٢ ـ ٢١٦ وانظر الأدب العربي ص ١٢٧ ـ ١٢٩.

٢ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

هو تقي الدين، أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحراني، ولد سنة ٦٦١هـ، وتوفي سنة ٧٢٨هـ.

ذلك الإمام الحبر، والعلامة البحر، الذي دنت له قطوف العلوم، ودانت له نواصي الحكمة، والذي طبقت شهرته الخافقين، وسار بحديثه الركبان، فهو أُمَّةٌ في الخير، وقدوة في الهدى والتقى.

والحديث عن جوانب النبوغ والألمعية في سيرة هذا الإمام يطول، والمقام لا يتسع للإسهاب والإطناب؛ لأن جوانب العظمة في شخصيته كثيرة جدًّا، يصعب حصرها، والوقوف عليها.

علمه: فإذا أتيت إلى العلم وجدت العباب الزاخر، والبحر المتلاطم، وذلك لما وهبه الله من سعة العلم وغزارته.

قال الحافظ البزار: «أما غزارة علومه فمنها ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد، واستنباطه لدقائقه، ونقله لأقوال العلماء في تفسيره، واستشهاده بدلائله، وما أودعه الله ـ تعالى ـ فيه من عجائبه، وفنون حكمه، وغرائب نوادره، وباهر فصاحته، وظاهر ملاحته؛ فإنه فيه الغاية التي ينتهى إليها، والنهاية التي يُعَوّل عليها.

ولقد كان إذا قُرىء في مجلسه آيات من القرآن يشرع في تفسيرها، فينقضي المجلس بجملته، والدرس برُمَّتِهِ، وهو في تفسير بعض آية منها.

وكان مجلسه مُـقَدَّراً بقدر ربع النهار، يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارىء معين يقرأ له شيئاً معيناً يبيته؛ ليستعد لتفسيره.

بل كان كل من حضر يقرأ ما تيسر له، ويأخذ هو في القول على تفسيره. وكان غالباً لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضي الزمن المعتاد

لأورد أشياء أخر في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظراً في مصالح الحاضرين.

ولقد أملى في تفسير ﴿قل هو الله أحد﴾ مجلداً كبيراً، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ نحو خمس وثلاثين كراساً»[١].

ثم قال البزار ـ رحمه الله ـ: «وأما معرفته، وبصره بسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأقواله، وأفعاله، وقضاياه، ووقائعه، وغزواته، ومعرفته بصحيح المنقول عنه وسقيمه، وبقية المنقول عن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في أقوالهم، وأفعالهم، وفتاويهم، وأحوالهم، وأحوال مجاهداتهم في دين الله، وما خصوا به من بين الأمة ـ فإنه كان ـ رضي الله عنه ـ من أضبط الناس لذلك، وأعرفهم فيه، وأسرعهم استحضاراً لما يريده منه؛ فإنه قل أن ذكر حديثاً في مصنف أو فتوى، أو استشهد به، أو استدل به ـ إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو، ومن أي قسم من الصحيح، أو الحسن، أو غيرهما، وذكر اسم راويه من الصحابة.

وقلَّ أن يسأل عن أثر إلا وبيَّن في الحال حاله، وحال أمره، وذاكره»[٢].

وقال ـ أيضاً ـ: «ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محنته الأولى بمصر لما أخذ وسجن، وحيل بينه وبين كتبه صنف عِدَّةَ كتبٍ صغاراً وكباراً، وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار، وأقوال العلماء، وأسماء المحدثين، والمؤلفين، ومؤلفاتهم، وعزا كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقائليه بأسمائهم، وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها، وأي موضع هو منها.

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للبزار ص ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) الأعلام العلية ص ٢٣ ـ ٢٤.

كل ذلك بديهة من حفظه؛ لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه.

ونقبت، واختبرت، واعتبرت فلم يوجد فيها - بحمد الله - خلل ولا تغيير»[١].

قال: «حكي من يوثق بنقله أنه كان يوماً بمجلس، ومحدثٌ يقرأ عليه بعض الكتب الحديثية، وكان سريع القراءة، فعارضه الشيخ في اسم رجل عن سند الحديث، وقد ذكره القارئ بسرعة، فذكر الشيخ أن اسمه فلان بخلاف ما قرأ، فاعتبروه فوجدوه كما قال الشيخ»[٢].

«ولقد سئل يوماً عن الحديث **«لعن الله المحلِّل والمحلَّل له»**[٣] فلم يزل يورد فيه وعليه حتى بلغ كلامه فيه مجلداً كبيراً»[٤].

---

(١) الأعلام العلية ص ٢٤.

(٢) الأعلام العلية ص ٣٢.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٤٥٠، وأبويعلى في مسنده ٨/ ٤٦٨ (٥٠٥٤)، والبغوي في شرح السنة ٩/ ١٠٠ (٢٢٩٣) من طريق عبيد الله بن عمر الرقي عن عبدالكريم الجزري، عن أبي الواصل عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه -.
وأخرجه أحمد - أيضاً - ١/ ٤٤٨، ٤٦٢، والنسائي ٦/ ١٤٩، والدارمي ٢/ ٥٥٤، والترمذي ٣/ ٤٢٨ (١١٢٠)، وابن أبي شيبة في المصنف ٤/ ٢٩٥، والبيهقي في سننه ٧/ ٢٠٨، من طريق سفيان الثوري، عن أبي قيس عبدالرحمن بن ثروان الأودي، عن هزيل بن شرحبيل الأودي عن عبدالله به.
قال الترمذي: «حسن صحيح» وقال الحافظ ابن حجر: في تخريج الهداية ٢/ ٧٣ «رواته ثقات»، وقال في تلخيص الحبير ٣/ ١٧٠: «صححه ابن القطان، وابن دقيق العيد على شرط البخاري».
وصححه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ١٥٩ (١٠٧٣) والذهبي في الكبير ص ١٠٣، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى ٣٢/ ٦١: قد ثبت عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «**لعن الله المحلل والمحلل له**» وقال في موضع آخر من الفتاوى ٣٢/ ٩٣، ١٥٣: «وقد صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن قال: ...» فذكره.

(٤) الأعلام العلية ص ٣٣.

أما مؤلفاته ومصنفاته وفتاويه فيقصر دونها العد والإحصاء، والبحث والاستقصاء.

ولهذا قلَّ أن تجد باحثاً في عصرنا هذا إلا ويعول على ابن تيمية، ويأخذ بأقواله، سواء كان ذلك في العقائد أو الفقه، أو الحديث، أو الفلسفة، أو المنطق، أو التربية، أو السلوك، أو السياسة، أو الاقتصاد أو غيرها.

تعبده: أما تعبده ـ رحمه الله ـ فكان عجباً من العجاب، وذلك لما آتاه الله من جلد عجيب، ورغبة ومحبة للعبادة.

قال تلميذه ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وحضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله ـ تعالى ـ إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ سقطت قوتي، أو كلاماً قريباً من هذا.

وقال لي مرة: لا أترك الذكر إلا بنية إجمام نفسي وإراحتها؛ لأستعد بتلك الراحة لذكر آخر، أو كلاماً هذا معناه»[1].

وقال البزار: «أما عن تعبده ـ رضي الله عنه ـ فإنه قلَّ أن سُمِعَ بمثله؛ لأنه قد قطع جُلَّ وقته وزمانه فيه، حتى إنه لم يجعل لنفسه شاغلة تشغله عن الله ـ تعالى ـ ما يراد له لا من أهل، ولا من مال.

وكان في ليله متفرداً عن الناس كلهم، خالياً بربه ـ عز وجل ـ ضارعاً، مواظباً على تلاوة القرآن العظيم، مكرراً لأنواع التعبدات الليلية والنهارية.

وكان إذا ذهب الليل، وحضر مع الناس بدأ بصلاة الفجر يأتي بسنتها قبل إتيانه إليهم.

وكان إذا أحرم بالصلاة تكاد تنخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب لابن القيم ص ٦٣.

فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه، حتى يميله يمنة ويسرة»[١].

سمته وهديه وخلقه: أما عن سمته وهديه وحسن خلقه فكان ضرباً من الخيال.

قال العلامة عماد الدين الواسطي: «ما رأينا في عصرنا هذا من تتجلى النبوة المحمدية وسننها في أقواله وأفعاله إلا هذا الرجل، يشهد القلب الصحيح أن هذا هو الاتباع حقيقة»[٢].

وقال ابن القيم عن حسن خلقه، وعفوه وإحسانه إلى من أساء إليه: «وما رأيت أحداً أجمع لهذه الخصال من شيخ الإسلام ـ قدَّس الله روحه ـ.

وكان بعض أصحابه الأكابر يقول: وددت أني لأصحابي مثله لأعدائه.

وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم، وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذى له ـ فنهرني، وتنكر لي، واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله، فعزَّاهم، وقال: إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، ونحو هذا الكلام، فسرُّوا به، ودعوا له، وعظموا هذه الحال منه، فرحمه الله ورضي عنه»[٣].

وقال البزار عن زهده: «ولقد اتفق كل من رآه خصوصاً من أطال ملازمته أنه ما رأى مثله في الزهد في الدنيا، حتى لقد صار ذلك مشهوراً؛ بحيث قد استقر في قلب القريب والبعيد من كل من سمع بصفاته على وجهها.

بل لو سُئل عامي من أهل بلد بعيد من الشيخ: من كان أزهد أهل هذا العصر، وأكملهم في رفض فضول الدنيا، وأحرصهم على طلب الآخرة؟ لقال: ما سمعت بمثل ابن تيمية ـ رحمة الله عليه ـ»[٤].

---

(١) الأعلام العلية ص ٣٨.
(٢) جلاء العينين للألوسي ص ٨.
(٣) مدارج السالكين ٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩.
(٤) الأعلام العلية ص ٤٧ ـ ٤٨.

وقال عن تواضعه: «أما تواضعه فما رأيت ولا سمعت بأحد من أهل عصره مثله في ذلك؛ كان يتواضع للكبير، والصغير، والجليل، والحقير، والغني الصالح، والفقير.

وكان يدني الفقير الصالح، ويكرمه، ويؤنسه، ويباسطه بحديثه المُسْتَحْلَى زيادة على مثله من الأغنياء، حتى إنه ربما خدمه بنفسه، وأعانه بحمل حاجته؛ جبراً لقلبه، وتقرباً بذلك إلى ربه.

وكان لا يسأم ممن يستفتيه، أو يسأله، بل يقبل عليه ببشاشة وجه، ولين عريكة، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه كبيراً أو صغيراً، رجلاً أو امرأة، حُرّاً أو عبداً، عالماً أو عاميّاً، حاضراً أو بادياً.

ولا يجبهه، ولا يحرجه، ولا ينفره بكلام يوحشه، بل يجيبه، ويفهمه، ويعرفه الخطأ من الصواب بلطف وانبساط»[(١)].

وقال عن كرمه: «كان ـ رضي الله عنه ـ مجبولاً على الكرم، لا يتطبعه ولا يتصنعه؛ بل هو له سجية، وقد ذكرت فيما تقدم أنه ما شد على دينار ولا درهم قط، بل كان مهما قدر على شيْ من ذلك يجود به كله.

وكان لا يرد من يسأله شيئاً يقدر عليه من دراهم ولا دنانير، ولا ثياب ولا كتب ولا غير ذلك، بل ربما كان يسأله بعض الفقراء شيئاً من النفقة، فإن كان حيئنذ متعذراً لا يدعه يذهب بلا شيء، بل كان يعمد إلى شيء من لباسه فيدفعه إليه، وكان ذلك المشهور عند الناس من حاله»[(٢)].

وقال: «وحدثني من أثق به: أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان لا يرد أحداً يسأله شيئاً كَتَبَهُ، بل يأمره أن يأخذ هو بنفسه ما يشاء منها.

وأُخْبِرْنا أنه جاءه يوماً إنسان يسأله كتاباً ينتفع به، فأمره أن يأخذ كتاباً

(١) الأعلام العلية ص ٥٢.
(٢) الأعلام العلية ص ٦٥.

يختاره، فرأى ذلك الرجل بين كتب الشيخ مصحفاً قد اشتري بدراهم كثيرة، فأخذه ومضى، فلام بعض الجماعة الشيخ في ذلك، فقال: أيحسن بي أن أمنعه بعدما سأله؟ دعه فلينتفع به.

وكان الشيخ -رضي الله عنه- ينكر إنكاراً شديداً على من يُسأل شيئاً من كتب العلم ويمنعها من السائل، ويقول: ما ينبغي أن يمنع العلم ممن يطلبه»[١].

شجاعته: أما عن شجاعته، وقوة قلبه، ورباطة جأشه فحدث ولا حرج.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش، وخلاف الرفاهية والنعيم، بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس، والتهديد، والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسَرِّهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض - أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحاً، وقوة، ويقيناً، وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جَنَّتَهُ قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها، ونسيمها، وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها»[٢].

وقال البزار - رحمه الله -: «كان - رضي الله عنه - من أشجع الناس، وأقواهم قلباً.

ما رأيت أحداً أثبت جأشاً منه، ولا أعظم عناءً في جهاد العدو منه، كان يجاهد في سبيل الله بقلبه ولسانه ويده، ولا يخاف في الله لومة لائم.

---

(١) الأعلام العلية ص ٦٨.
(٢) الوابل الصيب ص ٧٠.

وأخبَرَ غيرُ واحدٍ أن الشيخ ـ رضي الله عنه ـ كان إذا حضر مع عسكر المسلمين في جهاد يكون بينهم واقيتَهُمْ، وقطبَ ثباتهم، إن رأى من بعضهم هلعاً، أو رِقَّةً، أو جبانةً ـ شَجَّعَه، وثبته، وبشره، ووعده بالنصر والظفر والغنيمة، وبين له فضل الجهاد والمجاهدين، وإنزال الله عليهم السكينة.

وكان إذا ركب الخيل يتَحَنَّك[1]، ويجول في العدو كأعظم الشجعان، ويقوم كأثبت الفرسان، ويكبر تكبيراً أنكى في العدو من كثير من الفتك بهم، ويخوض فيهم خوض رجل لا يخاف الموت.

وحدثوا أنهم رأوا منه في فتح عكة أموراً عظيمة يعجز الواصف عن وصفها.

قالوا: ولقد كان السبب في تملك المسلمين إياها بفعله، ومشورته، وحسن نظره»[2].

هذه بعض ملامح النبوغ والألمعية من سيرة هذا البطل المجاهد، ومن أراد مزيداً من التفصيل فليرجع إلى الكتب التي فصلت الحديث عن سيرته[3].

---

(١) التحنيك: هو وضع العمامة تحت الذقن، ولف طرفيها على الرأس.

(٢) الأعلام العلية ص ٦٩ ـ ٧٠.

(٣) انظر على سبيل المثال الأعلام العلية للبزار، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعي الكرمي الحنبلي، وشيخ الإسلام جهاده، دعوته، عقيدته، للشيخ أحمد القطان، ومحمد الزين، ومجموعة أوراق من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية للشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني، والفكر التربوي عند ابن تيمية د. ماجد العرساني، وابن تيمية باعث الفكر السلفي للشيخ محمد خليل هراس، وأحوال وأقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتب ابن القيم ليوسف صالح، ونظريات ابن تيمية في السياسة والاجتماع للمستشرق الفرنسي هنري لاووست.

٣ ـ سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: ١٣١١ هـ ـ ١٣٨٩:

هو العلامة الجليل الشيخ أبو عبدالعزيز محمد بن إبراهيم ابن عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن ابن الشيخ الإمام محمد ابن عبدالوهاب ـ رحمهم الله جميعاً ـ.

ولد الشيخ محمد في مدينة الرياض في حي دخنة في السابع عشر من شهر الله المحرم، عام أحد عشر وثلاثمائة وألف للهجرة، ونشأ نشأة صالحة، وأخذ بأسباب المعرفة والعلم، فتلقى القرآن الكريم وهو ما بين الثامنة والعاشرة من عمره، وقيل: إنه حفظ القرآن في الحادية عشرة، وقيل وهو في السادسة عشرة، وذلك على يد معلمه الشيخ عبدالرحمن ابن مفيريج.

وفي السادسة عشرة من عمره أصيب بالرمد في عينيه، فكف بصره.

ثم واصل بعد ذلك طلبه للعلم، في مختلف الفنون، وتلقى على جلة من أكابر العلماء في عصره.

وقد استفاض عنه ـ رحمه الله ـ أنه كان كثير الدأب في المطالعة في مختلف الكتب وتدريسها، فكان هذا مصدراً ثانياً أكسبه سعة في علمه وأفقه.

وقد أعانه على ذلك ما عرف عنه من حدة الذكاء، ورجاحة العقل.

وقد لمس منه مشايخه الألمعية النادرة، والنجابة المبكرة، ورأوا منه مزايا عظيمة لا تتوافر إلا في القليل من الرجال، فأدركوا أنه الخليفة لهم، وأنه يمكن أن يُطمئن إليه في مجالس العلم.

ولقد صدقت نظرتهم في هذا الرجل، فلقد كان نسيج وحده في العلم،

والتعليم، والصبر، والجلد، والحكمة، والحنكة، وبعد النظر.

وفيما يلي من أسطر نبذة عن بعض ملامح السمو والنبوغ والألمعية في حياة هذا الإمام الفذ.

أ ـ اشتغاله بالتدريس:

حين توفي عمه الشيخ عبدالله عام ١٣٣٩هـ أخذ الشيخ محمد مجلسه، فبدأ التدريس إلى جانب مشايخه الذين مازالوا على قيد الحياة.

ولما توفي شيخه سعد بن حمد بن عتيق عام ١٣٤٩هـ توسع في مجالس التدريس، فكثر رواده وقاصدوه؛ لما رأوا منه من غزارة العلم، وعظم الفائدة.

ولقد كان يعمر جل نهاره بالتدريس؛ حيث كان يجلس ثلاث جلسات منتظمة، فالأولى بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس، والثانية بعد ارتفاع الشمس مدة تتراوح ما بين الساعتين إلى الأربع ساعات، والثالثة بعد صلاة العصر، وهناك جلسة رابعة لكنها ليست مستمرة، وهي بعد صلاة الظهر.

أما الكتب التي كان يدرسها فهي كثيرة، وفي فنون متنوعة، منها ألفية ابن مالك مع شرح ابن عقيل، وزاد المستقنع مع شرحه الروض المربع، وبلوغ المرام، والآجرومية، والملحة، وقطر الندى، وعمدة الأحكام، وأصول الأحكام، والحموية، ونخبة الفكر، وكتاب التوحيد، وكشف الشبهات، وثلاثة الأصول، والواسطية، وفتح المجيد، والطحاوية، وشرح الأربعين النووية، وصحيح البخاري، وصحيح مسلم، والسنن الأربعة، وكتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير بدون استثناء، وكل ما جدَّ من كتب السلف والمحققين من العلماء[1].

---

(١) قال الشيخ عبدالعزيز مضيفاً: «ومسند الإمام أحمد بقراءة أخيه الشيخ عبداللطيف بعد الظهر».

ولقد كان ـ رحمه الله ـ يعطي مجالس العلم حقها من الاحترام والتقدير، ويحرص على إيصال الفائدة للطلاب، حتى إنه ليكاد يغني شرحه عن مطالعة.

وكان له طريقة بديعة في تدريسه ليس هذا مجال بسطها[١].

ب ـ أخلاقه وصفاته:

لقد كان ـ رحمه الله ـ يتمتع بأخلاق عالية، جعلت له مكانة في قلوب الخاصة والعامة.

ولقد وهبه الله صفاتٍ كثيرة كانت سبباً في نبوغه وألمعيته.

فمن صفاته البارزة حافظته النادرة التي كانت سبباً لتحصيله ثروةً علميةً واسعة.

فهو ـ رحمه الله ـ يحفظ كثيراً من المتون، والقصائد المطولة، وكان ـ وهو في أخريات حياته ـ يصف مشاهداته قبل أن يكف بصره مع أنه ـ كما مر ـ عمي في السادسة عشرة من عمره.

وكان يحفظ المتن للقراءة الثالثة، وربما الثانية، وكانت المعاملة الطويلة التي تبلغ ثلاثمائة صفحة تقرأ عليه، ثم يملي ما يراه مستحضراً كل ما فيها من الجزئيات.

ولم يكن غريباً منه أن يدل القارئين على مواضع الأبحاث في كتبها، ذاكراً رقم الصفحة أحياناً.

ومما كان يتميز به طهارة القلب، فكان لا يحمل ضغينة على أحد أساء إليه، بل كان ديدنه الصفح والتجاوز، بل والمحافظة على سمعة من آذاه، والدفاع عنه من أن ينال بباطل.

---

(١) انظر مقدمة الشيخ محمد بن قاسم لفتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ص ١٣، وارجع إلى محاضرة عن سيرة الشيخ محمد بن إبراهيم لحفيده الشيخ صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ.

ولا غرو في ذلك؛ فهذه أخلاق العلماء والعظماء.

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

فهو ـ رحمه الله ـ مِنْ أَوْلى مَنْ يأخذ ـ بقوله ـ تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩ ﴾. [الأعراف: ١٩٩].

وكان على قدر عظيم من التأمل، وبعد النظر فيما يعرض عليه من القضايا التي تَجِدُّ تباعاً، ولم يكن يتعجل الأمر حتى يمعن في الدرس، والتأمل، والنظر في عواقب الأمور.

أما شجاعته فحدث ولا حرج فلقد كان وافر الشجاعة، قوي الشكيمة، لا يخشى أحداً، ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا يتردد في إعلان الحق والصدع به أيّاً كان المخاطب به.

ودَافِعُه في ذلك مخافةُ الله، والحرص على إبراء الذمة؛ فمكانته تحتم عليه نبذ التخاذل، وله في ذلك مواقف محفوظة.

ومن السمات البارزة فيه ما آتاه الله من هيبة في نفوس الناس، وهو أمر يرجع إلى إجلاله، وتوقيره، ومعرفة الناس بصرامته في الحق، ولهذا يحسب مُحَدِّثُه حساباً شديداً إذا أراد أن يكلمه؛ خشية أن يزل بكلمة.

وكان مع ذلك أنيساً عند مخالطته، ألوفاً لمعاشريه، لا يتصف بشيء من الغلظة، أو الجفاء، أو الفظاظة.

وكان يحسن الفرق بين مجالس الجد والعمل، ومجالس الراحة والإجمام.

ومن عظيم أخلاقه أنه كان يتنزه عن الغيبة والحديث في الآخرين بما يكرهون، وعرف بذلك منذ حداثة سنه حتى فارق الدنيا.

وكان متورعاً متعففاً عن أخذ ما ليس له، أو ما يرى فيه شبهة، وكان حريصاً على أن لا يُدْخِلَ نفسه في مداخل مشتبهة، ولم يعهد عنه أنه اشتغل بالبيع أو الشراء، لا بالاستقلال، ولا بالمشاركة.

وكان ـ رحمه الله ـ معروفاً بالبذل والسخاء، وبالأخص ما يتعلق بإكرام العلماء والقضاة وطلاب العلم، وكان لا يترك مناسبة مهمة إلا أقام لها الوليمة الكبيرة ودعاهم إليها.

ج ـ خشيته لله:

كان ـ رحمه الله ـ من أكثر الناس خشية لله، واستحضاراً لعظمته ـ عز وجل ـ فكثيراً ما يُسمع وهو يلهج بذكر الله، واستغفاره، ثم يرى وعيناه تغرورقان بالدموع، وذلك حينما يكون في موقف مناجاة لله، أو حين يسمع بعض ما يحرك القلوب.

قال الشيخ محمد بن قاسم: «وكان ذلك يتجلى كثيراً فيما يحييه من الليل بالصلاة التي كان يواظب عليها في إقامته وسفره، وقد لا يعرف هذا كثير من الناس الذين لم يتصلوا به، وقد صحبته زمناً طويلاً، وهو يقوم ما يقرب من ساعة ونصف آخر الليل لا يترك ذلك»[1].

هـ ـ أعماله:

لقد تقلد الشيخ أعمالاً عظيمة، وأنيط به مهمات جسيمة.

وهذه الأعمال، وتلك المهمات لا يقوم بها أولو القوة من الرجال؛ وذلك لكثرتها، وتنوعها، وصعوبتها.

إلا أن الشيخ محمداً قام بها خير القيام؛ وذلك لكبر نفسه، وعلو همته، وقبل ذلك لإخلاصه، وتوفيق الله له.

وفيما يلي من أسطر ذكر لتلك الأعمال مع ملاحظة أن كثيراً من المهام التي قام بها وتولى رئاستها كانت في طور تأسيسها، ومعلوم ما في ذلك من المشقة.

---

(١) فتاوى سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم ص ١٩.

١ ـ **التدريس**: وقد مر بنا شيء من ذلك، وهو بحد ذاته عمل عظيم لو تفرغ له وحده.

٢ ـ **الفتوى**: فقد كان يشارك فيها حتى توفي الشيخ سعد بن عتيق ـ رحمه الله ـ ثم استقل بها حتى تحولت أخيراً إلى عمل منظم في دار الإفتاء عام ١٣٧٤هـ.

وظل يقوم بالفتوى من خلال تلك الدار حتى وافته المنية، إلى جانب ما كان يكتبه في بيته من فتاوى، وردود على بعض الكاتبين.

٣ ـ **إمامة مسجد عمه** الشيخ عبدالله من عام ١٣٣٩هـ إلى قبيل وفاته.

٤ ـ **رئاسة القضاء**: ففي عام ١٣٧٦هـ أنشئت رئاسة القضاة تحت رئاسة سماحته في نجد والمنطقة الشرقية والشمالية، وبعد وفاة سماحة الشيخ عبدالله بن حسن سنة ١٣٧٨هـ رئيس القضاة بالحجاز والمنطقة الغربية ـ ضُمَّتْ إلى الشيخ محمد رئاسة القضاة بالحجاز والمنطقة الغربية، فصار رئيس قضاة المملكة العربية السعودية، فكان يقوم بتمييز الأحكام التي تحتاج إلى نظره.

٥ ـ رئاسة الكليات والمعاهد العلمية منذ إنشائها عام ١٣٧٠هـ، والتي أصبحت فيما بعد تسمى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٦ ـ الإشراف على مدارس البنات منذ افتتاحها عام ١٣٧٩هـ.

٧ ـ رئاسة الجامعة الإسلامية منذ افتتاحها عام ١٣٨١هـ.

٨ ـ رئاسة دور الأيتام، وضمت فيما بعد إلى وزارة العمل والشؤون الاجتماعية.

٩ ـ رئاسة المعهد العالي للقضاء.

١٠ ـ رئاسة المجلس الأعلى لرابطة العالم الإسلامي منذ إنشائها عام ١٣٧٩هـ.

١١ ـ رئاسة المكتبة السعودية.

١٢ ـ خطابة الجامع الكبير وإمامة العيدين.

١٣ ـ الإشراف على نشر الدعوة الإسلامية في أفريقيا.

١٤ ـ رئاسة المعهد الإسلامي في نيجيريا.

١٥ ـ رئاسة مجلس القضاء الأعلى.

١٦ ـ رئاسة مؤسسة الدعوة الإسلامية الصحفية.

١٧ ـ الإشراف على ترشيح الأئمة والمؤذنين.

١٨ ـ تعيين الوعاظ والمرشدين.

١٩ ـ بدأ في إنشاء مجلس هيئة كبار العلماء، وأثبت في ميزانية عام ١٣٨٩هـ غير أن المنية وافت سماحته عام ١٣٨٩هـ قبل أن يباشر أعماله.

فهذه نبذة عن أعماله الجبارة العظيمة التي لا يقوم به إلا من آتاه الله جلداً وقوة.

وإن هذا ليدل على علو همته، وسعة علمه، ومقدرته الفذة، وثقة الناس به، وحاجتهم إليه[1].

* * *

(١) انظر تفصيل الحديث عن سيرة الشيخ محمد بن إبراهيم إلى مقدمة فتاويه ورسائله التي جمعها الشيخ محمد بن قاسم ١/ ٩ ـ ٢٣، وعلماء نجد خلال ستة قرون للشيخ عبدالله البسام ١/ ٨٨ ـ ٩٧. وعلماؤنا لفهد البدراني، وفهد البراك.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد: ففي نهاية التطواف في ثنايا البحث هذا ملخص لأهم ما ورد فيه:

١ ـ الناس في شأن الهمة أصناف أربعة؛ أحدهم: عظيم الهمة، وهو من يشعر بأن فيه الكفايةَ لعظائم الأمور، ويجعل هذه العظائم همته.

والثاني: صغير الهمة وهو من فيه الكفاية لعظائم الأمور، ولكنه يضع همه في سفساف الأمور.

والثالث: المتواضع، وهو الذي لا يكفي لعظائم الأمور، ويحس بذلك، فيجعل همته وسعيه على قدر استعداده.

والرابع: المتعظم الفخور، وهو الذي لا يكفي للعظائم، ولكنه يتظاهر بذلك.

٢ ـ تختلف همم الناس، وشهواتهم، وأمانيهم بحسب أنصبتهم من علو الهمة ودنوها.

٣ ـ الناس تتفاوت أقدارهم بحسب تفاوت هممهم.

٤ ـ دنو الهمة هو إيثار الدعة، والرضا بالدون، والقعود عن معالي الأمور.

٥ ـ دنو الهمة خلق ساقط، ومسلك شائن، لا يليق بالعقلاء، ولا ينبغي من الفضلاء النبلاء.

٦ ـ لدنو الهمة مظاهر عديدة منها:

أ ـ دنو الهمة في طلب العلم، والكسل في الدعوة إلى الله، والتهرب من المسؤولية.

ب ـ البخل، والمنة، والتكاسل في أداء العبادات، والتكلف والتصنع، والإغراق في المظهرية الجوفاء.

ج ـ الانهماك في الترف، والاشتغال بما لا يعني، وبسفساف الأمور.
د ـ التحسر على ما مضى وكثرة التلاوم، وكثرة الشكوى إلى الناس، والتسويف، والاسترسال مع الأماني الكاذبة.
هـ ـ الافتخار بالآباء العظام والعيش على أمجادهم.
و ـ كثرة المزاح، والإسفاف فيه، واليأس من الإصلاح.
ز ـ استجداء الناس ومسألتهم، وقلة الحياء.
ح ـ الكبر، والكذب، والحقد، ومجاراة السفهاء، وتتبع العثرات.

٧ ـ لدنو الهمة أسباب عديدة تحول بين الفرد والجماعة، وبين الترقي في مدارج الكمال، ومنها:
أ ـ طبيعة الإنسان، وبيئته، وتربيته المنزلية.
ب ـ قلة وجود المربين الأفذاذ، وقلة التشجيع، وصحبة الأشرار، والأثر السيِّىء للإعلام.
ج ـ هم الزوجة والأولاد، وضعف الإيمان، وضعف الغيرة على الحق.
د ـ الإعجاب بالنفس، والاستبداد بالرأي، واستشارة النوكى والمخذلين.
هـ ـ التردد، والخور، والمبالغة في احتقار النفس، والاندفاع الزائد، والمبالغة في تطلب الكمال.
و ـ قلة الصبر، وكثرة الشواغل والقواطع، واختلاق المعاذير، وقلة الحياء، وقلة الإنصاف، والحسد، والطمع، والتقليد الأعمى.
ز ـ الفرقة والاختلاف، والانحراف في باب العقيدة عموماً، وفي مفهوم الإيمان بالقدر على وجه الخصوص.

٨ ـ علو الهمة هو استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور.

٩ ـ علو الهمة خلق سام، وأسمى ما فيه ما كان مقترناً بشرف المقصد، ونبل الهدف والغاية.

١٠ ـ الإسلام دين السمو والعزة، ولذلك فهو يوجه المسلمين إلى اكتساب الهمة العالية، ويدلهم على الطرق الموصلة إليها.

١١ ـ الهمة العالية خُلُقٌ جبلي فطري، وهو في الوقت نفسه خلق اكتسابي يأتي بالدربة والممارسة والمجاهدة.

١٢ ـ هناك أسباب تبعث الهمة، وسبل تعين على اكتسابها ومنها:

أ ـ طبيعة الإنسان، واستعداداته الفطرية، ودور الوالدين في التربية الصحيحة، والنشأة في مجتمع مليئ بالقمم.

ب ـ تقدير النوابغ، ورعاية المواهب، ووجود المربين الأفذاذ، والتوجيه السليم، ومراعاة الميول.

ج ـ الإيمان بالله، وسلامة العقيدة، والجهاد، والدعاء، والحياء، وقراءة القرآن بتدبر وتعقل.

د ـ الأحداث التي تمر بالأمة، والمواقف التي تمر بالأفراد، وتوجه الإعلام للخير.

هـ ـ الشورى، والتوازن، وقبول النقد البناء والنصيحة الهادفة.

و ـ التجافي عن الترف والنعيم، وحسن النية، وإخلاص العمل، وعزة النفس، والسخاء.

ز ـ الإعراض عن الجاهلين، والعفو والصفح، ومقابلة الإساءة بالإحسان.

ح ـ التواضع، ولزوم الإنصاف، والصدق، وإباءة الضيم، والغيرة الصادقة.

ط ـ قصر الأمل، وتذكر الآخرة، وإدامة النظر في السيرة النبوية، والنظر إلى من هو أعلى في الفضائل، وإلى من هو أدنى في أمور الدنيا، ومطالعة سير الأبطال والمصلحين والنابغين، والرحلة والتقلب في كثير من البلاد.

ي ـ استشعار المسؤولية، ومصاحبة الأخيار وأهل الهمم العلية.

ك ـ التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب ، والتفاؤل، وإحسان الظن بالله، والقدرة على السرور والابتهاج بالحياة، والصبر والمصابرة، والاعتدال حال السراء والضراء، واستثارة الهمة، وتقوية الإرادة، وانتهاز الفرص، واغتنام الأوقات.

ل ـ السلامة من الغرور ومن المبالغةِ في احتقار النفس، والشجاعةُ والإقدام، واطراح المبالغة في تعظيم شأن الخوف.

١٣ ـ ورد في البحث ذكر لنماذج رائعة في الهمة العالية، وهذه النماذج تتمثل في شخصية نور الدين محمود، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ـ رحمهم الله جميعاً ـ.

هذه صورة عامة لأهم ما ورد في هذا البحث، فأسأل الله أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

دعاء وأمل ورجاء

وأخيراً لا يسعني وأنا أضع يدي عن شباة القلم إلا أن أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ـ أن تجد هذه الصفحات قبولاً في القلوب، وأثراً في النفوس، وأن تكون سبباً لبعث الهمم من مراقدها، وإيقاظ الأمة من سباتها وطول غفلتها.

ثم إن لنا بعد الله ـ عز وجل ـ لأملاً في علماء الأمة ودعاتها الأخيار، وقادتها ورجالاتها الأغيار، وشبابها الأبرار الأطهار أن يعيدوا ما مضى لأمتنا من مجد تليد، وعز شامخ، وأن ينفخوا الروح في الناس، وينذروهم موتة اليأس، والجبن، والخمول؛ عسى أن نسير إلى حياة سامية، وعزٍّ لا يبلى، وما ذلك على الله بعزيز.

ولا بُعْدَ في خيرٍ وفي الله مطمعٌ ... ولا يأسَ من رَوْح وفي القلب إيمان

هذا ما أردت بيانه، وهذا ما أؤمل حصوله؛ فإن ندَّ بيانٌ، أوعيَّ لسانٌ ـ فالعذر العذر، ولا غنى للمرء عن تسديد إخوانه ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وسلام على المرسلين، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المحتويـات

الموضوع	الصفحة
ـ مقدمة سماحة الشيخ عبدالعزيز ابن باز	٥
ـ مقدمة الطبعة الأولى	٧
ـ مقدمة الطبعة الثانية	١١
ـ التمهيد	١٣
ـ تعريف الهمة العالية وما يلحق بها	١٥
ـ أصناف الناس في شأن الهمة	١٨
ـ اختلاف الهمم والشهوات والأماني	١٩
الباب الأول	
معوقات الهمة العالية	٢٣
ـ الفصل الأول: ذم دنو الهمة	٢٥
ـ الفصل الثاني: مظاهر دنو الهمة	٢٩
١ ـ دنو الهمة في طلب العلم	٢٩
٢ ـ الكسل في الدعوة إلى الله	٣٠
٣ ـ التهرب من المسؤولية	٣٢
٤ ـ البخل	٣٤
٥ ـ المنة وتعداد الأيادي	٣٤
٦ ـ التكاسل في أداء العبادات	٣٦
٧ ـ التكلف والتصنع	٣٧
٨ ـ الإغراق في المظهرية الجوفاء	٣٨
٩ ـ الاشتغال بما لا يعني، والانصراف عما يعني	٣٨
١٠ ـ الانهماك في الترف	٣٩

١١ ـ الاشتغال بسفساف الأمور ومحقرات الأعمال ٤٦
١١ ـ العشق ٤٦
١٣ ـ التحسر على ما مضى وترك العمل ٤٩
١٤ ـ كثرة التلاوم وقلة العمل ٥٠
١٥ ـ كثرة الشكوى إلى الناس ٥٠
١٦ ـ الاسترسال مع الأماني الكاذبة ٥٢
١٧ ـ التسويف والتأجيل ٥٢
١٨ ـ الافتخار بالآباء العظام والعيش على أمجادهم ٥٣
١٩ ـ كثرة المزاح والإسفاف فيه ٥٤
٢٠ ـ اليأس من الإصلاح ٥٦
٢١ ـ استجداء الناس ومسألتهم ٥٩
٢٢ ـ الكبر والتعالي ٦٠
٢٣ ـ الكذب ٦٠
٢٤ ـ قلة الحياء ٦١
٢٥ ـ الحقد ٦٢
٢٦ ـ مجاراة السفهاء ٦٢
٢٧ ـ تتبع العثرات، والفرح بالزلات ٦٣
ـ **الفصل الثالث:**
أسباب دنو الهمة ٦٧
١ ـ طبيعة الإنسان ٦٧
٢ ـ التربية المنزلية ٦٧
٣ ـ البيئة والمجتمع ٧٠
٤ ـ قلة وجود المربين الأفذاذ والمعلمين القدوات ٧٠
٥ ـ وسائل الإعلام ٧١
٦ ـ هم الزوجة والأولاد ٧١

٧ ـ قلة التشجيع ٧٣
٨ ـ صحبة الأشرار ومرافقة المخذلين ٧٤
٩ ـ ضعف الإيمان ٧٤
١٠ ـ ضعف الغيرة على الحق ٧٥
١١ ـ الإعجاب بالنفس ٧٥
١٢ ـ استشارة النوكى والمخذِّلين ٧٦
١٣ ـ التردد ٧٦
١٤ ـ المبالغة في احتقار النفس ٧٧
١٥ ـ الخور والمبالغة في تعظيم شأن الخوف ٧٨
١٦ ـ ضيق الأفق ٧٩
١٧ ـ الاندفاع الزائد ٨١
١٨ ـ المبالغة في تطلب الكمال ٨١
١٩ ـ قلة الصبر واستطالة الطريق ٨٢
٢٠ ـ كثرة الشواغل والقواطع ٨٢
٢١ ـ اختلاق المعاذير ٨٣
٢٢ ـ قلة الحياء ٨٥
٢٣ ـ قلة الإنصاف ٨٦
٢٤ ـ الحسد ٨٧
٢٥ ـ الطمع والجشع ٨٨
٢٦ ـ التقليد الأعمى ٨٨
٢٧ ـ الفرقة والاختلاف ٩٠
٢٨ ـ الانحراف العقدي ٩١
٢٩ ـ الانحراف في مفهوم الإيمان بالقدر ٩٣
٣٠ ـ العدوان الخارجي ٩٥

الباب الثاني:
مقومات الهمة العالية

تمهيد: هل يمكن اكتساب الهمة العالية؟ ١٠١
الفصل الأول: علو الهمة ١٠٥
المبحث الأول: فضل علو الهمة، والثناء عليه، والحث على اكتسابه ١٠٧
المبحث الثاني: الهمة العالية وشرف المقصد ١١٣
المبحث الثالث: موقف الإسلام من علو الهمة ١١٩
المبحث الرابع: أقوال مضيئة في الهمة ١٢٩
الفصل الثاني: أسباب اكتساب الهمة العالية ١٣٥
١ ـ طبيعة الإنسان ١٣٧
٢ ـ أثر الوالدين، ودورهما في التربية الصحيحة ١٣٨
٣ ـ النشأة في مجتمع مليء بالقمم ١٤٠
٤ ـ تقدير النوابغ، ورعاية المواهب ١٤٠
٥ ـ وجود المربين الأفذاذ والمعلمين القدوات ١٤٣
٦ ـ التشجيع ١٤٥
٧ ـ التوجيه السليم، ومراعاة الميول ١٤٥
٨ ـ الإعلام ١٤٦
٩ ـ سلامة العقيدة ١٤٦
١٠ ـ الجهاد في سبيل الله ١٤٨
١١ ـ قوة الإيمان بالله ـ عز وجل ـ ١٤٩
١٢ ـ الدعاء ١٤٩
١٣ ـ الحياء ١٥٠
١٤ ـ قراءة القرآن بتدبر وتعقل ١٥٠
١٥ ـ الأحداث التي تمر بالأمة ١٥٢
١٦ ـ المواقف التي تمر بالإنسان ١٥٣

١٧ ـ التجافي عن الترف والنعيم ١٥٥
١٨ ـ التوازن وإعطاء كل ذي حق حقه ١٥٧
١٩ ـ استشارة العقلاء العاملين، والحذر من استشارة الحمقى والقاعدين ١٥٨
٢٠ ـ قبول النقد البناء والنصيحة الهادفة ١٥٩
٢١ ـ حسن النية وإخلاص العمل ١٦٠
٢٢ ـ عزة النفس ١٦٢
٢٣ ـ السخاء: ١٦٦
* أثر السخاء في سيادة الأمة ١٦٧
* من سور السخاء ١٧١
* تفاضل الناس بالسخاء ١٧٨
٢٤ ـ الإعراض عن الجاهلين ١٨٢
٢٥ ـ العفو والصفح ومقابلة الإساءة بالإحسان ١٨٤
٢٦ ـ التواضع ١٨٦
٢٧ ـ لزوم الإنصاف ١٨٧
* أمور تعين على الإنصاف ١٩١
٢٨ ـ لزوم الصدق والصراحة، والترفع عن النفاق والمواربة ١٩٣
٢٩ ـ إباءة الضيم ١٩٦
٣٠ ـ الغيرة الصادقة ١٩٧
٣١ ـ قصر الأمل، وتذكر الآخرة ١٩٨
٣٢ ـ النظر إلى من هو أعلى في الفضائل وإلى من هو أدنى في أمور الدنيا ٢٠٠
٣٣ ـ إدامة النظرة في السيرة النبوية ٢٠١
٣٤ ـ مطالعة سير الأبطال والمصلحين والنابغين ٢٠٣
٣٥ ـ الرحلة والتقلب في كثير من البلاد ٢٠٣
٣٦ ـ استشعار المسؤولية ٢٠٦
٣٧ ـ مصاحبة الأخيار وأهل الهمم العلية ٢٠٧

٣٨ ـ التوكل على الله مع الأخذ بالأسباب ٢٠٨
٣٩ ـ التفاؤل ٢١١
٤٠ ـ القدرة على السرور، والابتهاج بالحياة ٢١٢
* أمور تعين على السرور والابتهاج بالحياة ٢١٣
٤١ ـ الصبر والمصابرة، والجد والمثابرة ٢١٨
٤٢ ـ توطين النفس على الاعتدال حال السراء والضراء ٢٢١
٤٣ ـ الحرص على الإفادة من كل أحد ومن كل موقف ٢٣٠
٤٤ ـ استثارة الهمة، وتحريك الإرادة ٢٣٤
٤٥ ـ تقوية الإرادة، ومغالبة النفس ٢٣٥
* علاج الإرادة المريضة ٢٣٦
٤٦ ـ انتهاز الفرص ٢٤١
٤٧ ـ اغتنام الأوقات ٢٤١
*مما يعين على اغتنام الأوقات ٢٤٤
٤٨ ـ السلامة من الغرور، ومن المبالغة في احتقار النفس ٢٥٤
٤٩ ـ الشجاعة، والإقدام، واطراح المبالغة في تعظيم شأن الخوف ٢٥٦
* أمور تعين على اكتساب الشجاعة ٢٦١
٥٠ ـ الإقبال على ما ينفع، والإعراض عن كل ما لا ينفع ٢٧٠
الفصل الثالث: نماذج رائعة للهمة العالية ٢٧٥
١ ـ نور الدين محمود ٢٧٧
* أولاً: صفاته ومناقبه ٢٧٨
* ثانياً: جهاده، وفتوحاته، وإصلاحاته ٢٨٨
*ثالثاً: نور الدين في الأدب ٢٩٠
٢ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية ٢٩٤
* علمه: ٢٩٤
* تعبده: ٢٩٧

* سمته وهديه وخلقه ٢٩٨
* شجاعته : ٣٠٠
٣ ـ سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ٣٠٢
نبذة عن حياته ٣٠٢
أ ـ اشتغاله بالتدريس ٣٠٣
ب ـ أخلاقه وصفاته ٣٠٤
ج ـ خشيته لله : ٣٠٦
هـ ـ أعماله : ٣٠٦
الخاتمة ٣٠٩
دعاء وأمل ورجاء ٣١٣
المحتويات ٣١٤

